الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قســــــــم الفلسفة

الرقم التسلسلي:................................
رقم التسجيل:...................................

عنوان البحث

التقنيات الطبية وقيمتها الأخلاقية في فلسفة فرانسوا داغوني François Dagoget

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة

تقديم الطالب: إشراف الدكتور:

العمري حربوش **محمد جديدي**

أعضاء لجنة المناقشة **تاريخ المناقشة**: 21 ماي 2008م

د -لخضر مذبوح	**أستاذ محاضر**	**رئيسا**	**جامعة منتوري قسنطينة**
د. محمد جديدي	**أستاذ محاضر**	**مشرفا ومقررا**	**جامعة منتوري قسنطينة**
د. فتيحة زردلوي	**أستاذة محاضرة**	**عضو مناقشا**	**جامعة الجزائر**
د. رشيد دحدوح	**أستاذ مكلف بالدروس**	**عضو مناقشا**	**جامعة منتوري قسنطينة**

السنة الجامعية: 2007-2008م

شكر و اعتراف بالجميل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم. أعترف بأنه مهما كانت الكلمات التي سوف أعبر بها عن شكري، فهي لا تتسع لمعاني عرفاني بأستاذي والمشرف على بحثي الدكتور "محمد جديدي" الذي غمرني برعايته العلمية الدقيقة ميزها سخاء وتواضع العلماء. لقد كان تقويمه لعملي سديدا ثريا بالملاحظات القيمة والإرشادات التي نبهتني إلى أمور كثيرة بسيطة كنت قد حملتها ما لا تطيق، وأخرى معقدة إستخففتها. فالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل. كما لا يسعني إلا أن أسدي خالص شكري لأساتذتي المحترمين الذين مهدوا لنا الطريق لهذا العمل، ومنحونا فرصة ليس لها مثيل بمساعداتهم العلمية والإدارية. كما لا يفوتني أن أقدم جزيل الشكر للفيلسوف فرنسوا داغوني شخصيا على كل الرسائل التي لم يبخل بها عليا والتي ساعدتني على فهم أهم مبادئ فلسفته. له ولكل من ساعدني علميا وعمليا ونفسيا من قريب أو من بعيد على إنجاز هذا العمل الشكر الخالص.

حربوش العمري

مقدمـــــــة

مقدمـــــــــة:

عصر التنوير عصر اتصف بهيمنة النزعة الوضعية المادية على تفكير الإنسان حتى أصبح يُنظر إلى الوجود وما فيه من موجودات، على أنها أشياء قابلة للحساب والتجريب، بما في ذلك الكائن الحي، والإنسان خاصة. إن اعتبار المظاهر التي تتجلى في المادة الجامدة هي نفسها تتجلى في المادة الحية، وتخضع كلتاهما لحتمية مطلقة تحددها شروط فيزيائية وأخرى كيميائية. على حد تعبير **كلود برنار**. وقد عبر عن هذا العصر الفيلسوف برتراند راسل في قوله:<< لقد كانت الطبيعة وقوانينها محجوبة في الليل، فقال الله لنيوتن كن وتحول كل شيء إلى نور.>>

هذه النهضة العلمية أدت إلى تغيّر النظرة إلى الإنسان ، من ذلك الكائن المقدس إلى مجرد ظاهرة مثله مثل بقية الظواهر الطبيعية الأخرى، وبالتالي أصبح موضوعا للتجريب العلمي. لا بد أن يكون الدافع هو مصلحة الإنسان، المتمثلة في تحريره من مختلف الحتميات. لكن ماذا وراء التحرر؟ إذا كان الإنسان يمثل فيه حقل التجارب، هذا من دون شك، يثير تساؤلات كثيرة حول قيمة الإنسان ومصيره و وظيفته في هذا الوجود، غيرها من التساؤلات التي لا تجد لها في العلم حلولا مناسبة، بالرغم مما يمتلكه من أدوات ووسائل. ولذا عنيت الفلسفة بهذه المهمة وأخذت الدور البارز في هذا المجال، وهو مناقشة النتائج العلمية من خلال مبحثها وفرعها الجديد، مبحث الإبستيمولوجيا Epistémologie، حقل خصب للتفكير الجاد في مسائل العلوم، استطاع أن يجلب له عددا كبيرا من الباحثين.

لا غرابة إذن في أننا نجد الكثير من العلماء خاصة منهم البيولوجيين والأطباء الذين تحولوا إلى فلاسفة خلال القرن الثامن عشر. سواء من خلال المذهب الحيوي خاصة الذي طوره علماء مدرسة **مونبلييه** Montpellier الفرنسية، أمثال الطبيب الفرنسي **بارتيز** Paul Joseph Barthez (1734-1806م) و **بوردو** Théophile de Bordeu وغيرهم، أو فلاسفة مذهب الحياتية، أو الإحيائيون، أمثال ادوارد تايلور Edward B.Tylor (1832-1917م). وفلاسفة آخرون معاصرين أمثال الطبيب والفيلسوف الفرنسي **جورج كانغيلهم** Georges Canguilhem (1904-1995م)، وكذا تلميذه الطبيب والفيلسوف والإبستولوجي **فرانسوا داغوني** François dagognet **1924** م وهو الفيلسوف الذي تناولت مواقفه الفلسفية الإبستيمولوجية من الطب والبيولوجيا، كموضوع لأطروحتي. محاولاً الإجابة عن تساؤلات كثيرة حول الآثار السلبية التي يمكن أن تتمخض عن التقدم والتطور الذي شهدته العلوم، والتقنيات المستعملة، خاصة في مجال البيولوجيا والطب خلال القرن الحالي وكيفية علاجها. فقد أنشأت هيئات ومنظمات وجمعيات، مهمتها متابعت ومراقبة النتائج المتمخضة عن هذه

التطبيقات العلمية وما لها من تأثير على الكائن الحي والإنسان على الخصوص. كما أقيمت لهذا الغرض مؤتمرات، وملتقيات، وندوات جمعت العلماء والفلاسفة ورجال الدين والسياسيين وغيرهم، وقد نتج عن كل هذا ظهور مفاهيم جديدة أهمها مفهوم البيوإطيقا، مؤسسة جديدة ورد فعل مباشر عن التقدم الذي أحرزه الإنسان في مجال علم الوراثة وبيولوجيا الإنجاب، هذه الموضوعات التي لم تكن تدعوا إلى التفكير من قبل.

هل هذا يعني أن طبيعة الإنسان الأخلاقية هي التي دفعته إلى التساؤل؟ فالبعض يحذر من الصورة الجديدة التي سوف تكون عليها البحوث البيولوجية وترى فيها صورة من صور الانتخاب وتحسين الجنس البشري Eugénisme، لا تفرضه سياسة دكتاتورية الدولة، بل وجَد قبولا من طرف المجتمع الديموقراطي. وطرف آخر يرى بأن هذا الأمر يعيد سلطة الدين والكنيسة إلى الساحة، نتيجة القضايا التي أثارتها علوم الحياة. البعض الآخر يتساءل عن آفاق العلاج التي تفتحها الاكتشافات في مجال اكتشاف خلايا إنشائيّة أو جذعيّة Cellules souches. وكذا التساؤل حول التجارب التي تقام على الجنين البشري. في مقابل ذلك الكثير لا يفهم لما هذه الاعتراضات التي تمارسها القوانين الحالية للبيوإتيك (أخلاق حياتية). والتي تمس حرية البحث، واستعمالات التقنية في مجال البيولوجيا والطب.

في هذا الصدد يبرز **فرانسوا داغوني** كفيلسوف علم يريد من خلال فلسفته اعادة الإعتبار للنقاش الفلسفي وللفلسفة، ويرى أن أهميتها اليوم خاصة، أكثر من أي وقت مضى، لأنها تهتم بالمستقبل، تهتم بما تُعدّه العلوم، وهذا يصدق أكثر على البيولوجيا، أين نجد القلق أكثر من أي ميدان آخر. فمهما تقدمت العلوم والمعارف ومهما كان تدخل التكنولوجيا في شؤون الإنسان، تظل للفلسفة مهمتها الخاصة، فهي أقرب وألصق بالفعل الإنساني المباشر. كيف يوظف الفيلسوف **داغوني** هذا النقاش الفلسفي في إثبات ابستيمولوجيا خاصة بالطب؟ وما هو تقييمه للفعل الإنساني وللتقنيات التي يوظفها خاصة في مجال البيولوجيا والطب؟ وما هي قيمتها الأخلاقية؟

من دواعي اختياري لهذا الموضوع بالدرجة الأولى محاولة فهم طريقة تعامل الفلسفة مع أهم مبحث علمي وأقربه للإنسان وهو الطب، ثم أن مبحثا كهذا نكاد لا نعثر له من أثر في المكتبات العربية، وهو أمر يدعو إلى بذل كل الجهود من أجل مشاركة العالم في كل البحوث والمساهمة ولو بقليل في إثرائها، ونحن نعلم أننا سوف ندرك هذه الممارسات آجلاً أم عاجلاً.

وقد اعتمدت في إعداد هذا العمل المتواضع على قراءة أهم المصادر ومؤلفات الفيلسوف، وأهم مقالاته، ومحاضراته. وقد حاولت تحرّي الموضوعية سواء في القراءة أو في الترجمة. كما استعملت المنهج التحليلي في رصد وفحص مضامين وأبعاد الموضوع في مصادر المؤلف، كما

وظّفت منهج المقارنة في تتبع تاريخ الطب وأخلاقياته وبعض المفاهيم سواء التي تتعلق به أو القريبة منه كالبيلوجيا. ثم أعدت تركيب ما توصلت إلى فهمه عند حدود الإمكان. وقد اقتضى مني هذا العمل توظيف خطة، تحتوي على مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة. أما المقدمة: فقد تضمنت التعريف بالموضوع وأهميته ودواعي اختياري له وضبط إشكالية البحث ومنهجه

أما **الفصل الأول،** تحت عنوان الثورة البيولوجية ونتائجها فقد تناولت فيه الحديث عن تاريخ الثورة البيولوجية، والتطور التقني في هذا المجال لأن مصدر التساؤل عن القيمة الأخلاقية للتقنيات الطبية كان أساسه ذلك التطور المذهل الذي أحدثه الإنسان في مجال علوم المادة الحية، والبحوث الطبية على وجه الخصوص. ولما كان التقييم لهذه التقنيات أخلاقيا، والأخلاق مبحث من المباحث الأساسية في الفلسفة، وهو قديم بقدمها، كان لزاما علي، التمييز بين هذا المبحث، وبين الأخلاق في صورتها الجديدة، أي بعد ارتباطها بالعلوم البيولوجية والطبية، والذي جعل منها أخلاق ذات طبيعة عملية، جعل منها لغة تستعملها كل الشرائح الاجتماعية، من فلاسفة وعلماء (أطباء خصوصا)، واجتماعيين، ومتدينين، وسياسيين وقانونيين(مشرّعين). ومنه تحدثت عن المصطلح الجديد و هو البيوإطيقا، و ميزته عن أخلاقيات مهنة الطب، وتناولت معناه في الدين وفي القانون.

أما **الفصل الثاني**: تحت عنوان فلسفة الطب عند **داغوني،** فإنني تناولت فيه تأسيس الفيلسوف لإبستمولوجيا خاصة بالطب، بعد الحديث عن موقفه من تاريخ الفلسفة وتصوره لحال الفلسفة اليوم، لأن عملية الربط بين التصور الفلسفي، والتصور العلمي يقتضي بالدرجة الأولى الحديث عن مهمة الفلسفة اليوم، من خلال مبحثها الجديد وهو مبحث الإبستمولوجيا. وقد كان أمرا عسيرا لأنه يتطلب التمييز بين كثير من المفاهيم العلمية والفلسفية. كما تناولت فيه الأسس المعرفية التي اعتمد عليها **داغوني** لإثبات ابستمولوجيا خاصة بالطب، وأنتهيت في هذا الفصل إلى الحديث عن موضوع الطب ومنهجه، ولم يكن الغرض من ذلك هو غثبات أن الطب علم كبقية العلوم بل كان الغرض هو إثبات أن الطب، مختلف عن العوم، فهو معطى تجريبي فريد من موعه.

أما في **الفصل الثالث**: الذي كان عنوانه البيوإطيقا في نظر **داغوني،** والذي تناولت فيه الحديث عن تصور **داغوني** البيوإطيقي، للتقنيات الطبية ولم يكن هذا الأمر ممكنا دون التطرق إلى تصوره عن الطبيعة لأن الحياة كما يقول هي المخبر الأول لها، هذا لا يجعل منها مقدسة، بل على العكس من ذلك، هي همجية إلى درجة أنها بحاجة إلى موجِه، وهو الإنسان الذي يسعى دوما إلى عقلنة الطبيعة. من ثم تعرضت إلى تصوُّرَهُ للكائن الحي الإنسان خاصة، لأنه من جهة جزء من الطبعة، ومن جهة أخرى كونه موضوع التجارب العلمية والتطبيقات التقنية الطبية والبيولوجية، كما أنه يشكل موضوعا مشتركا بين العلوم خاصة(

البيولوجيا والطب) والفلسفة.أما الخاتمة، فقد احتوت على ملخص لأهم النتائج والأفكار المميزة لهذا البحث.

ولمّا كان كل بحث علمي أكاديمي لا يخلو من الصعوبات، فقد بذلت ما في وسعي في التغلب على بعض الصعوبات التي واجهتها مثل ترجمة الكثير من مصطلحات الفيلسوف، التي لا أجد لها غالبا مقابل في اللغة العربية. ومن الصعوبات التي زادت في عنائي أكثر في هذا البحث، ومن خلال فحصي للدراسات في هذا المجال، لم أجد ترجمات لأعمال الفيلسوف، وهذا بحسب علمي. إلى جانب هذا ومن أهم الصعوبات التي وجدتها، نقص المراجع التي تتحدث عن فلسفة الطب والبيولوجيا، ما عدا البعض منها.

الفصل الأول

الفصـــــل الأول

الثورة البيولوجية ونتائجها

الفصل الأول

الثورة البيولوجية ونتائجها

1 ــ تاريخ الثورة البيولوجية

إن لمصطلح الثورة البيولوجية révolution biologique دلالات كثيرة، أهمها التغير، سواء في النظرة للمادة الحية خاصة منها الإنسان، أو في طريقة التعامل معها، أو الوسائل

المستعملة في البحث العلمي البيولوجي. ولذا، فإن الحديث عن الثورة البيولوجية يرتبط بمرحلة معينة من تاريخ تطورها. لنقل أن بوادر الثورة البيولوجية كانت في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وبما أن البحث في مجال المادة الحية ليس وليد اليوم، بل خضع لتطور تاريخي قبل أن يصل إلى هذا المستوى من التقدم، بحيث أنه يمتد إلى ما قبل اليونان، فإن هذا يعني من دون شك، ارتباط هذه البحوث بالتفكير الفلسفي خاصة، وارتباط العلم بالفلسفة عامة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ولأن مراحل تطور البيولوجيا هي من الأهمية والسعة بحيث لا تكفي فصولا بأكملها لتناولها، فسأقتصر على أهمها حتى نبرر هذه الثورة تاريخيا. ومن ناحية أخرى أحاول توضيح ما أفرزته هذه الثورة من نتائج خاصة منها المتمثلة في التقنيات الطبية Techniques Médicale وتأثيرها على المجتمع، وآثار ذلك على الفلسفة ونظرتها للطبيعة والحياة وتأثيرها على الفلاسفة أمثال **فرانسوا داغوني**[1] François Dagognet. وكذلك نتائج هذا التطور المتمثل في مختلف التساؤلات الأخلاقية، أو ما يسمى بالبيوإطيقا Bioéthique وتبني مختلف الهيئات لها، الدينية والإجتماعية والسياسية. وموقف الفيلسوف **داغوني** منها. وانطلاقا من مبدأ أن الشيء لا يوجد من العدم، فإن البيولوجيا علم من العلوم التي خضعت

---

1 **فرانسوا داغوني** François Dagognet طبيب وفيلسوف وابستمولوجي فرنسي، ولد في يوم 24 أفريل سنة 1924 م، بمدينة لانغريس Langres تلقى تكوين مزدوج، علمي وفلسفي تلميذ الفيلسوف الفرنسي**جورج كانغيلهم**، اشتغل كأستاذ فلسفة سنة 1949، كما حصّل على دكتوراه في الطب سنة 1958، كما تلقى تكوين في مجال طب لأعصاب، وكذا في الكيمياء والجيولوجيا، وهذا يفسر من دون شك إهتماماتهالفلسفية في هذه المجالات. تقلد منصب أستاذ بجامعة ليون Lyon الفرنسية، ثم جامعة الصربون بباريس Paris، إن فلسفة داغوني المرتبطة بالواقع، توسعت شيئا فشيء حتى شملت المسائل المتعلقة بالبيولوجياوالطب، كما عمل على تحليل العالم المعاصر بكل أبعاده وإفرازا ته خاصة منها التقنيات العلمية، وإجراءاته الإدارية والقانونية، وكذا إبداعاته الفنية. إن الفيلسوف داغوني من الفلاسفة الذين يمكن الإستعانة بهم في فهم قضايا العالم المعاصر بمظاهره الجديدة،ومفاهيمه المركبة، وفلسفته تعبير عن وظيفة الفلسفة اليوم.

يقول عنه أستاذه **كانغيلهم:** " إن أعمال **داغوني** تمثل مساهمة فعالة في إعادة تشكيل ما هو آت. نحن بحاجة إلى التعلّم منه كيف أصبح لغز الباطن واضح، ليس بواسطة إخراجه، بل بواسطة إزالت طيّات الظاهر أو السطح."حتى إن كان من الصعب تصنيف الفيلسوف **داغوني** بشكل واضح، فهو مثلما عبر عنه البعض يُفلت من التصنيف بالرغم من أنه فيلسوف التصنيف. ولكن من خلال مراسلتي له كشف لي عن بعض خُصصيات هذه الفلسفة، فهي مادية بيولوجية، يمكن اعتبارها كذلك نوع من الميتافيزيقا الجديدة، أو فلسفة نقدية بشكل عام.

للتطور إلى يومنا هذا. وعليه يتعين علينا أن نشير مبدئيا أنه لم تعرف دراسات جادة ومنظمة في مجال البيولوجيا إلا في العصر اليوناني.[2]

بحيث تعتبر ملاحظات **أرسطو** (384-322 ق م) حول التكاثر وبنية الكائن الحي Anatomie من خلال كتابه " مقالة في تاريخ الحيوان " وكذا تصنيفه للكائنات الحي، من أهم البحوث، التي جعلت منه أول عالم الحيوان Zoologiste . ولما لا جديرا بأن يكون أبا علم الأحياء، على حد تعبير **جورج سارتون** الذي يقول في كتابه (تاريخ العلم): << إن الباحثين في علم الأحياء في عصرنا الحاضر لتعروهم الدهشة وهم ينظرون في كتب **أرسطو** المتصلة ببحوثهم – لوفرة ما يجدون فيها من تفصيلات. (...) فلقد اقتحم مجالات البحث الكبرى – من تشريح مقارن، ووظائف أعضاء، وعلم أجنة، وطبائع حيوان، وتوزيع جغرافي.>>[3] أما تلميذه **ثيوفراسطس** Théophraste (372-288 ق م) فهو أول عالم في النبات Botaniste وقد يصدق عليه ما قد صدق على أرسطو، فقد لقبه **جورج سارتن** بأب علم النبات. يرجع هذا إلى تصنيفه للنبات، وخاصة أمراض النبات. وهو بحث مهم ضمن تسعة كتب في "تاريخ النبات" Péri phyton historia، وستة كتب أخرى تضم "دراسة في علل النباتات" Traité sur les causes des plantes Péri phyton aition. وهو الكتاب الوحيد الذي بقي، يبين التوجه العلمي لبحوثه.[4]

بالرغم من النظرة العلمية التي كان اليونانيون يتمتعون بها. وذلك باعتمادهم الطريقة التجريبية، إلا أن الكثير من الدارسين لتاريخ العلم، يرون في الجهود المبذولة، منقوصة من القدرة على النهوض بالعلم، لعجزها على استنباط النظريات العلمية العامة.[5] ولذا فالدراسات العلمية في مجال البيولوجيا، لم تكن مستقلة استقلالا تاما عن الفلسفة والعقيدة وهذا طبعا يؤثر على دقة النتائج العلمية.

ا) <u>أسباب تأخر البيولوجيا:</u>

إن مقارنة تاريخية بسيطة بين البيولوجيا والعلوم المادية أو الطبيعية الأخرى، كالفيزياء والكيمياء مثلا، تكشف عن ذلك المستوى الكبير من التقدم الذي بلغته هذه الأخيرة، في مقابل

---

2 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 3، ترجمة، ماجد فخري و آخرون، دار المعارف مصر، الطبعة الثانية، 1970م.، ص. 253 .

3 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 3، ص. 253.

4 المرجع نفسه، ص. **289**.

5 صلاح قنصوة، فلسفة العلم، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1987م.، ص.111.

تأخر ملحوظ للبيولوجيا وفي مجال دراسة المادة الحية، قبل القرن التاسع عشر. هذا التأخر يرجعه بعضهم إلى بعض العوائق الإبستمولوجية والتي من أهمها:

ـــ النظرة الخاصة للمادة الحية (قدسية المادة الحية)، خاصة منها الإنسان. لقد سعت الفلسفة من خلال الدراسة الأخلاقية إلى فهم الإنسان ومكانته في الوجود. وقد اختلفت نظرتها للإنسان من عصر إلى آخر: قدسية الحياة والإنسان ترجع إلى جذور دينية على العموم. وتتمثل في حُرمة الإنسان Inviolabilité، فالحياة قبس من الله. حتى أنه كان يعتقد قديما أن الله خلق الإنسان على صورته. فالإنسان صورة من صور الكمال. وكان يعتبر في بعض الحضارات إلها.[6]

ففي العصر اليوناني، كان الهدف خلق المواطن الصالح. من خلال وضع (أخلاق الإنسان الفاضل)، وقد كان الجسد يمثل الجانب الحيواني فيه، بينما الروح هي الجانب المقدس وكان الهدف جعل الروح هي المسيطرة. ولذا نجد **أفلاطون** Platon (429-347 ق م) في محاورته مع فيدون الفيلسوف يرحب بالموت لأنه يخلصه من الجسد سجن الروح. والأغرب من هذا هو أننا نجد المجتمع اليوناني المعروف بطبقيته، بدوره ينقسم إلى عبيد يعملون بأيديهم يمثلون (الجسد). أما (الروح) يمثلها من يعملون بعقولهم.

أما في العصور الوسطى، فقد تناول الفلاسفة اللاهوتيون القضايا الفلسفية من زاوية العقيدة الدينية وحاولوا تحديد علاقة الإنسان بذاته وبما يحيط به، من خلال علاقته بالله. وفصل الإنسان عن ذاته الإنسانية، من خلال السعي إلى كبت الطبيعة البشرية. فالطبيعة فيها من الفساد والتشتت ما يجعلها بحاجة إلى ضبط وتقويم. ومبعث هذا هو ذلك الشعور بالخطيئة الذي يلازم الإنسان واستمر هذا التصور حتى العصور الحديثة.

وفي العصر الحديث، عملت الفلسفة على نزع قيود المسيحية على فكر الإنسان وعلى سلوكه. وظهر لدى مجموعة كبيرة من الفلسفات الاهتمام بالإنسان، فالإنسان غاية في حد ذاته عند **كانط** E. Kant (1724-1804م) يعتبر هذا الأخير نقطة تحول في النظر إلى الإنسان على أساس عقلي لا على أساس ديني. كما ذهب **هيغل** Hegel (1770-1831م) في كتابه" أصول فلسفة الحق " إلى اعتبار الأمر المطلق للحق هو:" كن شخصا، واحترم الآخرين بوصفهم أشخاصا." وهو في الحقيقة أساس كنطي استمد منه **هيغل** جميع حقوق الإنسان السياسية، من حق الملكية، الحيازة والتعاقد...الخ.

أما **جون ستيوارت مل** John Stuart Mill (1806-1873م) صاحب الفلسفة النفعية فقد ذهب إلى المطالبة بالخير الأعظم لأكبر عدد من الناس.[7]

---

6 ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ج. 2، المجلد الأول، ترجمة، زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988م.، ص. 95.

7 ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،

وبرزت فكرة الدين الطبيعي وأخلاق طبيعية من خلال ما كشفت عنه الرحلات التي قام بها العلماء الرحالة أمثال **كولومبوس**، و**فاسكو دي غاما**، و**ماجلان**، و**دريك**، وهو وجود شعوب، تعيش بمعزل عن المسيحية، لكن كانت لها أديان وأخلاق، كما ظهرت في المجتمع الغربي المسيحي نظرية جديدة حول الإنسان، تقوم على الاقتناع بالطبيعة والاستغناء عما هو فوق الطبيعة.[8] وقد كانت هذه النظرية إحدى أسس المذهب الإنساني، الذي كان ملتزما بتقبل الطبيعة الإنسانية، ولذلك فهو مضطر إلى أن يتقبل الصالح والطالح فيها.[9] وقد كان من آثاره سلخ الفلسفة عن الدين، وبعبارة أدق إقامة فلسفة خصيمة للدين، والحملة على الفلسفة المدرسية بالتهكم على لغتها وبحوثها وطريقة استدلالها.[10] تبني رؤية أشمل للإنسان والمجتمع والدولة، تقوم على العلمانية.

ـ من أسباب تأخر البيولوجيا كذلك، الفهم المختل للدين، أدى هذا إلى حرمان الكثير من العلماء من البحث والتنقيب في التركيب الداخلي للكائن الحي وهذا ما نلاحظه خاصة في أوروبا الوسيطية أثناء سيطرة الكنيسة. مما أدى إلى تأخر علم التشريح، نتيجة تحريمه.

ـ تعقيد المادة الحية، إذا ما قورنت بالمادة الجامدة، فهذه الأخيرة يمكن التجريب عليها والتدخل في نظامها، تفكيكها، إعادة بنائها هذا لا يغير من طبيعتها إلا القليل.

أما المادة الحية، فكونها تتصف بالوحدة والعضوية. فهي إن تعرضت للتجريب أو التفكيك أو أي تدخل، يؤثر هذا عليها، وعلى طبيعتها. لأن للمادة الحية ردود فعل خاصة لا تتوفر عليها المادة الجامدة. هذه الأسباب أثرت بشكل سلبي على البيولوجيا وثبطت مسار تطور البحث البيولوجي إلى غاية بداية القرن التاسع عشر، أين عرفت البحوث البيولوجية تغيرات عميقة توقفت على النتائج التي توصلت إليها. وهذا يعني، أنه بالرغم من التطور الذي أحرزته البيولوجيا، خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، إلا أنها لم تزل في نظر الفيلسوف **داغوني** في مرحلة ما قبل العلمية. لأنها كانت تخلط بين أدق الملاحظات والتجارب، بمذاهب مبعثرة تعتمد المجاز.[11] توقفت على النتائج التي توصلت إليها، ويمكن تحديد أكبر أطوارها.

الكويت، العدد، 147، جويليا 1993م.، ص. ص. 97- 98 .

8 يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت لبنان، ص.**6** .

9 رالف بارتن بري، إنسانية الإنسان،ترجمة، سلمى الخضراء الجيّوسي، مؤسسة المعارف،بيروت، 1961م.، ص.32.

10 يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص. 6 .

11 François Dagognet, Pour une théorie générale des formes, Librairie philosophique J. Vrin, Paris, 1975, p. 173.

ب) الثورة البيولوجية وأسبابها:

امتد تأثير الحضارات القديمة لا سيما اليونانية والإسلامية منها في المجال العلمي إلى العصور الحديثة. بحيث ظلت كتب اليونانيين، وكتب المسلمين في الطب خاصة تترجم وتدّرس إلى عهد قريب بشكل واضح. ولم يتحول الطب من مجرد فن للعلاج، إلى علم له أسسه المنهجية، وطرائقه في البحث والاكتشاف، إلاّ في المرحلة الوضعية للعلم. يعتبر القرن الثامن عشر عصر التنوير، وهو عصر الإيمان بقدرة العقل على كشف أسرار الكون. وتحت تأثير فكرة الحتمية Le Déterminisme الميكانيكية الشاملة، والحتمية مبدأ يفيد عموم القوانين الطبيعية وثبوتها، فلا مصادفة ولا حرية ولا مبالاة. ويقوم على الشرائط الضرورية لتحديد ظاهرة ما، فكل شيء في الوجود يُرد إلى العلة والمعلول.[12]والحتمية فرضتها فيزياء **نيوتن** Newton Isaac(1642-1727م). ومنه أصبح كل شيء يُنظر إليه على أنه قابل للدراسة التجريبية، ويخضع لنفس المبادئ التي تخضع لها ظواهر الكون بما في ذلك المادة الحية. أما الميكانيكي فهو يقوم على تشبيه العالَم بالآلة التي تسير وحدها من غير تدخل من عقل أو توجيه. ويقصد بالاتجاه الميكانيكي، القول بأن أحداث العالم لا ترتبط فيما بينها إلا برباط العلية (أو السببية)، وأن الحركة هي الظاهرة العامة في الطبيعة، ولها قوانين خاصة. والميكانيكية تقابل النزعة العضوية الحيوية (التي تطلق على كل نمو ناشئ عن تأثير قوة مركزية داخلية تعمل لغاية معينة) من جهة وتقابل النزعة الديناميكية(التي تقول بالتفاعل بين القوى تفاعلا متبادلا) وتركز على الانفصال وتفصل ما بين المادة والقوة، وترى كل الأحداث نتائج للحركة لا للقوة المتفاعلة.[13]

وقد أثر هذا على أعمال البيولوجيين وعلماء الحياة، إلى درجة أنهم حاولوا تطبيق المنهج التجريبي المستعمل في دراسة المادة الجامدة على المادة الحية. وكان من نتائج كل هذا تغير نظرة العلماء للطب والبيولوجيا، وتغير نظرة الفلاسفة للحياة. لقد كان رد فعل العلم ضد الفلسفة واضحا.[14] يتجلى على الأخص في انفصال العلوم عنها تباعا، وكذا من موقف الفلاسفة الوضعيين الكلاسكيين المعارض للميتافيزيقا، والذي يمكن توضيحه عبر بعض النماذج من الفلاسفة أمثال: **أوغست كونت** Auguste comte (1798-1857م). فمن خلال كتابيه "دروس

---

12 إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة، عزّت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد، 165،سبتمبر 1992م.، ص. 31.

13 إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، ص. 22.

14 برتراند رسل، حكمة الغرب، ج. 1، ترجمة، فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد، 62، فيبراير 1983م.، ص. 196.

في الفلسفة الواقعية" Cours de philosophie positive الذي استغرق كتابته حوالي أثنى عشرة سنة (1830-1842م).

وكتاب مقال في الروح الواقعي Discours sur l'esprit positif 1844م. يعتبر **كونت** هو مؤسس المذهب الواقعي أو الوضعي Positivisme.[15]هذا المذهب الذي يرى بأن اليقين التام لا يتحقق إلا في العلوم التجريبية، وأن العقل لا يدرك إلا الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات ثابتة أو قوانين. ومن ثمة على العقل العدول عن كل بحث في العلل والغايات وما يسمى بالأشياء بالذات أو المباحث الميتافيزيقية بشكل عام، وقد كان رفضه للاهوت والميتافيزيقا، مبنيا على حقيقة أن ادعاءاتها المعرفية لا يمكن تبريرها بمناهج البحث العلمي. هذا لا يعني أن **كونت** عدو للأخلاق والدين، بل يعتقد أنه يجب أن لا نفكر بهما كمنافسين للعلم، على العكس من ذلك يجب أن يتوجها إلى العلم للتأكد من صحة معرفتهما.[16]

من المعارضين للميتافيزيقا كذلك نجد الطبيب والفيلسوف واللغوي والسياسي الفرنسي **إميل مكسميليان بول ليتريه** Littré. Emile Maximilien Paul (1801-1881م) مؤسس صحيفة " الطب الأسبوعي" 1828م، كما أسس جريدة طبية تحت اسم "التجربة". تعّرف **ليتريه** على الفيلسوف **كونت** عام 1844م وأفترق عنه بعد أن غرق هذا الأخير في الصوفية. تعلق بالفلسفة الوضعية ورفض التصوف، وقد كانت جل مؤلفاته تتحدث عن الوضعية، وبالضبط وضعية كونت. من هذه المؤلفات: أقوال في الفلسفة الوضعية 1859م، **أوغست كونت** والفلسفة الوضعية 1863م. وغيرها في اللغة والتاريخ.[17]نجد كذلك من الفلاسفة المعارضين للميتافيزيقا، الفيلسوف الإنجليزي **هربرت سبنسر** Herbert Spencer (1820 -1903م) الذي يذهب إلى أن موضوع المعرفة ينحصر في جملة العلوم الواقعية، وكل ما خرج عن العلوم والفلسفة الواقعية، يشكل مجال المجهول أو ما يجاوز إدراكنا، وبذلك يستبعد الفيلسوف **سبنسر** الميتافيزيقا والمنطق حين عرض جملة العلوم في كتابه "المبادئ الأولى". اعتماد على فكرة الإستحالة الصورية لإدراك المطلق، ويرجع هذا إلى نسبية المعرفة، ومن جهة أخرى، يبطل المذاهب الميتافيزيقية في المطلق.[18] نجد هذا الاعتراض على الميتافيزيقا كذلك عند الفيلسوف الفرنسي **بيير لافيت** Pierre Laffite(1823-1903م). من أتباع **كونت**، ويعتبر رئيس لجنة منفذي وصاياه، ترأس

---

15 يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص. 317.

16 هنري ايكن، عصر الإيديولوجيا، ترجمة، محي الدين صبحي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1982م.، ص. 84.

17 روني إيلي ألفا، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، ج. 2، مراجعة، جورج نخل، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992م.، ص. ص. 398- 399.

18 يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص. ص. 357- 358 .

اللجنة الوضعية وساهم في تحرير مجلة السياسة الوضعية 1872م. كما أسس المجلة الغربية عام 1878م. وأصبح أستاذا للتاريخ العام للعلوم في Collège de France، للفيلسوف كتاب، دروس في الكوسموغرافيا Cosmographie 1853م (علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه، أو هو وصف عام للكون). ألف كتاب، محاولات فلسفية حول تاريخ العام للإنسانية 1859م. وكتاب حول الأخلاق الوضعية 1880م.[19] يعتبر الفيلسوف النمساوي **أرنست ماخ** E. Mach (1838 - 1916م) كذلك من المعارضين للميتافيزيقا، إلى درجة أنه حرص كل الحرص في كتابه "الميكانيكا: دراسة تاريخية تطورية"، على عدم استخدام كلمة (قوة)، لأن القوة شيء غير مرئي، واعتبر أن كل الأجسام تتحرك، وبالتالي عرّف القوة من خلال تصور حركي بحت، وهو عجلة السرعة Accélération. ويرجع هذا إلى كونه يعتقد بأن العلم إذا كان له أن يدافع عن نفسه بوصفه الشكل الوحيد للإعتقاد العقلي، فعلى العلماء، حسب اعتقاده، أن يضبطوا أنفسهم ضد استعمال الحدود والنظريات التي ليس لها علاقة يمكن استنتاجها من وقائع التجربة.[20] كل هذا يدل من غير شك على طغيان النظرة المادية والواقعية واعتماد الملاحظة الحسية والتجريب في المعرفة العلمية.

إن بوادر الثورة البيولوجية، كانت مع بدء الرحلات العلمية لجمع أكبر عدد ممكن من المعلومات حول الحيوانات والنباتات. فحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت البحوث ترتكز على إحصاء الكائنات الحية ووصف مظاهرها، وبنيتها. وقد ساهم في هذا العمل كل من علماء الحيوان Zoologistes، وعلماء النبات Botanistes.[21]

ثم تبعتها مرحلة أخرى مهمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمثلت في الاهتمام بدراسة وظائف الكائن الحي، أدى إلى تطور ملحوظ لعلم وظائف الأعضاء Physiologie، تحت تأثير أعمال العالم **كلود برنار** Claude Bernard (1813-1878م). وهي فترة حاول فيها العلماء تقديم تفسيرات لكثير من مظاهر المادة الحية ونشاطها.

في هذا المجال نجد مساهمة **تشارلز داروين** [22] Charles Darwin (1809-1882م) والبحوث التي قدمها في كتابه المشهور " أصل الأنواع" 1859م The origin of specie ،

---

19 روني إيلي ألفا، موسوعة أعلام الفلسفة العرب و الأجانب، ج. 2 ص. 337.

20 هنري ايكن، عصر الإيديولوجيا، ص. 180.

21 يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد، 264، ديسمبر 2000م.، ص. 13.

22 لم يكن دارون هو الوحيد الذي توصل إلى هذه النظرية في ذلك الوقت بل يذكر التاريخ أحد العلماء الذين لم يسعفهم الحظ و هو ألفرد رسل ولاس Alfred Russell Wallace 1823-1913. و الذي تأثر بنفس الباحث الذي تأثر به " داروين"، و هو توماس مالتوس Thomas R. Malthus 1766-

وهي الصورة النهائية والعلمية التي أخذتها النظرية التطورية التي جاء بها **لامارك** Jean Baptiste Lamark (1744-1829م) قبل خمسين سنة. الذي عرض أفكاره في كتابه " فلسفة علم الحيوان " philosophie zoologique 1809م. بيّن فيه علاقة التطور بالبيئة، فالكائنات الحية سلكت مسلكا يكفل لها الانتفاع بالبيئة فالزرافة أجبرتها البيئة على قضم أوراق الشجر، أدى ذلك إلى امتداد رقبتها وبالتالي أصبحت صفة الرقبة الطويلة للزرافة تنتقل بصورة تدريجية وبالوراثة إلى الأجيال التالية.

لم يصبح مذهب التطور مذهبا علميا إلا في العصور الأخيرة، يوم أعلن العلماء عن قانون التناحرعلى البقاء، وقانون الانتخاب الطبيعي **داروين**، أما الأول فهو نتيجة محتومة لما في طبيعة العضويات من قابلية الازدياد والتكاثر، ومن سنن الحياة أن يربو عدد الأفراد الناتجة على من هي عاجزة على البقاء، وأن كل فرد من أفراد النوع الواحد لا يتسنى له البقاء إلا بعد تناحر شديد.[23] أما قانون الانتخاب الطبيعي، فهو سُنة طبيعية تسوق إلى تهذيب الكائنات الحية من طريق اتصالها بالمؤثرات العضوية وغير العضوية المحيطة بها في الحياة، وتدفع النظام العضوي برمته إلى التقدم والارتقاء في فترات الزمان، حتى تصبح ذات كفاية تامة لما يحيط بها من الظروف الملائمة لمراكزها التي تشغلها في الطبيعة.[24] أو يرجعون تبدلها التدريجي البطيء إلى تأثير البيئة والوراثة **لامارك**، أو يجعلون من التطور قانونا كليا محيطا بكل شيء **هربرت سبنسر**. وعليه فإن النظرية التطورية ليست وليدة اليوم، فمذهب التطور، هو مذهب قديم ترجع جذوره التاريخية إلى الفلسفة اليونانية.[25] فقد تضمنت نظريه **أنكسمندروس** Anaximander حوالي(611-547 ق م)، الخاصة بالحياة فكرة أن الحيوانات الأولى خلقت في الماء، ووجدت هذه الحيوانات فيما بعد لها مسكنا على الأرض اليابسة، ولا بد أن يكون **أنكسمندروس** قد نظر إلى الإنسان على أنه تطور عن غيره من الحيوانات، لأن مرحلة حضانته طويلة جدا. ومن الواضح أنها نظرية عن التطور العضوي، من خلالها يكون **أنكسمندروس** رائدا بعيدا لـــ **دارون** و **لابلاس**.[26] وما يقال عن **انكسمندروس**، يقال أيضا عن الفيلسوف **إمبذقليس**

1834 من خلال مؤلفه المشهور. 1788 Essay Of Population.

- ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية و الأخلاق، ص. ص. 63- 64.

23 شارل داروين، أصل الأنواع، ترجمة، إسماعيل مظهر، ج. 1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م.، ص. ص. 119-123.

24 شارل داروين، أصل الأنواع، ج. 1، ص. 250.

25 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1978م.، ص. 295.

26 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 1 ، ترجمة، ماجد فخري و آخرون، دار المعارف مصر، الطبعة الثانية، 1970م.، ص. 372.

الإغريغنتي Empédocle حوالي (490-430 ق م). رأى أن أصل العالم من العاصر الأربعة: النار، الهواء، الماء، التراب. والتحامها وافتراقها إنما يكون بمعايير مختلفة، هي أصل كل المخلوقات في هذا الكون،وليس بين هذه العناصر أسبقية بل كلها أزلية.وهو يعتقد أن القوة التي تجمع العناصر إذا ما تفرقت هي المحبة(الصداقة)، والقوة التي تفرق العناصر إذا ما اجتمعت هي الكراهية. أما الانتصار فيكون بالتناوب بين هاتين القوتين، فإذا بدأنا في الطور الذي تكون فيه الأشياء متحدة بفعل الصداقة، وجدنا الكراهية تظهر شيئا فشيئا وتبسط سلطانها إلى أن تفرق العناصر، فتذبل الصداقة، بعد حين تعود قوة الصداقة من جديد إلى العالم فتطرد الكراهية. وهكذا يسلك العالَم طريقين، طريقا من الإتحاد إلى الافتراق،وآخر من الافتراق إلى الإتحاد وهذا النظام حتمي لا مناص منه لأن هاتين القوتين قَطَعَا وعدا على أن تنتصر بالتناوب. [27]

ومن هذا المبدأ يفسر لنا **انبذوقليس** ظهور الحياة العضوية أو الكائنات الحية على اختلافها وذلك بإرجاعها إلى نِسَبِ امتزاج العناصر وظهورها بفعل المحبة. واعتمادها في ظهورها على الماء والنار في الأرض.

وعليه فإن أول الكائنات العضوية ظهورا الأشجار، وأول مرحلة في تطور الحيوانات ظهور مسخ منها، رؤوس دون أعناق، أذرع دون أكتاف، وعيون دون جباه. ويستند **انبذوقليس** في ذلك إلى أن أقل الكائنات الحية كمالاً أسبقها إلى الوجود. وفي المرحلة الأخرى، بعد ذلك، حين تتجمع الأطراف المبعثرة، تظهر كل أنواع المسخ، ثيران لها رؤوس بشرية، ومخلوقات لكلٍ وجهان. فما يقدر على البقاء يعيش، بينما يفنى الباقي.[28] لاشك أن نظريات **انبدوقليس** الطبيعية قد أثرت على العديد من العلماء والفلاسفة.

وقد ذهب **أرسطو** Aristote (384-322 ق م)، في كتابه تاريخ الحيوان Historia Animalium إلى وضع سلما لترقي الكائنات الحية، كان القصد منه تصنيف هذه الكائنات، لكن يمكن أن نفهم منه حديثا عن التطور. في هذا الكتاب يعتبر **أرسطو**، أن نفس (الأنفس) الكائن الحي تصير أكثر تعقيدا كلما ارتقينا نحو الكمال النسبي، وهو حاصل في أرقى الكائنات وهو الإنسان. يرجع هذا إلى كون **أرسطو** يؤمن بفكرة **التَرَقي**، فالنفوس تزداد تعقيدا تبعا للترقي في المخلوقات، بحيث يوجد، مثلا، في النبات ترقٍ مستمر نحو الحيوان.[29] ومثل هذه الأفكار نجدها في الفلسفة العربية الإسلامية، بحيث لا تعتبر فكرة التطور الاجتماعي عند **إبن خلدون** (1332- 1406م). إلاّ حالة خاصة من تطور الكائنات عامة. يقول في هذا الشأن:<< إنّا

---

27 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 2، ص. 49.

28 علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، 1964م.، ص. ص. 150-151.

29 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 3، ص. ص. 257- 258.

نشاهد هذا العالَم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من التركيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك، ولا تنتهي غاياته. وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، أولاً عالم العناصر المشاهدة، كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء، ثم إلى النار، متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل بعض الأوقات، والصاعد منها أَلْطَفُ مما قبله، إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك، وهو ألطف من الكل، على طبقات اتصل بعضها ببعض، على هيئة لا يُدرك الحس منها إلاّ الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها، ثم انظر إلى عالم التكوين، كيف ابتدأ من المعادن ثم، النبات، ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدرج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة الحس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان، وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القِرَدَةِ الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الرويّة والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا.>>[30]

في هذا النص إشارة واضحة إلى فكرة اتصال جميع الموجودات بعضها ببعض، وفيه إشارة إلى أن أنواع الحيوان متصلة، وأنه في مراتب التطور، أفق الإنسان يلي أفق القردة. فالتطور عام في الوجود، وهو يشمل عالم العناصر، عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الإنسان. وهذا من دون شك يذكرنا بنظريات التطور الحديثة التي أشرت إليها سابقا.

تقوم نظرية التطورية الحديثة على أفكار رئيسية كان لها أكبر الأثر على الفلسفة وبعض المفاهيم الفلسفية، أدى ذلك إلى الصدام مع الأخلاق والدين. كما غيرت في النظرة الفلسفية، للكائن الحي وللإنسان خاصة. يمكن تلخيص هذه التأثيرات على النحو التالي:

ــ التشكيك في المكانة التي كانت للإنسان، بحيث فَقَدَ موقعه المميز بوصفه "تتويجا للخلق". ومنذ صدور كتاب **داروين** (أصل الأنواع) 1859م، أصبح التطور الإنساني جزءا من التطور الطبيعي لكل الحياة، فالإنسان ليس بدوره إلا عنصرا من تيار الحياة.

ــ لا وجود لنوع يبقى إلى الأبد دون أن يطاله التغير (فقد أظهرت العلوم الطبيعية ميلا إلى رفض الفلسفة الماهوية، أي الفلسفة التي تقبل وجود ماهيات ثابتة. فقد تم التخلي في علم

---

30 ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1982م.، ص. ص.95- 96.

الأحياء، عن تصور أنواع حيوانية أو نباتية مثالية. فالنوع يعني مجموعة من السكان الطبيعيين تتوالد وتتكاثر فيما بينها".

ــ التطور في مجال الدراسة الكيميائية والفيزيائية للكائن الحي، وهو ما يميز لعلم الوراثة، Génétique والبيولوجيا الجزيئية Biologie moléculaire، قاد إلى قبول فكرة أن التطور البيولوجي حالة خاصة للتطور الكوني. ومن هنا تصبح القطيعة بين مادة حية ومادة جامدة، قطيعة نسبية.

ــ القوانين التي تتحكم في التطور ليست قوانين موضوعة سلفا، بل أن للسيرورات التطورية قوانين تتطور معها. وبالتالي يرفض علم الأحياء فكرة "التحديد الكلي". ففي التطور لا شيء يخطط سلفا وبدقة. لا تبعا لترابط سببي ولا لغائية كاملة.[31]

إن التطور الحاصل في مجال علوم الحياة، امتد تأثيره إلى الأنتربولوجيا. فمقارنة الإنسان مع الحيوان أظهرت بعض الخصائص البيولوجية عند الإنسان، غير متوفرة لدى الحيوان. هي القواعد الإحيائية الأساسية الثلاثة تنسب لــ **هايكل** E. Haeckel (1834-1919م).[32] ينطلق فيها من مبدأ أساسي هو أن تطور الفرد Ontogenèse هو خلاصة قصيرة وسريعة لتطور النوع Phylogénie. ويكون بذلك قد أكد نظرية داروين. وتتمثل القواعد الإحيائية الأساسية فيما يلي:

ــ تطور جيني مختصر: لا يولد الكائن الإنساني مكتملا بل يخضع لنوع من القولبة قد لا تكون طبيعية بل ثقافية.

ــ عدد كبير من النقائص: نقص الإنسان في سلاحه البيولوجي (أسنان، مخالب، السرعة في الحركة...الخ)، دفعه إلى اللجوء إلى مساعد ثقافي.

ــ تقليص الغرائز: خلافا للحيوان، لا يمكن تحديد الإنسان بغرائزه، فإذا كانت الغريزة قد أتاحت للحيوان الاندماج مع محيطه. فإن الإنسان مفتوح على العالم.[33]

---

31 ناهد البقصمي، الهندية الوراثية و الأخلاق، ص. ص. 63-65.

32 هايكل E. Haeckel 1834-1919م عالِم حيوان ألماني درس الطب والعلوم الطبيعية، ثم أتجه إلىدراسة علم التشريح، و علم الأجنّة، وفي سنة 1865م اهتم بتدريس نظريات داروين حول تطور الأنواع بجامعة لينا Léna ووَضَعَ كتاب في هــذا المجــال Histoire de la création des êtres organisés d'après les lois naturelles. ترجم هذا الكتاب إلى ثمانية لغات، الفكرة الأساسية فيه، هي أن تطور الفرد Ontogenèse هو خلاصة قصيرة و سريعة لتطور النوع Phylogénie . وابتداء من سنة 1896 م حوّل اهتمامه إلى الفلسفة العلمية معارضا الدين، يقول:"اين يبدأ الدين ينتهي العلم" باختصار، أراد هايكل تفسير أسرار الكون بواسطة العلم، كما اهتم بأصل الحياة بمذهب التحول أو التبدل Transformisme

33 بيتر كونزمان، أطلس الفلسفة، ترجمة، جورج كتورة، المكتبة الشرقية، لبنان، الطبعة الأولى، 2001م.، ص. ص. 189- 191 .

إن هذه الأفكار التي جاء بها هايكل يؤيدها الفيلسوف **فرانسوا داغوني** لأنها تعبّر من جهة على قدرة الإنسان على التكيف، وتخلصه من سلطتي الزمان والمكان، من جهة، وهو أمر يؤكده **داغوني** حين يتحدث عن الإنسان في كتابه Le Vivant، ومن جهة أخرى، تميز الإنسان عن الكائنات الحية الأخرى، من حيث أنه حصيلة ما وصل إليه تطور الكائن الحي. فإذن لا غرابة في أن يكون **داغوني** قد إستشهد بهذه الأفكار.[34]

لا بد من الإشارة أولا، أن كلمة "بيولوجيا" Biologie أستعملت لأول مرة في القرن التاسع عشر على يد العالم الألماني **تريفرانوس** G.R.Treviranus في كتابه: Biologie ou philosophie de la nature vivante وبالنسبة إليه البيولوجيا كلمة تدل على التأمل في مختلف الظواهر، وأشكال الحياة للشروط والقوانين التي تنظم وجودها، والأسباب التي تحدد نشاطها.[35] لكن في نفس السنة ظهر مصطلح بيولوجيا في كتاب **لامارك** L'hydrogéologi (علم الينابيع)، والذي كتب فيه أن الفيزياء الأرضية تتضمن ثلاثة أقسام أو مباحث. من علم الأرصاد الجوي (نظرية الجو). والثاني، القشرة الأرضية الخارجية(علم الينابيع)، أما القسم الثالث، فيتضمن الأجسام الحية (علم الأحياء) La biologie .

أما بالنسبة بالنسبة **لأندري لالاند** André Lalande (1867-1963م) فإن البيولوجيا مفردة أبتكرها العالم **لامارك** تدل عموما على علم الكائنات الحية، أي علم النبات وعلم الحيوان من حيث الموضوع، كما تدل على علم التشكّل Morphologie، وعلم وظائف الأعضاء Physiology من حيث الفروع.[36]يقول **لامارك** في كتابه philosophie zoologique:<< لهذه الأجسام الفريدة من نوعها، والعجيبة. أعطيها إسم "الجسم الحي". فمن خلال الظواهر التي تتجلى بها، تقدم من خلالها، مختلف الوسائل لعلم خاص لم يؤسس بعد، وليس له اسم، والذي وضعت له بعض القواعد في كتاب philosophie zoologique، والذي سوف أسميه بيولوجيا.>>[37] لقد كان **لامارك** يجهل اللفظة الجديدة التي وضعها **تريفرانوس** Treviranus، لذا يمكن اعتبار مصطلح بيولوجيا، مكتشف من طرف عالم الحيوان الفرنسي **لامارك**. وعالم الطبيعة الألماني **تريفرانوس**. لكن يرجع الفضل في نشر الكلمة والتعريف بها، إلى العالم الإنكليزي **توماس هكسلي**Thomas henry Huxley (1825- 1895م) كان صديق **دارون**، ولم يكف عن الدفاع عن الأفكار التي جاء بها هذا الأخير في كتابه "أصل الأنواع" والمتمثلة في أن

---

34 François Dagognet, Le Vivant, Edition Bordas, Paris, 1988, pp. 67-69.

35 Tétry Andrée, Biologie, encyclopédie universalis, v6.0.72,France S.A 27/06/2002.

36 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج. 1، تعريب، أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2001م.، ص. 136.

37 Tétry Andrée, Biologie, encyclopédie universalis.

الإنسان هو حيوان راقٍ. ويعتبر **هكسلي** واضع مصطلح اللاغنوصي أو اللاأدري واللاأدرية مذهب قائم على إنكار العقل وقدرته على المعرفة بالتالي دفع عجلتها حتى أصبحت علما. [38]

من خلال ما تقدم يمكن أن نستنتج أن مجال البيولوجيا مجال واسع، بحكم كثرة موضوعاتها، بحيث أنها تتضمن كل العلوم التي تهتم بدراسة الكائن الحي بما في ذلك الإنسان طبعا. من علم الحيوان والنبات، وعلم البيئة، وعلم الإحاثة Paléontologie (علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية)، والفيزيولوجيا، وعلم الأجنة، وعلم الوراثة، وغيرها.[39]ولعل من المفاهيم التي تعبر أكثر عن مفهوم البيولوجيا، نجد مصطلح البيولوجيا العامة Biologie Générale والتي تُعنى بدراسة ظواهر الحياة المشتركة بين النبات والحيوان. إنها باختصار تدرس المادة الحية، أصلها، تركيبها، خصائصها. وتؤكد على الظواهر الأساسية التي تتحكم في الحياة. ومن فروعها، الهامة البيولوجيا الخلوية Cellulaire Biologie وعلم الأجنة، والتكاثر، والوراثة، والتطور. فبِقدر ما كانت البحوث البيولوجية أوسع، بقدر ما كانت نتائجها أكثر، ففيم تتمثل هذه النتائج وما هي طريقة تعاملها مع الحياة وآثار ذلك على الكائن الحي والإنسان على وجه الخصوص، وما هي قيمتها الأخلاقية؟

ج) التقنيات البيولوجية والطبية:

يبدو مما سبق أن التطور في مجال العلوم بصفة عامة، وفي مجال البيولوجيا والطب على الصوص، كان سريعا جدا، وهذا يطرح تسائل حول الأسباب التي جعلت منه كذلك؟ ففي نظر الفيلسوف **جاك لاكان** Jacques Lacan (1901- 1981م)، يرجع هذا التطور العلمي السريع إلى تأثير ميول وأهواء الإنسان التي تعرضت إلى الكبت والمعارضة والتنويم من طرف الأخلاقيين، وروضت من طرف المعلمين، وخُونَت (الخيانة) من طرف الأكاديميين، لم تجد بعد كل هذا إلا ملجأ واحدا وهو الهوى والفضول العلمي، محبة العلم والمعرفة La passion du savoir .[40]

هذا ليس السبب الوحيد الذي أدى إلى هذا التطور السريع للعلوم وتقنياتها، ذلك أن من بين الأسباب الأخرى، السباق نحو التقدم، مع توفر الشروط كالمال مثلا، فبعد الحرب العالمية الثانية

---

38 Tétry Andrée, Biologie, encyclopédie universalis.

39 Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse (G.D.E.L), volume, 2, Librairie Larousse, France, 1982, p. 1256.

40 Lucien Sève, Pour une critique de la raison Bioéthique, in, Les questions d'argent, édition Odile Jacob, Paris, 1994, p. 324.

دخلت الدول حربا عالمية أخرى هي الحرب الإقتصادية، وكان لا بد من توظيف رؤوس الأموال، في الصناعة الحربية والمدنية، لا يتأتى هذا إلا بتوظيف ملكة العلم والمعرفة، يتضح هذا أكثر في مجال الصناعة الصيدلانية مثلاً أين كان الاستثمار أكثر.[41]

لقد أدى اكتشاف بنية A.D.N (*) في القرن العشرين إلى إحداث تحول في تاريخ البيولوجيا، فهو مولد لصناعة جديدة وهي البيولوجيا الجزيئية[42] Biologie moléculaire (نشاط علمي يهدف إلى التفسير العقلاني لخصائص الكائنات الحية، من خلال البنية والمميزات الخاصة للجزيئات البيولوجية) كما شاهد هذا القرن تطور كبير في مجال علم الوراثة وفي بداية القرن الواحد والعشرين ظهرت الشركات التي لها علاقة بالبيولوجيا والبيوتكنولوجيا Biotechnologie.(*) مثل شركة (البيوجين Biogène. التي تأسست في جنيف) (جينتك. Genetech تكنولوجيا الجينات) بعد إثنى عشرة سنة من البحث والتجريب ولدت أول طفلة أنابيب Bébé éprouvette في 1978/07/25م في إنجلترا، مباشرة بعدها ولد ستة أطفال أنابيب بين سنة (1979-1981م)، وأول طفلة أنابيب بفرنسا أسمها **أمندين**.[43]

لا شك أن الثورة البيولوجية مكنت الإنسان من التحكم في كثير من الأمور المتعلقة ببنيته العضوية، بتوظيف الكثير من التقنيات التي عملت العلوم الأخرى كالفيزياء والكيمياء خاصة، على تطويرها. وإن كانت هذه التقنيات لم تسلم من ردود الفعل المعارضة لها، بعد التطور الذي أحرزته، والذي اعتبرته بعض الجهات بمثابة التجاوز الخطير لتصورات الإنسان المتمثلة في الحفاظ على حياته، الذي يعتبر أول حق من حقوقه تقرره التشريعات الكونية. ولم يمنع هذا من وجود مؤيدين لهذا التطور الذي رأوا فيه تعبيرعن قدرة الإنسان على التحكم في

---

41 Ibid, p. 325

(*) الحوامض النووية هي الرسل النهائية لبرنامج صنع كائن بشري و أهمها حمض التحويل النووي المدعو بإختصارا أ.د.ن Acide desoxyribonucléique D N A هذه الجزيئة الضخمة من المواد العضـــويةلها شكل سلّم يضم عارضتين وعدة درجات تربط بينهما، وهذا السلم يلتف على نفسه في شكل حلزون.

- بإشراف سمير عازار، الموسوعة العلمية الشاملة، نوبيلس Nobilis ، المجلد، 7، المركزسنتر نوبيلس، 2003، 2004م.، ص. ص. 32- 34.

42 Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse (G.D.E.L), p. 1256.

(*) بيوتكنولوجيا Biotechnologie مجموعة التقنيات التي توظف الخصائص الحيوية الكيميائيـــة ذات الجوهر البيولوجي، سواء في حالته الطبيعية أو المصطنعة، و الغرض منها تحسين، الإنتاج الزراعي، أو الصناعي، ذات التركيبة الكيميائية على مختلف أشكاله، مثل: الوقود، الدواء و غيره. أو هي القدرة على تحويل مادة عضوية إلى مواد أخرى.

43 Tetry Andrée .Biologie . encyclopédie universalis .

كل شيء بما في ذلك أعقد شيء في الوجود وهو الحياة. ربما هذا يدفعنا إلى التساؤل عن طريقة تعامل الإنسان مع المادة الحية وكذا الوسائل التي مكنته من التحكم فيها.
من المفاهيم الجديدة التي أصبحت تعبرعن هذا التطور في مجال العلوم بشكل عام وفي العلوم الطبية والبيولوجية بوجه خاص، **التقنية**. Technique.

ا) مفهوم التقنية:

هي في اللغة الفرنسية Technique. و Techné في اللغة اليونانية، نقول أتقن عمله أحكمه، ويطلق التقني من جهة ما هو صفة على كل كيفية فنية، أو علمية، أو صناعية تُمكن من إتقان العمل وإحكامه. ومن هذا يكون التقني مرادف للعملي، وهو صفة للمهارة الحاصلة بمزاولة العمل. وبهذا المعنى يختلف عن العلمي، لأن العلمي صفة للبحث النظري المجرد، على حين أن التقني صفة للعمل الذي تطبق فيه طرق معينة لبلوغ نتائج معينة. ومع ذلك فإن بين التقني والعلمي علاقة وثيقة، لأن الطرق التقنية، تهيئ أسباب تكوُن العلم. والعلم من جهته، وإن كانت غايته طلب الحقيقة لذاتها، إلا أنه يؤدي إلى الكشف عن طرق فنية جديدة. وتطبيقات عملية جديدة.

والتقنيات بالجمع Techniques اسم للطرق العملية المحددة التي يزاولها الأفراد للحصول على نتائج معينة. ومنها **التقنيات العلمية**. وهي اسم للطرق المستنبطة من المعرفة العلمية، وتسمى النتائج الحاصلة من تطبيقات هذه الطرق **بتطبيقات العلوم**. والفرق بينها وبين التقنيات التي يتوقف حصولها على المزاولة والممارسة، هو أنها مسبوقة بالوعي والعلم، ومصحوبة بالتنظيم والتحليل، على حين أن الثانية خالية من ذلك.[44]

ب) مظاهرالتقنية الطبية:

من التقنيات العلمية، التقنيات البيولوجية Biotechniques أو Biotechnologie التي تستعمل في العادة للدلالة على مجموع التقنيات التي تهدف إلى استغلال الجراثيم، والخلايا الحيوانية والنباتية، ومكوناتها مثل الأنزيمات، لأجل إنتاج نافع يخدم الإنسان. وبمعنى أدق تعني التقنيات البيولوجية، القدرة على تحويل مادة عضوية إلى مواد أخرى.

لم تكن هذه الكيفية ممكنة إلا ابتداء من الأعمال التي قام بها العالم، **لوي باستور** Louis Pasteur (1822-1895م)الذي أسس علم الأحياء المجهرية Microbiologie، والتي استعملت استعمالا عقلانيا في مجال الصناعة. ولكن ابتداء من منتصف القرن العشرين، ساعدت البحوث

---

44 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 1، ص. ص. 329- 330.

في هذا المجال على تعميق المعرفة بعملية الإستقلاب أو الأيْضْ(*) Métabolisme على مستوى الخلايا الحية. والتي مكنت من التحكم في عملها.[45] ومنها التحم في كثير من الوظائف مثل:

1ـ **التحكم في الولادة**: من خلال علم الأجنة Embryologie. الذي يعتبر من أهم العلوم التي أثارت مشكلات أخلاقية ذلك أن هذا العلم يهتم بدراسة تركيب و تطور الكائنات الحية - خاصة منها الإنسان والحيوان – منذ عملية التلقيح حتى لحظة الولادة، وأهم تخصص في هذه الدراسة، هو التشخيص القبولادي (قبل الولادة) Diagnostique prénatal. تُمَكِنُ هذه العملية من التعرف على حالة الجنين قبل الولادة. كما تشمل هذه العملية الطريقة التي يتم بها تلقيح وعلاج الجنين وهو في الرحم.

ومما قدمه هذا العلم للإنسانية من خدمات جليلة، إيجاد حل لمشكلة العقم إلى حدٍ ما بتوظيف بعض الطرق، وهي محل التساؤل منها الإخصاب الصناعي Procréation Artificielle، يتم بطريقتين إما عن طريق تلقيح صناعي Insémination ، دون أن يكون هناك اتصال الذكر بالأنثى، ونشير أن أول عملية تمت بهذه الطريقة عام 1884م. ويتم الإخصاب بطريقتين. إما تلقيح الأنثى بواسطة وسائل طبية، بسائل منوي، تم جمعه إما من الزوج (عملية الإخصاب الصناعي عن طريق الزوج). أو من متطوع (إخصاب صناعي عن طريق متطوع). وإذا كانت الأم غير قادرة على الحمل يستعان بامرأة، تحمل بدلا عنها تسمى، الأم البديلة Surrogate mother (mère porteuse). وكلا الطريقتين تثيران مشكلات أخلاقية ودينية واجتماعية.

لقد تم في هذا الصدد إنشاء بنك للحيوانات المنوية في السبعينات، ومحاولة الاحتفاظ بالسائل المنوي لمجموعة من الشخصيات المهمة كالعباقرة أو بعض السياسيين. ربما كان الغرض من هذا مثلما يعتقد البعض، محاولة تحسين نوعية الجنس البشري Eugénisme.

أما الإخصاب الصناعي خارج الرحم: Fertilisation ou Fécondation in-vitro أو ما يسمى بأطفال الأنابيب، ظهرت أول نتائج هذه الطريقة في إنجلترا سنة 1978م.

2 ـ **التحكم في الوراثة**: من خلال علم الوراثة. الذي يتفرع إلى عدة علوم منها:

(*)من أصل كلمة Métabole التي تعني التغير، أما في مجال البيولوجيا و الطب فهي تدل علـــى مجموعـــة النحولات التي تحدث داخل العضوية الحية، نتيجة المواد التي تمتصها. و يتميز الأيض بعمليتين أساسيتين هما: التركيب أو البناء Anabolisme (عملية تحويل المواد العضوية إلى أنسجة حية). أو الهدم Catabolisme (عملية أكسدة أو هدم المواد العضوية و يحويلها إلى طاقة).

45 Siclet Gérard, Biotechnologies, encyclopédie universalis.

ا) البيولوجيا الخلوية Biologie Céllulaire يهتم هذا العلم بدراسات العلاقات داخل الخلايا، والعلاقات بين الخلايا بعضها ببعض، تواصل الخلايا ببعضها.

ب) البيولوجيا الجزيئية Biologie Moléculaire وقد اشتركت مجموعة من العلوم في تكوينها، منها: الكيمياء الحيوية Biochimie وهو علم يهتم بدراسة التفاعلات الكيميائية للخلية ونظام العضوية، وكذا المظاهر الجزئية للحياة الخلوية.[46] ويبني هذا العلم اعتقاده على أن التحليل الكيميائي لأي كائن حي يدل على أنه يتألف من مركبات وجزيئات تضم العناصر الكيميائية نفسها التي تدخل في تركيب القشرة الأرضية والغلاف الجوي، ويعتبر هذا الأمر طبيعيا ومنطقيا ما دامت الكائنات الحية تولد و تنمو وتعيش في هذا الوسط.[47] وتعتبر الكيمياء الحيوية من العلوم الجديد، تطور ابتداء من القرن العشرين، وكان نتيجة لعلمين قديمين نوعا ما هما: الكيمياء العضوية Chimie Organique وهي فرع من الفيزيولوجيا تهتم بوصف تركيب الكائنات الحية، والعمليات الكيميائية التي تتخللها. الأعمال الأولى في هذا المجال أي البحث في مكونات النسيج الحيواني أو النباتي، للعالِم السويدي **شيل** Scheele (1742-1786م). [48]

أما العلم الثاني فيتعلق الأمر بالفيزيولوجيا Physiologie ، يعد هذا العلم فرعا من فروع علم الحياة (البيولوجيا) ويمكن أن يعرف بأنه المجال الذي يبحث في تحليل وفهم الأحداث والأنشطة التي تحدث بالأنظمة الحية. والهدف الرئيسي للفيزيولوجيا، هو فهم آليات أوجه النشاط على أسس فيزيائية وكيميائية مختلفة بدءا من المجتمعات الحيوانية والتجمعات الحية الأولية وصولا إلى الحيوان الراقي، وذلك من خلال دراسة العضو والنسيج والخلية والمحتويات الخلوية وحتى المستويات الجزيئية والذرية. وبالتلي يهدف هذا العلم إلى فهمٍ عميق ومعرفة جيدة للوظائف قصد التأثير فيها حسب الدراسة.[49] كالتنفس (المشكلات الكيميائية في عملية التنفس تناولها لأول مرة سنة 1780م العالم الكيميائي الفرنسي **لافوازييه** Lavoisier (1743-1794م). إلى جانب التنفس، نجد كذلك عملية الهضم، وكذا النظام الهرموني. تختلف الكيمياء الحيوية). عن الكيمياء العضوية، في الطبيعة الخاصة لبعض التفاعلات الكيميائية على مستوى الخلية وتختلف عن الفيزيولوجيا بمنهجيتها. [50]

---

46 Jacques Kruh, Biochimie (études médicales et biologiques), Hermann collection, Paris, 1982, p. 3.

47 أحمد مالو، و آخرون، الكيمياء الحيوية البنيوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.، ص. 1.

48 Jacques Kruh, Biochimie (études médicales et biologiques), p. 3.

49 صبحي عمران شلش، وظائف أعضاء الحيوان، ج، 1، دار البعث للطباعة و النشر، الجزائر، الطبعة الأولى، 1984م.، ص.12.

50 Jacques Kruh, Biochimie, p. 3.

3- **<u>الهندسة الوراثية</u>** Génie Génétique: يرتبط ظهورها بالتجارب الكثيرة التي أجريت في مجال البيولوجيا. وتتمثل في: التحكم في الجينات Manipulation Génétique . والاستنساخ الحيوي Clonage وإعادة تركيب الــ(د. ن.أ) Reconstitution de L'ADN الحمض الريبي النووي المنقوص الأكسجين، والذي يتكون من سلسلتين،

إن كثيرا من التقنيات العلمية المختلفة، التي توظفها البيولوجيا والطب، يثير مشكلات وتساؤلات أخلاقية ودينية واجتماعية وقانونية وحتى سياسية. نتيجة لما تفرزه من نتائج لم يستطع البعض الحكم عليها لتعقيدها وهو ما يصف **برتراند رسل** بقوله:<< إن النمو الهائل في القدرة التكنولوجية جعل الحياة عملية أعقد بكثير مما أعتدنا أن نراها عليه من قبل، وليس من مهمتنا هنا أن نقرر إن كان هذا خيرا أو شرا.>>[51]

صحيح أن كثيرا مما كان يعجز الإنسان عن حله من مشكلات صحية أصبح اليوم ممكن الحل، لكن حيرة الإنسان تزيد كلما زاد العلم تقدما، ولعل هذا راجع إلى التساؤلات التي تشغل باله، وكذا الحلول المقترحة في هذا الشأن، غيّر كل هذا من نظرته لنفسه وللحياة وللآخرين. إن المعرفة البيولوجية تؤدي باستمرار إلى تغيير إدراك الإنسان لذاته.[52]

يقول D.G lygre في كتابه التحكم في الحياة Life Manipulation وهو قول مأخوذ من كتاب الهندسة الوراثية والأخلاق **للبقصمي** (قد سبق ذكره في الهامش):<< يوجد في الحياة من الأسرار والعجائب ما يثير رهبتنا ويشعرنا بالتواضع. ويبدو من المستحيل أن نفهم كل هذه الأسرار، ومع ذلك كلما توصلنا إلى معرفة آلية من آليات الحياة، اختفت بعض أسرارها، فقد كشفنا أن المادة الحية تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة الجامدة، وفي اللحظة التي سيطرنا فيها على عالمنا الفيزيائي وتم إخضاعه للحتمية، تعلمنا كيف نتحكم في عالمنا البيولوجي، فمثلا صنعنا أطفال الأنابيب، وغيرنا في تركيبنا الوراثي، وإخترعنا أعضاء صناعية لأجسادنا، وحولنا عقولنا، وأطلنا أعمارنا، وربما نكتشف أننا نستطيع تخليق الحياة نفسها. لن تغير الثورة البيولوجية ذواتنا الفيزيولوجية فحسب بل تستطيع تغيير طريقة تفكيرنا في أنفسنا وفي الآخرين.>>[53]هذا القول هو دلالة واضحة عن المخاوف المتولدة مما قد تفرزه الثورة

---

51 برتراند رسل، حكمة الغرب، ج. **2**، ترجمة، فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، العدد، 72، ديسمبر 1983م.، ص. 192.

52 سعيد محمد الحفار، البيولوجيا و مصير الإنسان، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، العدد، 83، نوفمبر 1984م.، ص. 7.

53 ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية و الأخلاق، ص.61.

(*) Déontologie أو أخلاقيات الطب، و هي الآداب العامة التي ينبغي على الطبيب التحلي بها في تعامله مع المريض أو زملائه.

البيولوجية من أخطار على الكائن الحي وعلى الأخص الإنسان. ولا شك أن الدافع إلى هذا هو شعور الإنسان من جهة، بكفاءاته وقدراته المتمثلة في التجارب التي يجريها باستمرار على الإنسان وعلى الكائنات الحية الأخرى، والتي من خلالها تمكن من التحكم إلى حد بعيد في الحياة بتوظيف تقنيات علمية بيولوجية. ومن جهة أخرى، عدم معرفته بما قد ينجم عن هذا من نتائج سلبية عليه أو على مجتمعه.

إن التجارب الكثيرة في المجال البيولوجي والطبي، تبث الرعب لدى الإنسان مما دفعه إلى التساؤل عن مدى خطورتها، وبالتالي التساؤل عن مصيره وعن القيمة الأخلاقية لهذه التجارب. وهو من دون شك مهمة من المهام التي تضطلع بها الفلسفة اليوم، في إطار ما يسمى بالبيوإطيقا **La bioéthique** .

2 ــ من أخلاقيات الطب La déontologie إلى البيوإطيقا La Bioéthique

منذ فجر الإنسانية لم تكن الممارسات الطبية تخلو من آداب التعامل مع المريض، وهذا يجعل من الطب يتصف بأخلاقيات تُلزم من كانت له القدرة على شفاء الناس، وقد ظلت هذه الأخلاقيات ملازمة للممارسة الطبية إلى اليوم. ولكن تطور الطب وأساليب العلاج، وتغيرعلاقة الطبيب بالمريض، يكون قد غيّر من مضامين هذه الآداب، بحيث لم تبقى خاضعة لتلك العفوية، بل أصبحت تتجلى في شكل قواعد وقوانين على الطبيب احترامها طوعا أو كرها. ومن جهة أخرى تطور المجتمع وظهور طرق جديدة للتعامل مع المرض باستعمال التقنية، ولد ردود فعل مُنَظمة تحت مفاهيم جديدة مثل مفهوم البيوإطيقا، وحتى نميز بين ما يشير إليه هذا المصطلح الأخير وما تنص عليه آداب التعامل مع المريض، أو ما يسمى بأخلاقيات الطب Déontologie (*) يتعين علينا الحديث عن المفهومين من الوجهة التاريخية.

ا) ــ الأخلاق الطبية في الحضارات القديمة(اليونانية والإسلامية):

يعتبر الطب La médecine أقدم نشاط إنساني، لأنه يرتبط بأقدم ظاهرة يتعرض لها الإنسان وهي المرض La maladie ، وهذا الأخير يستدعي العلاج، الذي لم يكن في نظر القدامى إلا مظهرا من مظاهر العقيدة الدينية، وفي الوقت نفسه كان ممزوجا بالسحر والشعوذة. ولذا كان الطب ميزة من كانت له القدرة الخارقة على الدخول في علاقة مع القوى الماورائية. وقد بقيت هذه المظاهر إلى اليوم في بعض التجمعات البشرية البدائية. وفي بعض الأماكن المتخلفة أو المنعزلة. لكن، بوادر التفكير العلمي والطبي المنظم كان مع الحضارات القديمة

أهمها اليونانية، والإسلامية. أين كان الطب فيها من أهم الصناعات. وبما أنه ليس من السهل الإحاطة بجميع جوانب موضوع الطب تاريخيا فقد ارتأيت التركيز على ما جاء في الطب في الحضارة اليونانية والإسلامية، مع الإشارة إلى بعض النماذج من القيّم الطبية التي اتصفت بها أعمال الأطباء في العصور الأولى.

وكون موضوع الطب هو المرض أو الصحة عموما، والمرض خطر على الحياة والإنسان. أدى هذا إلى إعطائه العناية التامة في مجال التفكير الفلسفي، خاصة منه **الأخلاقي**. سواء من خلال التعامل مع المرض أو التعامل مع المريض كإنسان، ذلك أن الإنسان والحياة والموت، من الموضوعات التي اشتغل بها الفلاسفة منذ نشأة التفكير الفلسفي إلى اليوم. وهذا يبرز من دون شك ذلك الارتباط الوثيق بين الطب والفلسفة وارتباطهما بالأخلاق. خاصة إذا علمنا أن الأخلاق هي القسم الأساسي في الفلسفة، وهي مرادفة لها ببعض المعاني.[54] إن ما يبرر هذا الارتباط هو تصنيف الفلاسفة للعلوم، بما في ذلك الطب. فلو تأملنا تصنيف المعلم الأول **أرسطو** Aristote للعلوم ابتداء من تعريفه للفلسفة التي تعني بالنسبة له البحث عن مبادئ الأشياء وعللها الأولى، لاكتشفنا مكانة الطب بين العلوم عنده. يقول في تعريفه للفلسفة، أي للفلسفة الأولى الميتافيزيقية:<< إنها العلم بالأسباب القصوى ، أو علم الموجود بما هو موجود.>>[55]ومن هنا كان للفلسفة عدة أقسام تتفق مع أقسام الوجود. نظرية وعملية، منها العلم الطبيعي الذي يبحث في الوجود من حيث هو موجود محسوس متحرك، ومنه الطب. وفي دراسات أخرى نجد العلوم عند أرسطو ـ الذي زعم أن عقولنا تطلب العلم للإطلاع أو الإبداع أو الانتفاع ـ منقسمة بحسب هذه الغايات الثلاث إلى علوم نظرية (كالرياضيات والطبيعيات) وعلوم شعرية (كالبلاغة والشعر والجدل) وعلوم عملية (كالأخلاق والاقتصاد والسياسة).

ولو اتجهنا إلى الفلاسفة المسلمين لوجدنا تقريبا الشيء نفسه. فـ **ابن سينا** (980-1038م) عندما يتحدث عن الحكمة الطبيعية أو العلم، يرى أن منها ما يقوم مقام الأصل ومنها ما يقوم مقام الفرع. ويصنف الطب ضمن الأقسام الفرعية للحكمة الطبيعية[56]. أما تصنيف **جابر بن حيان** (737-813م) (فيلسوف وعالم كيميائي مسلم). فيضع الطب ضمن العلوم" السباعية،" التي أختص فيها وبرع. والسباعية هي العلوم ذات الصبغة الطبيعية، والتي نجد فيها التصنيف العلمي، من ضمنها علم الطب.[57] وسأحاول التركيز على الحضارة اليونانية والإسلامية لأن ما

---

54 أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1988م.، ص. 9.

55 أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص. 9.

56 محمد عاطف العراقي، الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا، دار المعارف، مصر، 1971م.، ص. ص. 87- 88.

57 أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص. 127.

يميزهما، هو من جهة، طابع الممارسة الطبية التي اجتمعت فيها النظرة العلمية، التي أبطلت ما كان يعتقد من قبل في الحضارات القديمة الصينية والهندية على وجه الخصوص. ومن جهة أخرى، الاعتبارات الأخلاقية (أخلاقيات الطب)، التي زادت هذه الممارسة بعدا إنسانيا. لكن هذا لا يعني عدم وجود هذا الطابع من قبل في الحضارات ما قبل اليونان.

لقد مر الطب بمراحل كثيرة، قبل أن يصل إلى ما هو عليه اليوم. اختلفت فيها نظرة الفلسفات والفلاسفة له. في الحضارة البابلية (ألفي سنة قبل الميلاد أو أكثر بقليل) نشأت مهنة منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون، فكان المريض الذي يستدعي طبيبا لزيارته يعرف مقدما كم من المال يجب عليه أن يؤديه نظير هذا العلاج أو ذاك، ونظير هذه الجراحة أو تلك، وإذا كان هذا المريض من الطبقات الفقيرة نقص الأجر لكي يتناسب مع فقره، وإذا أخطأ الطبيب أو أساء كان عليه أن يؤدي للمريض تعويضا.[58] أعظم وثيقة تتعلق بالطب البابلي هي قانون **حمورابي**.(*) إلا أن هذا القانون لا يتحدث عن الأطباء الباطنيين، بل عن الجراحين فقط، لأن الطبيب الباطني كان شخصا مقدسا، أما الجراح فكان صاحب حرفة. ومن بعض المواد من هذا القانون: المادة (215) - إذا أجرى جراح عملية كبيرة لنبيل من النبلاء بمبضع من البرونز. وأنقذ حياة النبيل، أو إذا فتح محجر عين نبيل من النبلاء بمبضع من البرونز، وأنقذ عين النبيل، يأخذ عشرة (شيقلات) من الفضة أجرة له. وتذكر المادة (218) أنه إذا أجرى جراح عملية كبيرة على رجل شريف بمبضع من البرونز. وتسبب عن ذلك موت النبيل، أو إذا فتح محجر عين نبيل من النبلاء، وتسبب عن ذلك في تلف العين فتقطع يد الجراح. ويمتلئ الطب البابلي بالتعاويذ، لكونه ثيوقراطياThéocratique (*) فالآلهة هي خالقة الخير والشر، وما الأمراض إلا دلالة على سخطها الذي تقصر عنه الأفهام. والطبيب بهذا المعنى "كاهن"، مع أنه يبدو منفصلا عنه في عمله. والأرجح، أنهما كانا يعملان معا، الطبيب الكاهن، والكاهن الطبيب.[59]

أما في حضارة فارس فقد كان القانون ينص على أن يعالج الكهنة من غير أجر وكان يطلب إلى الطبيب الناشئ عند الفرس أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب. إذ يقضي الطبيب المقيم سنة أو سنتين في المران على أجسام المهاجرين والفقراء لذلك قضى

---

58 ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ج.2، الكتاب الأول، ص. 252.

(*) حمورابي 1686-1728ق م، الملك السادس من ملوك الدولة الأشورية، و هي بلاد قديمة نشأت في شمال ما بين النهرين.

(*) تيوقراطيّة، Théocratie يطلق على كل نظام سياسي مبني على سلطان إلهي تمثله السلطة الروحية.

- المعجم الفلسفي ، جميل صليبا، ج.1، ص.369.

59 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 1، ص. ص. 199- 200.

ربّ النور نفسه إذ قال:" يا خالق الكون يا قدوس، إذا أراد عبد من عباد الله أن يمارس فن العلاج فأي الناس يجب أن يجرب فيهم حذقه؟ أيجربه في عباد **أهورا-مزدا**، الإله الحكيم، إله الفرس أم في عبدة الشياطين؟. فأجاب **أهورا-مزدا** بقوله: << يجب أن يجرب نفسه في عبدة الشياطين لا في عباد الله.>> [60] نفهم من هذا النص أنه إذا وفق الطبيب في علاج عبدة الشيطان وأحسن معهم العمل بالرغم من كونهم كذلك أي عبدة الشيطان، فلا شك أنه يوفق وبشكل تام في علاج عباد الإله **أهورا مازدا**. فالطبيب عمله العلاج، ولابد أن يقوم بهذه المهمة على أحسن وجه بغض النظر عن من يكون المريض.

1 - <u>الممارسة الطبية والأخلاقية عند اليونانيين:</u>

لا شك أن من أهم الحضارات التي انتظم فيها التفكير بشكل واضح، الحضارة اليونانية. ذلك أن اهتمام الفلاسفة اليونانيين بالبحث في الطبيعة، وفي المبادئ التي يمكن من خلالها فهم وتفسير الظواهر الطبيعية. جعل منهم فلاسفة وعلماء في الوقت نفسه، ولعل هذا ما يبرر قول البعض منهم بأن أصل الكون هو الماء، لأن كل شيء يرتد في الأخير إلى الماء، وقول بعضهم بأن أصله هو التراب لأن كل شيء يتحول في النهاية إلى تراب، وقول لآخرين بالهواء أو النار كأصل للكون وهي كلها محاولات رد شتات الظواهر الطبيعية إلى المبدأ الواحد. وفي النهاية يبدو أن الأمر استقر على اعتبار العناصر الأربعة (الماء التراب، الهواء والنار) كلها مكونات لجميع الأجسام على الأرض بما في ذلك جسم الإنسان.[61] ولقد تبنت هذه الفكرة المدرسة الطبية التي تنسب إلى **أبقراط** وهي من أبرز المدارس الطبية التي نضج فيها الطب في العهد اليوناني، وتسمى مدرسة كوس Cos.(*)

عنيت هذه المدرسة بأمراض الطب العام أو ما يسمى اليوم (الباثولوجيا العامة) ومدرسة **كنيدوس** Cnidos عنيت بأمراض خاصة أو ما يسمى اليوم (الباثولوجيا الخاصة) وكان أصحابها أكثر اهتماما بشؤون التوليد و أمراض النساء.[62] تقع كلا المدرستين في مقاطعة واحدة تسمى كاريا Caria. من بين الفلاسفة الذين برعوا في مجال الطب والعلاج الفيسوف

---

60 ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ج. 2، ص. ص. 445 - 446.

61 محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، الطبعةالأولى، 2001م.، ص. ص. 257- 258.

(*) جزيرة كوس kos تقع جنوب شرق اليونان، في بحر إيجه، خارج ساحل تركيا وهي ثاني أكبر جزر دوديكانيزي Dodecaneseحوالي 40كم طولاً و8 كم عرضا. ويعتقد أنها كانت مسقط رأس أبقراط.

- جورج عفاكي، أبقراط بين الأسطورة والتاريخ،http://www.alepdent.net/hippocrates.htm

62 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 2، ص. 216.

والطبيب اليوناني **أبقراط** Hippocrate يمكن أن يكون قد ولد بجزيرة " **كوس** " Cos سنة 460 ق م. ولذا يعرف بـــ **أبقراط الكوسي**. توفي سنة 377 ق م بمدينة **لاريسا** Larissa .

تنسب لـــ **أبقراط** كثير من البحوث مع أن الاعتقاد السائد هو أن جل الكتابات نسبت إليه فقط لأن **كوس** كانت تمثل المدرسة المشهورة للطب. من أشهر مؤلفاته "في الهواء، والماء والمكان" وكتاب "دراسة في الوصف والتنبؤ". وهو صاحب الطب الوقائي من خلال مؤلفه في نظام التغذية، بحيث كان يعتمد في المعالجة على نظام دقيق في التغذية والحمية. وعلى مزاولة الرياضة الجسدية أكثر من اعتماده على الأدوية والعقاقير، وله مؤلف آخر" المرض المقدس "يبين فيه كم كان علم وظائف الأعضاء غير معروف من قبل هذا النتاج الكبير يطلق عليه المؤرخون اسم التراث **الأبقراطي** ومنه التراث الطبي الذي أعيد تناوله في عصر النهضة الطبية العربية الإسلامية لاسيما العباسي والفاطمي.

يقوم مذهب **أبقراط** على نظرية الفيزيس .Physis، من أهم المفاهيم في الفلسفة اليونانية، وقد ترجمه الرومان إلى Natura، ترجع أصوله إلى معنيين: الميلاد Naitre والنمو Croître وهي عند **أنبذقليس** تعني الميلاد Naissance والتوليد أو الإنشاء Génération. ينتج من هذا المفهوم اتجاهان احداهما فلسفي خالص، والآخر أخلاقي. وفي هذه الحالة تعني فيزيس الطبيعة العميقة (الداخلية) للشيء، أي ما يؤسسه ويُبقي عليه، ما يشكل جوهره. ومن جهة أخرى الفيزيس، تمثل بالنسبة لكل موجود، حدوده، ما يمكن أن يكون عليه، حدود لا يمكن تجاوزها دون إحداث خلل.[63]ومن كلمة فيزيس ركبت كلمة" فيزيولوجيا" والتي تعني علم الطبيعة، والمقصود طبيعة الإنسان.[64]وقد أشار إلى هذا المفهوم الفيلسوف **داغوني** في كتابه" Nature.(*) لقد اعتمد **أبقراط** في نظريته في الأخلاط والأمزجة، على نظرية يونانية طبيعية، هي نظرية العناصر الأربعة التي ترجع إلى الفيلسوف **إمبذقليس**، الذي أشرت إليه من قبل. وكان هو كذلك طبيبا ومؤسسا لمدرسة صقلية الطبية. كما نجد عند متأخري الفيثاغوريين النظرية الأمباذوقلية في العناصر الأربعة مرتبطة بالأضرار وهي: الحار والبارد، والرطب واليابس.[65]

---

63 Pierre Aubenque, Phisis, encyclopédie universalis

64 محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ص. 258.

(*) يرجع أصل الكلمة Nature في نظر داغوني إلى كلمة Natus وكلها تتجه إلى معنى الحياة،الإستعدادات القبلية للكائن عند ولادته، أي الفطري، و في اليونانية Phusis و الذي يعني التوالد أو التكاثر.

- François Dagognet, Nature, Librairie Philosophique, J.Vrin, Paris, 1990, p. 19

65 جورج سارتون، تاريخ العلم، ج. 2، ص. 213.

لقد كان **أبقراط** شديد الرصانة كثير التحفظ بالغ التواضع، وكانت وسائل العلاج لديه قليلة النفع وقد كان على علم بذلك. واستعمل منها الكثير في علاج مرضاه: من المسهلات، المقيئات، المنعشات، المحيضات، والحقن الشرجية والجلدية، والقصد، المسكنات، والحمامات، والفرك والتدليك، ووضع حساء الشعير Tisane وأنواع كثيرة من النقيع.[66] إن استعمال عبارات مثل: (قوة الطبيعة الشفائية) -دليل على اهتمام **أبقراط** بالطب الوقائي أكثر من وصف العقاقير، وهو أسلوب التعامل مع المرض في طب اليوم- فكرة قوة الطبيعة الشفائية تعبر من جهة أخرى عن فكرة أساسية في التعليم **الأبقراطي**، وهي في التعبير الطبيعي الحديث:" أن العافية حالة من التوازن المستقر، والعلة تصدع في ذلك التوازن، وحيث لا يكون التصدع بالغ العمق، لا يلبث التوازن أن يستعيد مكانته من تلقاء نفسه. فينبغي، أن يوفر للمريض من الراحة الجسدية وهدوء النفس ما يتسنى معه للطبيعة تحقيق قوتها الشافية... فواجب الطبيب أن يرعى المريض ويعين الطبيعة في عملها."[67]

كما عمل على نفي الاعتقاد السائد من أن الأمراض ترسلها الآلهة، خاصة ما كان يسمى بالمرض المقدس، ويقصد به الصرع. و يرى بأن جميع الأمراض طبيعية، وفي هذا يقول: << ها أنذا أبدأ ببحث المرض المعروف "بالمقدس". وليس هو، في رأيي، أرقى في الألوهية أو القداسة من سواه من الأمراض، بل له سبب طبيعي. >> [68] بآراء كهذه يكون **أبقراط** صاحب الفضل في تحرير الطب من الشعوذات الدينية والآراء الأسطورية. وبهذا يكون للإغريق في فترتهم الأولى، الفضل في تخليص معارف الشرق من جوانبها السحرية، وصلاتها بالعمل المباشر. فانفصلت المعرفة لأول مرة عن التجربة اليومية، التي يراد بها النفع العاجل. فإذا كان تراث الشرق في نظرهم ضرب من التجربة، فإن علومهم وفلسفتهم هي المعرفة. ومن هنا أضحت التفرقة واضحة بين صاحب النظر وصاحب العمل. [69]

أما الطب فقد جمع بين نتائج المشاهدة الطويلة وبين العمليات التي تمت على أيد ماهرة. ويمكن القول بأنه نشأ علم تجريبي حقيقي، تميز بالملاحظة المنتظمة والتجارب الدقيقة، ورفض السحر على نحو ما بدا في كتابات **أبقراط**.[70] فالطبيب البارع عندهم هو الذي يستطيع أن يُكوِن فكرة عامة عن المرض في عهده الباكر. ويتمكن من أن يستشف الأخطار (الأيام الحرجة)

---

66 المرجع نفسه، ص. 228.

67 المرجع نفسه، ص.229.

68 جورج سارتون، تاريخ العم، ج. 2، ص. 258.

69 صلاح قنصوة، فلسفة العلم، ص. 106.

70 المرجع نفسه، ص. 111.

فيعمل على تقوية إرادة المريض كي يصمد لها.[71] إن المعرفة العلمية للطب عند اليونان ، لم تمنعهم من وضع قواعد أخلاقية تعمل على توجيه، ومراقبة الطبيب، سواء في عمله أو في علاقته مع المريض. وهو مضمون كتب واجبات الأطباء. ومنها كتب الواجبات المهنية. ككتاب القسم، كتاب القانون، كتاب اللياقة، كتاب النصائح، والفصل الأول من كتاب الطبيب.

وأحسن مثال يمكن أن أقدمه في هذا الشأن، ما يعرف بقسم **أبقراط**، وهو أقدم النصوص، وأهمها، الخاصة بواجبات الأطباء، وهو بمثابة ميثاق Syngraphe أو يمين كان الطلاب المتدربون يحلفونها قبل أن يقبلوا كأعضاء في النقابة أو جمعية الأطباء الكوسيين، وفيها يتعهد المتدرب أن يعامل أبناء الأستاذ، كما لو كانوا إخوته، وأن يشرك أستاذه في الرزق، ويساعده إذا دعت الحاجة إلى ذلك وأن يعلم أولاده دون مقابل أو قيد، كما يعلم أولاده هو وقليلا من الطلاب الذين أقسموا. وهذا دليل على احتكار هذه المهنة. [72]

إلى جانب القَسم، يقدم **أبقراط** مجموعة كبيرة من النصائح للطبيب، نجدها ضمن مؤلفات الحِكَمْ في قوله:<< ألح عليك أن تكون بالغ الجفاء، بل خذ بعين الاعتبار –جديا- موارد مريضك القليلة أو الكثيرة. أمنح خدمتك بغير مقابل أحيانا، ذاكرا إحسانا سابقا أو رضا تناله في الحال. وإذا عرضت عليك فرصة لخدمة غريب معسر فأبذل معونتك لكل من هذه الحالة. وحيث يكون الحب الإنساني يتجلى أيضا حب الفن نفسه. ذلك لأن بعض المرضى، وإن كانوا على علم بخطورة حالتهم، يستعيدون العافية بمجرد شعورهم بعطف الطبيب. من الخير أن نراعي المرضى لكي يظفروا بالشفاء، وأن نعتني بالأصحاء لتدوم العافية. وينبغي أن يعتني المرء بأمر نفسه، فيلزم ما هو لائق به.>>[73]

أما في مرحلة القمة (*) من العهد الإغريقي الجديد، في عهد **أرسطو** فقد كانت فترة إحياء للعلم. كان هذا الأخير ابن **نيقوماخوس** كبير أطباء ملك مقدونيا **آمِنْتَاس** والد **الإسكندر**، أين كان

---

71 جورج سارتون، تاريخ العم، ج. 2، ص. 224.

72 المرجع نفسه، ص. 295.

73 جورج سارتون، تاريخ العم، ج. 2، ص. 231.

(*) ذلك أن الفلسفة في الحضارة اليونانية مرت بثلاثة مراحل: مرحلة النشوء، ممثلة في بداية تَكَوُنْ الفكر الفلسفي و يشمل الفلاسفة الطبيعيون، ثم مرحلة القمة، و تشمل فلسفة أفلاطون و أرسطو، و اخيرا مرحلة الإنحدار، أو ما يسمى بمرحلة الضعف و التكرار، و الممثلة في فلسفة المدارس اليونانية المتأخرة كالرواقية و الكلبية...الخ.

- كتاب جماعي، تحت إشراف، باغورة الزواوي، أرسطو في الفلسفة العربية –الإسلامية، ج. 1، فلاسفة المشرق، مطبوعات جامعة منتوري، 2001م.، ص. 142.

(*) اللوقيون Lyceum مؤسسة تعليمية ومنها كلمة Lycée، مثل الأكاديمية التي أنشأها أفلاطون و هي واحدة من أهم المدارس الفلسفية الأربع لدى الإغريق، إلى جانب رواق الرواقيين ، و حدائق أبيقور.

الطب آنذاك هو المهنة اليدوية الوحيدة المحترمة، وربما هذا أحد العوامل التي مكنته من السير على منهج علمي سليم في مدرسة الأبوقراطيين. وبعد دراسته للفلسفة الأفلاطونية طيلة ثلاثين عاما، أنشأ **أرسطو** اللوقيون(*) Lyceum وكرس جزءا هاما من حياته للبحوث البيولوجية فوصف خمسمائة نوعا من الحيوان.[74] لقد قسم أرسطو الفلسفة إلى نظرية، وعملية. فالنظرية تشمل العلم الطبيعي والعلم الرياضي والعلم الإلهي. أما العملية فتشمل الأخلاق وتدبير المنزل وتدبير الدولة. وعليه، تندرج العلوم الطبيعية منذ عهد **أرسطو** ضمن الفلسفة، وقد ظلت كذلك إلى بدء انفصال العلوم عنها. إن العلم الطبيعي في نظر **أرسطو** هو العلم الذي يتعلق بالمادة أو الأجسام الحية، لأن الجسم الحي موجود، متحرك، بالنمو والنقصان.

ومن ذلك أعتبر الطب الذي يبحث في صحة الجسم الإنساني ومرضه فرعا من أهم فروع العلم الطبيعي، وهذا الأخير فرعا من فروع الفلسفة.

أما في ميدان البيولوجيا في تلك الفترة، فقد نظم **هيروفليوس**(*) التشريح وقارن بين جسم الإنسان والحيوان. وقد كان أول من فرق بين الشرايين والأوردة. وقال بأن المخ هو مركز الجهاز العصبي ومستقر العقل.

2 - <u>الممارسة الطبية الأخلاقية عند المسلمين:</u>

عوامل كثيرة جعلت من العلم ينشأ في العالم العربي الإسلامي من شروط ثقافية مواتية وسماحة الدين الجديد، الإسلام، و بساطته واعتداله، ومرونة اللغة العربية. ببساطة لقد كان العلم القديم في حاجة إلى حاضنة ثقافية جديدة يفرخ من خلالها في ظل أوضاع جديدة.[75] وهذا عكس ما يعتقد بأن معارف المسلمين ،في مجال العلوم بشكل عام والمجال الطبي بشكل خاص، ما هي إلا مجرد ترديد للتراث الطبي الإغريقي، وما عرف لدى أساطين الطب أمثال **أبقراط، ديموقريتوس، جالينوس،** وغيرهم.

بل كانت للمسلمين معارفهم وإنجازاتهم. ثم إن من المغالطات التي ظلت لفترة طويلة، اعتبار الطب الإسلامي مجرد ممارسات شعبية تفتقد في معظم الأحيان إلى الدقة. فعلى النقيض من ذلك لم يكن الطب العربي الإسلامي عشوائيا ولا متخبطا، بل كانت له فلسفته، فلسفة تستند إلى تصور كامل لطبيعة الجسد الإنساني، ليس فقط تشريحيا بل تتعداه إلى توضيح العلاقة

---

74 صلاح قنصوة، فلسفة العلم، ص. 113.

(*) هيروفيليوس الخالكيديسي. ولد في أواخر القرن الرابع ق م . يكون أحد مؤسسي التهضة اليونانية المصرية طبيب لبطليموس الرابع فيلوباتر.

- جورج سارتون، تاريخ العم، ج. 4، ص. 239.

75 صلاح قنصوة، فلسفة العلم، ص. 117 .

الوطيدة بينه وبين عناصر الوجود من حوله.[76]وهذا لا يدفعنا إلى نكران ما لليونان من تأثير على المسلمين وعلى حضارتهم فالفلسفة الإسلامية فلسفة متأثرة بالفلسفة اليونانية حتى أصبحت مشابهة لها، في أصولها ومبادئها، لكن متباينة معها في المقاصد والغايات.[77]

وعليه فإن حركة النقل في تاريخ الثقافة الإسلامية، لا تقل أهمية عن حركة الابتكار نفسها. وقد أثبت العرب والمسلمون من خلال أعمالهم، أنهم لم يكتفوا باقتباس التراث العلمي للحضارتين القديمتين الفارسية واليونانية فحسب، بل حولوه إلى حاجاتهم وطرق تفكيرهم الخاصة. ثم أضافوا إليه ما استطاعوا أن يستنبطوه. وتتجلى مآثرهم، في الطب والفلسفة، على وجه الخصوص، إلى جانب العلوم الأخرى من كيمياء وفلك، ورياضيات، وجغرافيا، وغيرها من العلوم.[78]

تُميز الطب العربي الإسلامي أربعة مبادئ (التوحيد، الإعتدال، الغائية، الإنسانية). **التوحيد**:عقيدة المسلمين تبنى على أن الله واحد، وهو الحقيقة ، وأن الوصول إليه يكون عن طريق المعرفة ووسيلتها العلم. كما تبنى على أن الهدف من كل الأعمال هو مرضاة الله تعالى والفوز بالجنة عن طريق العمل الصالح وفعل الخير. والطب من الأعمال الصالحة وأفعال الخير، لأنه يخفف من آلام البشر وأمراضهم. من جهة أخرى ، ينظر الطب للإنسان نظرة شمولية. فالقلب جزء من الجسم ومرضه يؤدي إلى مرض الجسد كله. وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيح يثبت ذلك والذي يقول فيه: << ... ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهو القلب.>>[79]فالطب لدى كثير من علماء الدين، نذكر منهم الإمام **أبو حامد الغزالي**، هو من العلوم التي هي فرض كفاية المحمودة، لأنه علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، فهو ضروري في حاجة بقاء الأبدان. فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله وأعدّ الأسباب لتعاطيه. فلا يجوز في نظر أبوحامد الغزالى التعرض للهلاك بإهماله.[80] وكون الإنسان ابن بيئته وما تحتويه هذه البيئة، وعلاقتها بالأبراج والفصول والكواكب. فقد جعل المسلمين يتقبلون النظرية البقراطية في الأخلاط والأمزجة، وعلاقتها بالعناصر المُكّونة للكون.[81] **الاعتدال**: ويقصد به التوازن بين الحياة

---

76 أشرف العناني، فلسفة الطب العربي، 2006/08/25م http://annani2006.jeeran.com.

77 جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، الشركة العالمية للكتاب، 1989م.، ص. 23.

78رحاب عكاوي، موسوعة عباقرة الإسلام،ج. 2، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعةالأولى، 1993 م.، ص. 10.

79 مسلم بن الحجّاج القشيري، الجامع الصحيح، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2004م.، ص.602.

80 أبو حامد الغزالي، احياء علوم الدين، ج. 1، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1983م.، ص. 16.

81سلمان قطاية،فلسفة الطب عند العرب واليونان2006/08/20.http://www.isesco.org.ma/pub/arabic

والصحة الجسدية والحياة الروحية، التي تؤمن للإنسان انسجاما بينه وبين بيئته، وهذا ما يؤدي إلى السعادة.يقول **ابن سينا** (980-1037م)(*):<< إن المعتدل الذي يستعمله الأطباء في مباحثهم مشتق من العدل في القسمة، وهو أن يكون قد توفر فيه على الممتزج بدنا كان بتمامه، أو عضواً من العناصر بكمياتها وكيفياتها، القسط الذي له في المزاج الإنساني إلى أعدل قسمة ونسبة>> ويقول كذلك:<< إن الله جل جلاله أعطى الإنسان أعدل مزاج ممكن أن يكون في هذا العالم.>> والاعتدال هو حال الصحة. أما المرض فهو فساد الاعتدال، واختلال التوازن، بحيث أن أحد الأخلاط الأربعة يزداد حتى يطغى على البقية فيكون المرض. وتكون المعالجة برد الاعتدال.

الغائية: وتعني أن هناك حكمة في خلق كل مخلوق. وقد كان **جالينوس** يؤمن بهذه الفكرة بالرغم من أنه كان وثنيا. ولذا أعجب به المسلمون ولقبوه بالفاضل (للتأكد). يؤمن المسلم بأن دراسة الطب تزيد إيمانا تماشيا مع قوله تعالى " ضرب لكم مثلا من أنفسكم" (سورة الروم. الآية 28). ولذا يقول **ابن رشد**:<< من اشتغل بالتشريح أزداد إيمانا.>>[82]

الإنسانية: من مظاهرها إحترام الوالدين والمسنين، اليتامى، أبناء السبيل، وعلى احترام الفقير ومساعدته، وعلى احترام الأديان السماوية والتسامح مع المؤمنين. ومن نتائج هذه الإنسانية إقامة المستشفيات الكثيرة، ودور التعليم الطبية، بناء المياتم ودور العجزة. فالطب ليس علما فقط بل هو طريقة من طرق الموصلة إلى الحقيقة الأزلية. أي إلى الله. وهو نوع من أنواع العبادة و ضربا من ضروب الجهاد. إن من دواعي اهتمام المسلمين بالطب على وجه الخصوص، حث الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك. ففي مسند الإمام **أحمد**، من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك، قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال نعم يا عباد الله، تداووْا: فإن الله لم يضع داء، إلا وضع له شفاء، غير داء

(*) هو بن علي بن الحسن ابن سينا.طبيب وفيلسوف مسلم من أصل فارسي.طبيب للخليفة شمس الدولـــة. اشتهر بقوله عند يأسه من الشفاء: لقد عجز المدبّر الذي يدبّر بدني عن التدبير، فلا تنفع المعالجة. من مؤلفاتـــه في الطب كتاب القانون.

- إبن أبي أصيبعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965م.، ص. 444.

82 إبن أبي أصيبعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،لبنان، 1965م.، ص. 532.

واحد. قالوا: ما هو؟ قال: الهرم. [83]وقوله كذلك:<< العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان.>> وعلم الأبدان هنا، هو الطب.[84]

لقد كان الأطباء المسلمون يعرفون الأخلاط، مثلما عرفوا التراث البقراطي وقد عرف **ابن سينا** الخلط، في كتابه "القانون" بأنه جسم رطب سيّال يستحيل إليه الغذاء أولاً قبل أن يتمثله البدن، وهي أربعة، بالعناصر الأربعة، فقال: "الأول خلط الصفراء، وهو حار يابس، أصله متولد من عنصر النار الطبيعي، ومسكنه في الإنسان المرارة، والثاني خلط الدم، وهو حار رطب متولد من عنصر الهواء الطبيعي، ومسكنه في الإنسان الكبد، والثالث خلط البلغم، وهو بارد رطب متولد من عنصر الماء، ومسكنه من الإنسان الرئة، والرابع خلط السوداء، وهو بارد يابس أصله متولد من عنصر الأرض، ومسكنه من الإنسان الطحال ويرتبط بالأخلاط أمزجة معينة، وكل مزاج منها له طبيعيتان: فالصفراوي كما رأينا حار جاف، والدموي حار رطب، والبلغمي بارد رطب، والسوداوي بارد جاف. وترتبط الأخلاط أيضا بالحالات النفسية للإنسان، ويقول **الأزرقي**(*)حول هذا: << فالسرور من الدم، والحرارة من الصفراء، والخوف للسوداء، والحزن للبلغم، فهذه الأخلاط الأربعة بها قوام البدن، ومنها صلاحه، ومنها فساده.

وذهب أطباء الإسلام إلى أن المرض ينشأ عن فساد الأخلاط إما بالنقص أو الزيادة، أو بفساد طبيعتها، أو عدم نضوجها. ولمّا كان كل شيء في عالم الكون والفساد يوجد من اختلاط العناصر الأربعة، فكذلك كل جسم إنساني له تكوينه المزاجي الذي يتولد عن الأخلاط الأربعة.

وليست وظيفة الطب في رأي أطباء الإسلام أكثر من تقديم العون على تحقيق ذلك المتوازن في حالة اختلاله ليعمل الجسم بصورة سليمة. ومما يستوقف النظر بعد هذا، إعلاء المسلمين من شأن علم الطب، أن انشغل به معظم الفلاسفة والعلماء المسلمين سواء من المغرب أم من المشرق. فهذا **ابن رشد** القرطبي[85] الذي أشتهر بالطب من خلال مؤلفه الكليات. وفي سنة 1182م استدعاه الخليفة أبو يعقوب إلى مراكش وجعله على رأس أطبائه، وقد وصفه **ابن الأبار** بقوله:<< كان يفزع إلى فتواه في الطب كما يفزع إلى فتواه في الفقه.>>[86]

---

83 ابن القيم الجوزية، الطب النبوي، ج. 1، دار الكتب، الجزائر، 1988م.، ص. 26.

84 رحاب عكاوي، موسوعة عباقرة الإسلام، ج. 2، ص. 12.

(*) الأزرقي، هو عبد الرحمن أبو بكر، من مؤلفاته، تسهيل المنافع في الطب و الحكمة، المشتمل على شفاء الأجسام و كتاب الرحمة

- محمد ماهر حمادة، المصادر العربية و المعرّبة، مؤسسة الرسالة، الطبعة، الخامسة، 1986م.، ص. 220.

85 هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في قرطبة سنة 1126م، و توفي في مراكش سنة 1198م.

86 جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، ص. 446.

(*) داود الأنطاكي: ولد في أنطاكيا و توفي في مكّة سنة 1599م، رحّالة ضرير شغف بقراءة كتب الطب،

ويذهب **داود الأنطاكي**(*) في مقدمة كتابه "التذكرة " إلى حد القول:<< بأنه ليس هناك علم من العلوم يستغني عن علم الطب أصلا، لأن اكتساب العلوم لا يتم إلا بسلامة البدن والحواس والعقل.>> وهذا الرأي إن دل على شيء فإنما يدل على أن أطباء الإسلام كانوا واثقين بعلمهم ثقة لا حد لها، مدركين لأهميته في حياة الإنسان.
وكان أطباء الإسلام إلى جانب ما تقدم حريصين كل الحرص على تأصيل أخلاقيات معينة استمدوها من الإسلام لعلم الطب وممارسته.

يقول **الأنطاكي** في كتاب الطب النبوي، (بهامش تسهيل المنافع لمحمد بن أحمد الذهبي توفي سنة 748ه)،عن أخلاق الطبيب وقيمه:<< فإذا لم يكن العارف به (أي بعلم الطب) أمينا متصفا بالنواميس الإلهية، حاكما على عقله، قاهرا لشهوات نفسه، أنفذ أغراض هواه، وبلغ من عدوه مناه، ومتى كان عاقلا وله ذلك على أن الانتصار للنفس من الشهوات البهيمية، والصبر والتفويض للمبدع الأول (الله) من الأخلاق الحكيمة النبوية.>>[87]يوضح هذا القول كم كان الطب من المهن النبيلة التي تتطلب الحكمة، وصناعة لا يختص بها أيا كان، بالرغم من أنها كانت من العلوم التي يشجع على تعلمها لما لها من قيمة.

ويبدو أن الدعوة إلى تعلم الطب، كان نتيجة حرص المسلمين على التعلم الصحيح لهذا العلم. وأن لا يبقى حكرا على البعض، كمهنة منها يسترزقون. يقول **الأنطاكي** في هذا الصدد:<< لقد كان الطب من علوم الملوك يتوارث فيهم، ولم يخرج عنهم خوفا على مرتبته.>> وقد عوتب **أبقراط** في بذله للأغراب، فقال:<< رأيت حاجة الناس إليه عامة والنظام متوقفا عليه، وخشيت انقراض آل **أسقليموس** ففعلت ما فعلت. ولعمري لقد وقع لنا مثل هذا، فإني حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية يمشي إلى أوضع يهودي للتطبب، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم يدرّس ليستفيد به المسلمون، فكان ذلك وبالي نكد نفسي وعدم راحتي من سفهاءٍ لازموني قليلاً ثم تعاطوا الطب فضروا الناس في أقوالهم وأبدانهم وأنكروا الانتفاع بي.>>[88] في هذا الشأن يتحدث الطبيب المسلم **ابن رضوان**(*)عن حالة صناعة

أشهر كتبه، " تذكرة أولي الألباب و الجامع للعجب العجاب "و هو مختصر جامع لفنون الطب.
- محمد ماهر حمادة، المصادر العربية و المعرّبة، ص. 220.

87 سلمان قطاية، فلسفة الطب عند العرب واليوبان. http://www.isesco.org.ma/ pub/ 20/0802006

88 رحاب عكاوي، موسوعة عباقرة الإسلام، ج. 2، ص. 103 .

(*) هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر ولد و نشأ في مصر، وبها تعلم الطب توفي سنة 453ه، قال:<< انه لمّا كان ينبغي لكل إنسان أن يَنْتَحِلَ أَلْيَقَ الصنائِع به وأوْفَقُها له، وكانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة طاعة لله عز وجل ... أخذت في تعلم صناعة الطب.>>- إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،لبنان، 1965م.، ص. 561.

الطب قبل **أبقراط** فيقول: << كانت صناعة الطب قبل **أبقراط** كنزا و ذخيرة يكنزها الآباء ويدخرونها للأبناء، وكانت في أهل بيت واجب منسوب إلى **إسقليبوس**. هذا الاسم إما أن يكون اسما لملك بعثه الله فعلّم الناس الطب، وإما أن يكون قوة الله عز وجل علمتْ الناس الطب، وكيف صرفت الحال فهو أول من علِم صناعة الطب، ونسب المتعلم الأول إليه على عادة القدماء في تسمية المعلم أبا المتعلم. وكان الطب في الملوك والزهاد فقط يقصدون به الإحسان إلى الناس من غير أجرة ولا شرط...>>[89]

إن متتبع لتاريخ المدارس الطبية الأوروبية في **مونبلييه** و**نابولي** و**بولونيا** و**باردوا** و**أكسفورد** و**كمبردج** يدرك بوضوح أنها قامت أساسا على دراسة الكتب الطبية العربية المترجمة إلى اللاتينية، وظل الأمر كذلك إلى حوالي القرن السادس عشر الميلادي. وفي هذا دليل أخر على صلة الفلسفة الإسلامية الوثيقة بالعلم تغذيه ويغذيها وكان الفلاسفة المسلمون يعتبرون العلوم العقلية جزءًا من الفلسفة، وبهذا يكونوا قد عالجوا مسائل في الطبيعة ومسائل في الميتافيزيقا، والدليل على ذلك أكبر موسوعة فلسفية عربية، كتاب "**الشفاء** " وكتاب " **القانون** " **لابن سينا** الذي ظل يُدرس في جامعتي **مونبلييه** و **لوفان** إلي القرن السابع عشر الميلادي- وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى غزارة عطاء أطباء الإسلام لأوروبا على مدى عدة قرون، ومشاركتهم في دفع عجلة التقدم للحضارة الإنسانية.[90]
ولكن الملاحظ هو أن الأخلاق الطبية على العموم كانت تستمد قواعدها من العقيدة الدينية لدى المسلمين وقد ظلت كذلك عند المسيحيين، ولكن النزعة العلمية التي ظهرت في أوروبا غيرت المفاهيم والقيم، بما في ذلك العقائدية.

ب ــ تطور مفهوم الأخلاق وظهور مصطلح البيوإطيقا:

لقد ساد الاعتقاد إلى حد بعيد، أن الفلسفة تهتم بدراسة المشكلات الميتافيزيقية، كما اعتقد في الفترة المعاصرة لدى البعض، أن مهمتها تقتصر على التحليل اللغوي.

فقد سعى التحليليون إلى حصر الأخلاق في مجال ضيق أطلقوا عليه اسم، **ما بعد الأخلاق**(*) méta-éthique. وبالتالي لم تعد الفلسفة في نظرهم ذلك الكل المنظّم لمعتقداتنا في إطار

---

89 إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965م.، ص. ص. 43 - 44.

90 إبراهيم مدكور، في الفلسفة الإسلامية، ج. 2، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الثانية، 1968م.، ص. 160.

نظريات شاملة، وإنما تركز على تحليل الألفاظ، ومعرفة مدى مطابقتها للواقع. وهذا يعني من دون شك، قصر الفلسفة على وضع نظريات أخلاقية ذات طابع تطبيقي (أخلاق عملية). ولذا، كانت هناك في التاريخ وجهتا نظر في تأسيس الأخلاق:

ـ وجهة تؤسس الأخلاق على الدين، خصوصا في الديانات السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلام).

ـ وجهة تؤسس الأخلاق على العقل البشري، ليس فقط لأجل فطرته القادرة على التمييز بين الخير والشر، بل كذلك قدرته على الارتقاء من هذا التمييز إلى التنظير العقلي.[91] وبالتالي إرجاع الأخلاق إلى مبدأ يؤسسها، مبدأ متعال مثلما نجد ذلك عند **أفلاطون**، وحتى **كانط** من خلال إجابته عن السؤال، ما الذي يجعل الأخلاق ممكنة؟ وكيف نجعل من القيم الأخلاقية قيما كلية مثل القوانين العلمية؟. إن قواعد الواجب في العقل العملي، توازي القوانين في العقل النظري. فنظرية الأوامر المطلقة كأساس للأخلاق، هي دعوة من الفيلسوف **كانط** للفصل بين العلم والأخلاق. كما أنه عمل على تخليص الأخلاق من قيود المسيحية، وجعل الأخلاق أساس الدين، بدلا من أن يكون هو أساسا لها.[92]

إلاّ أن التطور العلمي والتكنولوجي، في جميع المجالات خاصة منها البيولوجية والطبية، أثار تساؤلات فلسفية حول القيمة الأخلاقية للتقنيات الطبية، دفعهم إلى وضع قواعد أخلاقية تقترب أكثر من الواقع. تعمل على حل المشكلات التي يواجهها المجتمع. وقد أطلق على المهتمين بهذا المجال اسم "الفلاسفة الأخلاقيين" Philosophes Moralistes يترتب عن هذا، ظهور الأخلاق بمظهر جديد وبطبيعة جديدة من خلال اتصالها بالواقع جعل منها **أخلاقا عملية**.

كانت دعوة بعض الفلاسفة والعلماء إلى إخضاع العلوم ومنتجاته للقيم والمعايير الأخلاقية، مظهرا من مظاهر "عودة الأخلاق" على حد تعبير محمد عابد الجابري، فالتساؤلات ذات الطابع الأخلاقي، المتولدة عن الإحراج والتحدي الناتجين عن ذلك التطور المذهل الذي شهده العلم في الآونة الأخيرة هو دليل على ذلك. ويبدو أن ما حصل هو في الحقيقة عكس ما كان حاصلا في القرن الماضي، حين كانت بعض النزعات في أوروبا تنادي بتأسيس الأخلاق على العلم. وذلك

(*) جاء في موسوعة لالاند الفلسفية، أن ميتا أخلاقي.هي ما يتعلق بالمبادئ الأولى وبالأسس الأخلاقية، في مقابل دراسة القواعد الأخلاقية كما هي مطبقة في عمل يعّد شرعيا أو جديرا بمدح وثناء.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج. 2ص. 789.

91 محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2003م.، ص. 39.

92 المرجع نفسه، ص. 39.

من خلال إثارتها لمشكلة قديمة، وهي "مشكلة أساس الأخلاق"، ومحاولة الإجابة عن السؤال: علام تستند القيم الأخلاقية في مشروعيتها؟.

إن المقصود بالأخلاق هنا ليست تلك العادات والأعراف أو ما يصدر عن الطبيعة البشرية بل المقصود بها هنا الخير والشر، وما يتفرع عنهما من قيم تشكل الضمير الخلقي الفردي أو الجمعي.[93]ما يهمنا هنا هو أن الأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقا بالفلسفة، بل كانت في مرحلة معينة تعني إحداهما الأخرى. حتى أن الفيلسوف هو الحكيم والحكمة قيمة أخلاقية، وهي خير.

لقد اتسع مفهوم الأخلاق بحيث أصبحت لا تستند إلى دعامة صورية بل غدت إرشادا أو اختيارا معززا بالواقع وتتعلق أكثر بالعلوم .[94] لقد بدأ التساؤل فيما إذا كان العلم مؤسسة تعمل لصالح الفرد والمجتمع. أم يحمل تأثيرا سلبيا على حياة ومستقبل الإنسان ومن هذه التساؤلات، نشأ نوعان من الأخلاق: أخلاق الثقة وأخلاق الخوف. أما أخلاق الثقة، فهي ناتجة عن تطور العلم الذي يقدم للإنسان في كل مرة مختلف الوسائل التي تخفف عنه متاعب الحياة، والأكثر من هذا، الارتقاء به إلى المستوى الحضاري، وبالتالي تخليصه من الوحشية والهمجية التي كان يتصف بها.أما أخلاق الخوف، فهي ناتجة عن الآثار السلبية التي يمكن أن يحدثها التطور العلمي، والأكثر تأثيرا منها البيولوجي والطبي. إن العالم منشغل بالتقنية وبتطبيقاته، وهذا يجعل منه قليل التساؤل حول ما يمكن أن ينجم في المستقبل عن القرارات التي يتخذها. إنه متقوقع في مجال القضايا التي تحتاج إلى السرعة في الإنجاز، وليس في مجال نظرية القيم نفسها، حتى تكون له لغة أكثر فلسفية.

في هذا الصدد يعتقد الفيلسوف **داغوني** أن للفلسفة، اليوم أهمية خاصة أكثر من أي وقت مضى. لأنها تهتم بالمستقبل، تهتم بما تعده العلوم. وهذا يصدق أكثر على البيولوجيا، أين نجد القلق الأكثر، من أي ميدان آخر. إن العالِم لا يستطيع تقرير ما ينبغي فعله، أو ما لا ينبغي، فهو لا يحتار في مجال القيم.

إنها مهمة الفيلسوف متمثلة في صنع نوع من التفكير حول البيولوجيا une bioreflexion، أو بسط نوع من النفوذ خاص بالبيولوجيا un biopouvoir التي تخبرنا بما هو مسموح به، وبما هو غير مسموح. إن مبدأ الاحتياط له قيمة في الفلسفة، في مجال الحياة. [95]

---

93 محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص. ص. 37- 38.

94 ح. ب غريس، طبيعة الميتافيزيقا، ترجمة، كريم متّى، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م.، ص. 120.

95 A quoi sert La Philosophie, débat animé par, Robert Maggiori, édition de la bibliothèque d’information, Centre Pompidou, 2005,document P.D.F

- http://www.bpi.fr,rubrique. 25/05/2006

ولذا نجد من أهم المجالات التي أثيرت فيها هذه التساؤلات. مجال البيولوجيا والطب لما لهما من تأثير على حياة الفرد والمجتمع من جهة، والمفاهيم التي تقدمها حول الإنسان والحياة والموت من جهة أخرى. وهي مفاهيم كانت ولا تزال تشكّل محور نقاش فلسفي حاد. ولعل من بين هذه المفاهيم الجديدة، تلك التي تتعلق البيوإطيقا. أو ما يطلق عليه في اللغة الفرنسية لفظتي BIO-ETHIQUE.

ج) مفهوم البيوإطيقا وأسباب ظهورها:

لم يكن لمصطلح البيوإطيقا BioEthique وجودا قبل الثورة البيولوجية والتطورات التي شهدتها هذه الأخيرة، والتقنيات الطبية الجديدة التي أصبحت في كثير من الأحيان تهدد بشكل مباشر أو غير مباشر الكيان الإنساني، وكل ما يحيط به. ولذا يعتبر هذا المصطلح جديد، طبعا بعد تمييزه عن الأخلاق الطبية Déontologie

أن التخصص في الأخلاق من الأمور التي لا يمكن ضبطها، لأننا نعجز تماما عن وضع معايير للمتخصص في مجال الأخلاق، وبالرغم من ذلك فإن المفكرين المعاصرين يعتقدون أن فكرة التطور في مجال الأخلاق يمكن تحقيقها بتوفر قدر كاف من القدرات الذهنية التحليلية والاستقامة في استيعاب المفاهيم المجردة. ولكن تراكم المعرفة يثير تساؤلا فيما إذا كان التحدي في مجال الأخلاق يكمن في عدم استيعاب هذا التراكم المعرفي، أم في الاستعداد السليم الذي يتمثل في أن كل معرفة تعيننا على الامتثال لما نمتلكه من قبل وهو الضمير الخلقي. بهذا فإن مجال البيوإطيقا، ليس مجرد معرفة بل هو مؤسسة منظمة في إطار النمو.

هذا الأمر يزيد صعوبة في تكييف مفهوم (البيوإطيقا). مع مختلف اللغات والأنماط الثقافية. فإذا كان محتوى الكلمة البيوإطيقا من الصعب احتواؤه أو الإحاطة به في اللغة الفرنسية أو الإنجليزية، فالصعوبة تكون أكثر حين نحاول تحويل هذه الكلمة إلى اللغة العربية، والتي تستعمل للدلالة على "أخلاقيات الطب وعلوم الحياة "، أو أخلاق حياتية وحين نقوم بترجمتها إلى اللغة الفرنسية تصبح éthique médicale et des sciences du vivant ou de la vie. نشير هنا أن الدكتور محمد عابد الجابري، قام بردها إلى العربية بالإبقاء عليها كما هي. أي بيوإطيقا. [96]

---

96 Antoine Courban, Ethique de la Bioéthique, Thème d'une conférence donné à Damas, le 06/12/2003, Texte publié à Beyrouth dans la revue'' travaux et jours'', N°73, Printemps 2004. p. 77.

كلمة أخلاق في معجم **دومنيك لوكور** Dominique Lecourt تستعمل عند القدامى كوسيلة بها نحكم ونميّز الأفعال الخيّرة من الأفعال الشريرة. أما مع كلمة Bioéthique فإن الأمر يتعلق بكلمة مولدّة (جديدة) استعملت لأول مرة في سنة1971م من طرف **فان رانسيلر بوتر** Van Rensselaer Potter الطبيب المختص في مرض السرطان في كتابه bioethics bridge to the future البيوإطيقا جسر إلى المستقبل". لا ينظر إلى البيوإطيقا على أنها أخلاق الطب، أو على أنها أخلاق البيولوجيا، و لكنها بمثابة أخلاق تأخذ بعين الاعتبار الارتباطات أو العلاقات الموجودة بين الكائنات الحية. يجدر بنا أن نشير دون أدنى شك أن الفيلسوف **فرانسوا داغوني** أول من أشار إلى البيوإطيقا، دون أن يستعمل هذا اللفظ.

إن كلمة البيوإطيقا تعني اليوم، فضاء متميز للنقاش الأخلاقي يضمّ كل الشرائح. حول توجهات البحوث الطبية والتطبيقات العلاجية التابعة لها. هذا الفضاء للنقاش يكون قد شجع على بروز مجال معرفي، تتداخل فيه مختلف النشاطات والذهنيات، وهو دلالة على تعقيد المسائل المطروحة في هذا الصدد. كما أنه تسبب في وضع مجموعة من الحدود والقوانين التي تسمح بتنظيم الممارسة الطبية والعلمية بشكل عام، ولِما لا تكون واحدة من رهانات الفلسفة القادمة.[97] فكيف ما كانت معاني البيوإطيقا، فإن التفكير في مجال البيولوجيا، كثيرا ما يصطدم بتنوع القيم التي تميز المجتمعات ذات القيم المتنوعة.[98]

من ناحية أخرى يمكن التساؤل عن الأساس في مقابلة المعيّن القبلي bio بكلمة éthique. هذه دلالة على أن هناك نسيانا تاما لتقاليد الطب وهذا النسيان لا يخلو من الخطر. لكن يوم ارتباط هذه الكلمة(إيتيك) بكلمة (بيو). يعني تحول كلمة أخلاق إلى تخصص معرفي، أو نظام جامعي، أو عمل الخبراء.

حتى نقترب أكثر من معنى كلمة Bioéthique والمحاطة بكثير من الغموض، لا بد أن نعي تمام الوعي، أن الكلمة هي في الصميم تقنية لحسم الصراعات techniques de résolution des conflits ولا يمكنها أن تكون شيئا آخر غير ذلك، إنها تستعمل لحل المشاكل أو الصراعات التي تحمل قيمة، بين التقدم في مجال التقنيات البيولوجية والطبية biotechnologiques ، وقوانين حفظ الكرامة الإنسانية. إنها مجال تفاعل interaction لمختلف النشاطات التي تجتمع حول إشكالية خاصة تضع القيم في خطر بمناسبة التطبيقات في مجال البيولوجيا. وعليه، لا يتعلق الأمر بمجال خاص، مثلما هو الحال بالنسبة

---

97 محمد جديدي، البيو-إطيقا ورهانات الفلسفة القادمة، محاضرة ألقية حلال الملتقى الدولي الثالث للفلسفة، المنعقد بالمكتبة الوطنية، الجزائر العاصمة، يومى 25-26/أفريل/2007م

98 Dominique Lecourt, (Sous la direction),Dictionnaire de la pensée médicale, PU F, 2004

للبيوكيميائي (كيمياء حياتية). كما لا يمكن فهمها على اعتبار أنها طريقة لإنشاء أو وضع القيم. إن القيم وسلم القيم، ينشأ من تأثير الثقافات والحضارات والأديان.

وبهذا يكون مفهوم البيوإطيقا، ينتمي إلى سجل ما هو نفعي أو ذرائعي، والعكس يكون بلا شك مثيرا للدهشة، خاصة إذا علمنا أن منشأها وأهم تطوراتها كان بشمال أمريكا المعروفة بالليبرالية الأنغلوسكسونية، والذهنية الحسية، ونظرتها النفعية في الفلسفة الأخلاقية. ومذهبها الذرائعي، وتقاليد الكومن لاو common law.(*) في مثل هذا الجو وضعت فكرة الأخلاق التطبيقية éthique appliquée والتي تميزت شيئا فشيئا، في مجال العلاقات الاقتصادية، وابتداء من سنة 1960م دخلت مجال البيولوجيا، أما البيوإطيقا فقد ظلت متعلقة، بالانحرافات والفضائح التي اتسمت بها البحوث البيولوجية والطبية.[99]

مبدئيا تعتبر فكرة البيوإطيقا Bioethics فكرة أمريكية وهذا يرجع إلى سببين هما:

1ــ أنها فكرة من إبداع أمريكا، كل تفكير في هذا المجال لا يمكن أن يكون خارج إطار هذه الطبيعة(طبيعة أمريكية) حتى أن فكرة البيوإطيقا، العالمية، يتم التعبير عنها باللغة أخلاقيات الطب وعلوم الحياة الأمريكية.

2ــ تطور هذه الفكرة في أمريكا أكثر من أي مكان آخر حتى في **الكيبيك (كندا)** Québec أين نلاحظ استعمال اللغة الفرنسية إلا أن الطب علميا يتغذى من الإنتاج الأمريكي.

إن الجو الفكري لما بعد الحرب والذي يميزه الانتصار الذي حققته أمريكا، ففي هذا الجو التفاؤلي، الذي كان يطبع البحوث العلمية (التقنيات العلمية)آنذاك، ونظرا لاقتناع الباحثين بأن العلم هو المحور الأساسي في التطور والتقدم، و أنه يحمل الكثير في المستقبل، دفعهم هذا إلى مواصلة هذه البحوث مثلما كانت عليه أثناء الحرب، في هذا الجو، جو التطور والتقدم، الذي ساد بين سنتي (1950-1960م) ما هي مكانة الأخلاق آنذاك؟

-كان ينظر إلى الأخلاق من طرف المثقفين على أنها عنصر مؤسس للدين. وأن كلا المفهومين الدين والأخلاق هما في الحقيقة يؤسسان شيئا واحدا. وحين كان صفوة المثقفين الجامعيين ينظرون إلى الدين كظاهرة تجاوزها الزمن، فهم ينظرون إلى الأخلاق بالنظرة نفسها.[100]

حتى مولد البيوإطيقا لم يولِ المثقفون اهتماما لأخلاقيات الطب، ماعدا في مظهرين:

- الأول: يتعلق بالخطاب الأخلاقي للأطباء، والذي يأخذ مظهر القواعد الأخلاقية، تضبط العلاقة بين طبيب و آخر وليس بين الطبيب والمريض.

(*) لقوانين الولايات المتحدة ثلاث أصول للكومن لاو Common Law القانون التشريعي، الأساس الفلسفي أو الديني. فالكومن لاو تمثل أساس الحقوق التي تحكم كل الولايات.

99 Antoine Courban, Ethique de la Bioéthique,

100 Hubert Doucet, Religiologique, Religion et Bioéthique,

- http://www.unites.uqam.ca/religiologiques, 20/04/2006.

- الثاني: يتعلق بالأخلاق الطبية الكاثوليكية، أواللاهوتيين Les Théologiens والمتمثلة في تلك الحدود الأخلاقية التي لا ينبغي تجاوزها لأن الدين يأمر بذلك. أما في السبعينات فقد تم وضع اتفاقيات وتقارير، بحيث كانت سنة 1966م سنة تحول بالنسبة للمفكرين الأمريكيين.

ويمكن تلخيص مختلف الأسباب التي أدت إلى ظهور البيوإطيقا وفرض نفسها في أمريكا،**أولاً**: كمقاربة تخص جيل العصر Approche Séculaire الكل فيها يبحث عن لغة موحدة وإيجابات تلائم الجميع، بعيدة عن كل الاعتبارات الدينية، والثقافية والعرقية، ومحاولة بناء حوار عقلاني وإنساني يمثل الجميع.[101] **ثانيا**: كمقاربة متناظمة (تتعلق بعدة فروع من العلم) Approche Interdisciplinaire بالرغم مكن أن البيولوجيين والأطباء هم المسؤولين عن هذا التطور، لكن هذا لا يعطيهم الحق في اتخاذ القرارات، تريد البيوإطيقا أن تكون مقاربة لكل الأنشطة وكل العلوم، للإشتراك في البحث عن الحلول المناسبة.[102]

- الثالث: كمقاربة قديمة Approche Prospective وهذا راجع إلى تتبعها ونظرتها في أسباب التطور، وتنبئها بالأوضاع التي يمكن أن تنجم عن تأثير هذه الأسباب.[103]

الرابع: كمقاربة إجمالية Approche Globale من حيث أنها تهتم بالمريض ككل، جسما ونفس، وليس المرييض فقط، بل كذلك المجتمع. فنظرتها الإجمالية تفسح المجال للجميع في المشاركة وإبداء الرأي، ووضع القواعد اللازمة والتي يتعين على كل واحد إحترامها.[104]

خامسا: مقاربة نسقية Approche Systématique البيوإطيقا لا تهتم بحل المسائل الجزئية، فهي تحليل دقيق ومنطقي يتم وفقا لمخطط، ونظام بين القضايا ذات الطابع الأخلاقي، وذلك بإرجاعها إلى مبادئ أساسية واحدة، وعليه يؤسس مفهوم البيوإطيقا مقاربة أصيلة للواقع البيولوجي والطبي وهذا يؤدي إلى تعدد تعاريفها (البيوإطيقا).[105]

لقد كان ظهور البيوإطيقا نتيجة الملاحظة ما يتعرض له المرضى و أشخاص آخرون من تجارب طبية، ومن خلال الأمثلة التي قدمها **هنري بيشر** Honry Beecher(*) في مقال نشر في الصحيفة الإنجليزية الجديدة في الطب New England journal of medicine عرض فيه نماذج من التجارب التي كانت تجرى على الأشخاص والمدعمة من طرف الدولة الألمانية آنذاك (برامج سرية). ابتداء من ذلك الحين أصبحت تعرض على المواطنين

---

101 Guy Durand, La bioéthique (Nature, Principe Enjeux, p. 23.

102 Ibid, p. 24.

103 Ibid, p. 25.

104 Guy Durand, La bioéthique(Nature, Principe, Enjeux), p. p.25. 26.

(*) هنري بيشر، كَتَبَ حول التجارب اللاإنسانية، مثل تقنية تبريد الإنسان التي كانت تقام في مركز التعذيب داشو Dachau (مركز تعذيب بألمانيا). في مقالتين نشرتا في جريدة New England Journal of medicine سنة 1990م.

105 Guy Durand, La bioéthique(Nature, Principe, Enjeux), p.26

نماذج أكثر خطورة عمن يتعرضون للتجارب العلمية والطبية خاصة. مكن هذا من إطلاع الرأي العام على مختلف التجارب اللا إنسانية التي كانت تجرى على مستوى المراكز الإستشفائية والتي كانت تتسبب في مأساة بالنسبة للأشخاص أو العائلات أو المجتمع. في الأول كان الاهتمام موجها إلى المعاملة اللا إنسانية، وليس إلى عدم احترام حقوق المرضى والمجرب عليهم. لكن الأمر تحول إلى نقاش حول القيمة الأخلاقية للممارسات العلمية الطبية على وجه الدقة.

وبهذا يكون أول دافع لظهور البيوإطيقا هو التطبيقات البيولوجية الطبية اللاإنسانية. أما الدافع الثاني فيتعلق بالاهتمامات والتساؤلات الجديدة التي يطرحها التطور الطبي، وهذا أدى إلى الشك في كل الأفكار التي بنيت وبشكل تام، حول الحياة والموت والكائن الحي الإنساني. وهي من غير شك من أهم المسائل الفلسفية في تاريخ الفلسفة.[106]

إن آثار الاختراعات، ينبغي أن تؤخذ إذن بعين الاعتبار من طرف الفيلسوف. حتى يتم وضع تصور وخلق مستقبل أفضل، وذلك باحترام القيم الأساسية، وهذا يبين من دون شك أن مفهوم الأخلاق قد تغير بفعل هذا التطور، فلو تأملنا مسألة التقييم الأخلاقي للتقنيات. لوجدنا فيه تلك الدعوة إلى ربط الأخلاق بالواقع كدعوة ربط الفلسفة كذلك بالواقع.

إن التطورات التي شاهدتها علوم الحياة والعلوم الطبية، أدت من دون شك إلى إحياء الفلسفة، بحيث أصبح لها دور فعال في المجتمع، مثلها مثل بقية العلوم، حتى أصبح القرن الحالي يعرف بقرن الأخلاق العملية، فرضتها طبيعة المشكلات التي أصبح يواجهها الإنسان في حياته، والتي لا يجد لها ردا إلا من خلال التفكير الفلسفي.

بالرغم من قيمة البيوإطيقا في توجيه ومراقبة أثر التطبيقات الطبية إلا إنها لم تسلم من النقد. خاصة إذا نظرنا إلى النتائج المفيدة بفضل استعمال التقنيات والتي ساعدة كثيرا على شفاء الناس أحسن مما مضى. إن التطور السريع والمذهل للبيولوجيا والطب يضعنا أما عدم الموازنة بين وقت التفكير والتطور الجنوني للتقنيات العلمية.[107]بمعنى آخر ليس هناك تكافؤ بين تطور العلم والتفكير في نتائجه، مما يجعلنا نبالغ في الحكم عليه، واعتبار الكثير من نتائجه ذات آثار سلبية على الإنسان، بينما في الواقع نجد عكس ذلك.

---

106 Hubert Doucet, http://www.unites.uqam.ca/religiologiques, 20/04/2006.

107 Lucien Sève, Pour une critique de la raison Bioéthique, p. 323.

(*) ميمون ابن عمران موسى، ولد في قرطبة سنة 1135م أو 1138م ، و توفي في طبرية (فلسطين) سنة 1204م، طبيب يهودي و فيلسوف، و يطلق عليه أحيانا ، موسى المصري، تأثر بفلسفة إبن رشد، و لم يكن تلميذا مباشرا له، بل صرّح في كتابه "دلالة الحائرين" أنه كان تلميذ لأحد تلامذة إبن باجة.هجر قرطبة لما دخلها العرب و سار إلى مراكش و مصر. طبيب صلاح الدين الأيوبي.

- عبد الرحمن تليلي، ابن رشد في المصادر العربية، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة، الأولى، 2002م.، ص.21.

3 ــ البيوإطيقا في الدين:

إن النقاش في المسائل التي تحمل قيمة أخلاقية مثل التقنيات العلمية وخاصة منها البيولوجية والطبية، لم يكن فلسفيا محضا، ويرجع ذلك لطبيعة المشكلات المطروحة وآثارها على الفرد والمجتمع. ولذا فإن النقاش اتسع ليشمل رجال الدين واللاهوت ومن ثمة تكون للدين رؤيته الخاصة لمثل هذه المعضلات،لما له من أثر كبير على تفكير الناس والجماعات يرجع هذا إلى القيم والمبادئ التي يحملها والتي تشكل في أغلب الأحيان الأساس الروحي أي العقيدة. من جهة اخرى يعتبر الدين الموجه للسلوك، لأنه غير منفصل عن الحياة وعن الواقع. ولذا نلاحظ حضوره الدائما كل مسألة تمس الفرد أو الجماعة أو المجتمع. ومنه فإن البيوإطيقا تشكل المجال الجديد أين يمكن لرجل الدين إبداء الرأي والحكم على هذه المسائل مثل تأثير التقنيات العلمية على الإنسان وقيمته دينيا وأخلاقيا.

ا) <u>في اليهودية</u>:

الأخلاق الطبية اليهودية أول من تفاعل مع التراث الأ**بقراطي**، أخذت منه خاصة من مؤلفات الحِكَمْ وعلى وجه الخصوص "كتاب الحِكَمْ ". وهو أشهر كتاب في كل مجموع المصنفات، والذي يشهد على رواجه، كثرة نسخه المخطوطة في لغات كثيرة، ووفرة الكتب التي نُسجت على منواله. وأشهرها كتاب" الفصول في الطب" لــ **إبن ميمون**(*) Maimonide النصف الثاني من القرن الثاني عشر.[108] كما استمدت هذه الأخلاق الطبية جذورها من أساسها الديني (الوصايا العشر). في الوصية الخامسة، من الوصايا العشر.(في تقديس الأسرة) كان اليهود، هذه الأمة الصغيرة، حريصة على النسل من أجل زيادة عددها.لأنها تشعر منذ القدم كما تشعر اليوم في فلسطين بأنها مهددة بمن يحيطون بها. ولذا فهي تُعلي من شأن الأمومة وترى العزوبة خطيئة وجريمة. وتجعل الزواج إجباريا ابتداء من السن العشرين. كما تنظر إلى الإجهاض وقتل الأطفال وغيرهما من وسائل تحديد النسل، على أنها من أعمال الكفرة البغيضة التي تؤذي خياشيم الرب.[109]

في استجواب مع الراهب اليهودي **بيار إيف بوير** le Rabbin Pierre-Yves Bauer حول موقف الدين اليهودي اتجاه التقنيات الطبية المعاصرة، مثل الإخصاب الصناعي

---

108 جورج سارتون. تاريخ العلم، ج. 2، ص. 292.

109 ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ج. 2 ، الكتاب الأول، ص. 375.

والتشخيص القبولادي والإجهاض وغير ذلك. أجاب بشكل عام حول الإخصاب الصناعي على أنه مسوح به إلا إذا كان بواسطة مني متطوع فهذا ممنوع. أما في ما يتعلق بالإجهاض فهو ممنوع خاصة بعد أربعين يوما. وفيما يتعلق باستئجار الرحم، فهو أمر ممنوع.
الملاحظ في كل هذه الأحكام أن هناك مرجعية ينبغي أن ترد إليها كل فتوى أي استشارة رجال الدين من جهة، ومن جهة أخرى أن موقف الدين اليهودي، تغير إزاء كثير من القضايا، بحيث أصبح أكثر مرونة، مما كان عليه من قبل.[110]

ب) **<u>في المسيحية:</u>**

لم يكن يتوقف تأثير التراث ال**أبقراطي** على اليهودية فحسب، بل امتد إلى المسيحية التي رأت في قسم **أبقراط** التعبير الكامل عن علاقة الطبيب بمرضاه، ولذا وضعته، أي الطبيب، في مرتبة الملائكة والقديسين. إلى جانب ذلك كانت المسيحية تهتم كثيرا بالطب وبالمرض لأنها تؤمن بأن الجسم ليس ملك لصاحبه، بل هو ملك لله وعلينا المحافظة عليه. ثم أن المسيح عيسى عليه السلام كانت له القدرة على شفاء الناس، وقد ورد في الإنجيل: << فقد كان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويُشفِي كل مرض وكل ضعيف في الشعب. فذاع خبره في جميع سورية، فأحضروا إليه جمع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم >> [111]
وهذا ما يؤكده القرآن العظيم في قوله تعالى:<< ويعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية مّن رّبّكم، أنّي أخلق لكم مّن الطّين كهيئة الطّير فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله، و أبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله، وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، إنّ في ذلك لأية لّكم إن كنتم مّؤمنين.>>[112]
ولا شك أن هذا ما يبرر حملة الكاثوليكيين ابتداء من سنة 1968م ضد التقنيات الطبية وخاصة منها الإخصاب الصناعي والإجهاض. ففي سنة 1969م أسس **دنيال كلهان** Daniel callahan فيلسوف مرتبط بالكنيسة الكاثوليكية، Le hastings center وفي سنة 1971م أصبح **أندريه هيلجيرس** Andre hellegers مسيحي مختص في علم الأجنة مدير ومؤسس Kennedy institute of ethics .

---

110 entretien avec le Rabbin Pierre-Yves Bauer de viejuive.com
- http://www.genetique.org .02/05/2006

111 إنجيل متى. الإصحاح الرابع ، ص. ص. 22- 25.

112 القرآن الكريم، سورة مريم، على رواية الإمام ورش، الآية. 47.

تشترك هذه المؤسسات التي تم انشاؤها في هدف واحد وهو التصّدي لفكرة الإخصاب الصناعي. ومن الأسماء البارزة في هذا المجال نجد **جون. س. فليتشر** John. C. Fletcher **بول رامسي** Paul Ramsey الفيلسوف المسيحي الذي يقول << إننا في اللحظة التي نسمح فيها بإجراء عملية حمل خارج الرحم لأي زوجين، نكون قد قبلنا مسبقا، من حيث المبدأ، إمكانية حدوث سلسلة متوالية من السلوك اللاإنساني. ذلك لأن هذه العملية ستجبرنا على أن نقدم على خطوات أخرى لا نعرف عواقبها.>> ويقول كذلك: << طالما أن الإخصاب الصناعي Procréation عن طريق المتطوع، يبعد تماما بين ما جمعه الله في الزواج. فإن هذه الطريقة يجب أن ينظر إليها على أنها حد من حرية الإنسان، لا تختلف عن الوضع الذي يمنع فيه الإنسان من ممارسة لإرادته.>>[113]

بشكل عام يعترض رجال الدين المسيحي على الإخصاب الصناعي بجميع أنواعه لأنه خروج عن المقاصد الإلهية من الزواج وهو عملية غير طبيعية، تحتاج إلى استخدام طريقة الاستمناء للحصول على السائل المطلوب وقد دعموا رأيهم هذا بقصة وردت في سفر التكوين:" وأخذ **يهوذا** زوجة **لعير** بكره اسمها **ثامار**. وكان **عير** بكر **يهوذا** شريرا في عيني الرب فأماته الرب. فقال **يهوذا لأونان** أدخل على امرأة أخيك وتزوج بها و أقم نسلا لأخيك، فعلم أونان أن النسل لا يكون له. فكان إذا دخل على امرأة أخيه أفسد على الأرض لكيلا يعطي نسلا لأخيه، فقبح في عيني الرب ما فعله، فأماته أيضا."[114]وقد ربط المسيحيون بين اسم "**أونان**" والاستمناء إلى درجة أن كلمة أونانية Onanism كانت تعرف في القواميس الكاثوليكية القديمة ب"الاستمناء".

وقد عرض **البابا بيوس** الثاني عشر(*) Pape pie 12 من ثلاثة خطب مهمة فيما بين عام 1949-1956 عرض فيها موقف الكنيسة من الإخصاب الصناعي.

- في المؤتمر العالمي الرابع للأطباء الكاتوليك في 1949/09/29م .
- وفي مجلس الإتحاد الكاثوليكي الإيطالي للقابلات في1951/11/26م .
- وكذا في المجلس العالمي الثاني للإخصاب الصناعي والعقم. في1956/05/19م.

وقد جاء في هذه الخطب الثلاثة تحريم الإخصاب الصناعي للأسباب التالية:

1- الإخصاب بغير الطرق الطبيعية يحول المنزل إلى مجرد مختبر بيولوجي.

---

113 Ramsey paul. Moral and Religious implication of genetic control. In life Manipulation .op.cit فيلسوف أخلاقي

114 سفر التكوين. الإصحاح الثامن و الثلاثون. ص. ص. 16-11.

(*) هو أوجنيو باسيلي Eugenio Pacelli (1876-1958م)، عيّن بابا سنة 1939 تحت إسم بيوس 12.

2- يفرق الإخصاب الصناعي بين الوحدة والإنجاب اللذين تشملهما العلاقة الزوجية وهو ما يخالف الغاية الإلهية من الزواج.

3- الإخصاب الصناعي يلجأ إلى وسيلة غير أخلاقية هي الاستمناء عن طريق متطوع، وهذا يهدم الزواج الذي يقوم على أساس أن خلق حياة جديدة لا يمكن أن يكون إلا من ثمرة الزواج.

يقول **البابا بيوس** 12:<< إن الإخصاب الصناعي بكل أنواعه يبرز من فلسفة زائفة للحياة، تدّعي أن السعادة حق من حقوق الإنسان ولذلك إذا أراد الزوجان إتمام سعادتهما، فإن هذا الطفل حق من حقوقهما أيضا.>> [115]

نجد هذا الموقف حتى لدى المتأخرين من الرهبان المسيحيين. ففي الخطاب الذي توجه به **البابا يوحنا بولس الثاني** قي يوم السبت 24 فيفري 2004م، أمام أعضاء مجمع كتاب الطقوس من أجل الحياة. L'académie Pontificale pour la vie. في إطار مشاركة أعضاء هذا المجمع في يومين دراسيين حول الإخصاب الصناعي. الذي يبدو في نظر البابا محفوفا بالمخاطر، فكثير من القيم الأساسية مهددة، ليس فقط بالنسبة للمؤمنين المسيحيين بل بالنسبة للإنسان كذلك. إن العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة عن طريق الزواج، أين يصبح الرجل أبا والمرأة أما، هي مما رسمه الخالق في هذه الطبيعة الفيزيائية، والروحية. وحتى في الرجل والمرأة، وجعل منها قيمة عالمية. هذه الحركة الغنية التي بها يصبح الرجل أبا والمرأة أما، والتي تحفظ الحياة وترفع من شأنها، هي في نظر البابا، لا يمكن تعويضها بعملية تقنية. لأن هذه الأخيرة - بالنسبة لقيمة الإنسان – فقيرة وتخضع لحتمية النشاط العلمي والتقني.

إن واجب الباحث العلمي في نظر البابا، هو البحث عن أسباب العقم لدى الرجل والمرأة. حتى يتم معالجة هذه الوضعية المؤلمة التي يعاني منها الأزواج. من جهة أخرى يشجع البابا البحث العلمي الذي يهدف إلى تجاوز مشكلة العقم باستعمال طريقة طبيعية. وقد كان نداؤه موجها للعلماء المؤمنين على الخصوص.[116] وفي نفس الوقت، حث البابا أعضاء المجمع، على أن لا يدخروا جهدا من أجل تشجيع كل مبادرة تهدف إلى تجنب المصاحبة لتقنية الإخصاب الصناعي. كما دعا كل المؤمنين للتدخل ومساندة البحوث التي تكون في الإطار الشرعي، ومقاومة كل قرار يفرض التقنية كبديل عن الأبوة الحقيقية وعن الأمومة. والتي تمس بقيمة الوالدين والأبناء.[117]

---

115 ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية و الأخلاق، ص. ص.149- 148.

116 Eglise Catholique: Discours de Jean-Paul II sur les AMP (Membres de L'Académie Pontificale Pour La Vie) (2004) http://www.bioéthique.net

117 Ibid, http://www.bioéthique.net.

ج) في الإسلام:

لم يمنع تطور التقنيات الطبية على يد غير المسلمين، المسلمين من معرفتها ومعرفة تأثيرها، واتخاذ المواقف الشرعية منها، بالاجتهاد و الفتوى. وقد عقدت مؤتمرات ‎ ‎ ‎ ‎ ‎ ‎ ‎ ‎ ‎ ‎ندوات في هذا الشأن، منها ما لخصه قرار مجلس هيئة كبار العلماء الأفاضل.[118] رقم 140 وبتاريخ 1407/6/20هـ وينص هذا القرار على ما يلي:

1ـ لا يجوز إسقاط الحمل في مختلف مراحله إلا لمبرر شرعي وفي حدود ضيقة جدا.

2 ـ إذا كان الحمل في الطور الأول وهي مدة الأربعين وكان في إسقاطه مصلحة شرعية أو دفع ضرر متوقع جاز إسقاطه. أما إسقاطه في هذه المدة خشية المشقة في تربية الأولاد، أو خوفا من العجز من تكاليف معيشتهم وتعليمهم، أو من اجل مستقبلهم أو اكتفاء لما لدى الزوجين من أولاد فهو غير جائز.

3 ـ لا يجوز إسقاط الحمل إذا كان علقة أو مضغة، حتى تقرر لجنة طبية موثوق فيها إن استمراره خطر على سلامة أمه ومن ثم، جاز إسقاطه بعد استنفاد كافة الوسائل لتلافي تلك الأخطار.

4 ـ بعد الطور الثالث وبعد إكمال أربعة أشهر للحمل لا يحل إسقاطه حتى يقرر جمع من الأطباء المتخصصين الموثوقين إن بقاء الجنين في بطن أمه يسبب موتها وذلك بعد استنفاد كافة الوسائل لإنقاذ حياته..الخ. أما قبل نفخ الروح فقد اختلف الفقهاء في حرمة الإجهاض. فبعضهم يحرم الإجهاض منذ اللحظة التي تستقر فيها النطفة في الرحم والبعض لا يرى حرمة في الإجهاض قبل نفخ الروح متى كان الإجهاض لسبب طبي كمرض الأم أو غيره. وهنا نورد القرار الهام الذي أصدره المجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثانية عشرة (15 رجب 1410ه الموافق 10 فبراير 1990م) حيث أعاد النظر في مسألة الإجهاض وأباح إجهاض الجنين المشوه تشوها شديدا غير قابل للعلاج، بشرط أن يكون ذلك بقرار لجنة من الأطباء المختصين، وبشرط أن يتم الإجهاض قبل مرور 120 يوما وهذا واضح من خلال قول الفقهاء المجمع على تحريم الإجهاض بعد نفخ الروح في الجنين (حتى وان كان الجنين مشوها).

إلا إذا كان في بقاء الحمل واستمراره موت الأم هنا تعتبر حياتها مقدمة على حياة الجنين لأنها هي الأصل. [119]

---

118 محمد البار، استشاري أمراض الباطنية، ومستشار الطب الإسلامي بجدة، عبد الله سلامه، استشاري نساء وتوليد http://www.muslimdoctor.org 2006/07/19م.

119 المرجع نفسه، http://www.muslimdoctor.org 2006/07/19م.

ولقد اتفق الفقهاء على أن نفخ الروح في الجنين يحصل بعد مرور 120 يوما واستدلوا على ذلك من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم: فقال<< إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: أكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح>>.

<u>خفض عدد الأجنة:</u> لا شك أن حمل بعدد من الأجنة (ثلاثة أو أربعة) فيه مخاطر كثيرة على الأم والأجنة فما حكم حقن مادة في قلب الأجنة لقتلها وإبقاء اثنين أو واحد فقط حسب اختيار الأبوين ؟ وهل من إثم على الطبيب في عمله (أي قتل الأجنة) ؟.

واضح مما سبق. وضوح الفتاوى من المجمع الفقهي بعدم إعادة أكثر من العدد المطلوب من اللّقاح وقد نصت توصية المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بعدم إعادة أكثر من لقحتين أو ثلاث على الأكثر وذلك منذ عام 1982م ثم جاءت القرارات من ألمانيا والنرويج ودول الشمال الأوربي بنفس القرار وكأنهم تبعوا في ذلك توصيات العلماء والأطباء من المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت التي كان لها فضل الريادة والسبق.[120]

<u>الرحم المستأجرة:</u> أما موقف الإسلام من الرحم المستأجر. فقد منعت القرارات والفتاوى العديدة من المجامع الفقهية دخول طرف ثالث في عملية الإنجاب التي ينبغي أن تتم بين الزوجين حال قيام الزوجية وعدم انفصامها أو طلاق. ويقصد بالطرف الثالث:

1- نطفة ذكرية متبرع بها (حيوان منوي).
2- نطفة أنثوية متبرع بها (بيضة).
3- لقيحة جاهزة (فائضة من مشاريع أطفال الأنابيب).
4- رحم مستأجر أو متبرع به ويدعى أيضاً الرحم الظئر.
5- خلية جسدية (استنساخ).[121]

إن المهيمن على هذه الأحكام الشرعية هو طابع الاجتهاد، وهذا يرجع إلى كون القضايا، المدروسة مستحدثة، وبالرغم من الجهود التي يبذلها الفقهاء في إصدار الأحكام والفتاوى المتعلقة بالممارسة التقنية في مجال الطب، إلا أن هناك فراغ كبير تعاني منه المنظمات المختصة في هذا الشأن، ويرجع الأمر إلى نقص القدرة على ممارسة والتحكم في هذه التقنيات الجديدة في البلدان العربية والإسلامية.

---

120 محمد البار http://www.muslimdoctor.org 2006/07/19م.

121 المرجع نفسه

4 ـ البيوإيطيقا في القانون

لم يتوقف النقاش حول قيمة التقنيات العلمية بصفة عامة والتقنيات الطبية خاصة، عند اللاهوتيين فحسب، بل امتد إلى رجال القانون، مع أنه من الصعب إيجاد صلة واضحة بين القانون والأخلاق، من حيث أن القانون هو مجموعة القواعد الموضوعة ومراقبة من السلطة العامة، في حين أن الأخلاق توحي بالقواعد التي يتقبلها الوجدان الفردي، ومعنى هذا أن القانون موجه للمجتمع، بينما الأخلاق موجهة للفرد. وإلا فكيف نفسر لماذا يضطر المشرع إلى وضع ومراقبة قواعد لا تتفق إلا جزئيا مع القواعد الأخلاقية، أو تستطيع أحيانا معارضتها؟ يمكن تبرير هذا التعارض تاريخيا. فقد تبنى **كانط** فكرة كلاسيكية والمتمثلة في أن القانون يهتم بالتصرفات الخارجية، وتهتم الأخلاق بالتصرفات الداخلية أو النوايا. وهي فكرة أخذها كانت عن الفيلسوف الألماني **توماسيوس**.(*)

إلا أن هذا التمييز ليس مقبولا تماما، خاصة إذا علمنا أن النظام القانوني يأخذ النوايا بعين الاعتبار.[122] وحتى نثبت هذا التقارب بين القانون و الخلاق، ننظر إلى غاية كل منهما، فالأخلاق تقر بشكل خاص أن الإنسان يكرس نفسه للخير العام. ونفس الشيء بالنسبة للقانون حين يهدف إلى تحقيق النظام والعدل بين الناس داخل المجتمع. وبما أنه لا يمكن فصل الفرد عن مجتمعه، كما أنه لا يمكن التشريع لمجتمع من غير أفراد، فإننا نستنتج أن كل من القانون والأخلاق يهدف إلى الخير العام وهذا الأخير هو خير الإنساني.[123] ولكن الملاحظ اليوم تراجع واضح للأخلاق أمام القانون، وهيمنة هذا الأخير في المجتمع المتحضر. فلا غرابة في أن نجد المبادئ الأخلاقية الكبرى قد أصبحت مقننة. ولهذا لا نجد وسيلة للحفاظ على الإنسان في مجتمع تسود فيه كل أنواع العلاقات، الحسنة والسيئة، إلا بقوة القانون، الذي يعمل في كثير من الأحيان على الحفاظ على المبادئ الأخلاقية. ومحاربة النوايا غير المشروعة، خاصة إذا تعلق الأمر بمصير الإنسان، نتيجة التأثيرات المتلاحقة للتطبيقات العلمية منها البيولوجية و الطبية على وجه الخصوص.

(*) توماسيوس Cristian Thomasius 1655-1728م، لاهوتي و رجل قانون و فيلسوف ألماني، أول من أشار إلى التمييز بين القانون و الأخلاق و الدين.

- olivier Juilliard, Aufklarung, encyclopédie universalis, v6.0.72, France S.A 27/06/2002.

122 هنري باتيفول، فلسفة القانون، ترجمة، سموحي فوق العادة، منشورات عويدت، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1972م.، ص. ص.110- 109.

123 هنري باتيفول، فلسفة القانون، ص. 111.

وأفضل مثال يمكن أن نقدمه في هذا الصدد، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وخاصة المادة الثالثة منه التي تقول: << لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.>>

وبهذا المعنى يكون للبيوإطيقا إلى جانب الدين والفلسفة، امتداد في القانون، والدليل، مختلف اللجان التي شُكلت في أكثر من دولة، و كانت الحاجة أكثر إلى إنشائها في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك في وقت مبكر جدا نتيجة التجاوزات التي لُوحظت في مجال التجريب على الإنسان. ففي مستشفى يهودي للأمراض المزمنة **بنيويورك** Jewish Chronic Disease Hospital. في سنة 1966 أثبت الطبيب **بيشر**H. K. Beecher تعرُض إثنى وعشرون مريضا مُسِنْ تم تلقيحهم بخلايا سرطانية دون علم منهم.[124]ولعل أبرز ما سجل في هذا المجال الأخير هو التقرير النهائي للمؤتمر الدولي حول البيولوجيا والأخلاق. الذي نظمته اليونيسكو Unesco بمدينة **فارنا** Varna [125] **ببلغاريا** في شهر جوان 1975م. وقد ضم هذا المؤتمر علماء وفلاسفة ورجال أخلاق من كل أنحاء العالم.

إن تنوع وتعقيد المشكلات المطروحة والمناقشات أثناء أيام الندوة تمخض عنها تقرير وجه إلى المدير العام لمنظمة اليونيسكو. يتضمن ملخصا لتدخلات الحاضرين بطريقة تمكن من تقديم مقاربة لأخلاق عملية أو وظيفية مثلما يسميها المتدخلون بمدينة **فارنا**، وذلك بوضع مفهوم جديد للأخلاق يتلاءم مع القضايا الجديدة المطروحة نتيجة تطور العلوم والتقنية خاصة منها الطبية. كما يتضمن كذلك مجموعة من التوصيات، التي تؤكد على ضرورة ترقية، وتدعيم برنامج المنظمة في مجال العلم و الأخلاق،[126] انطلاقا من إعلان حقوق الإنسان نذكر منها:

- دعوة الفلاسفة إلى بذل جهد أكثر، تستند إلى النظرة الجديدة للعالم المتولد من التطورات العلمية والتقنية.
- محاولة وضع مفهوم جديد للأخلاق حتى نتمكن من توجيه الإنجازات والقدرات العلمية خاصة في مجال البيولوجيا الذرية أو الدقيقة لخدمة حقوق الإنسان، والصالح العام للمجتمعات النامية، أو في إطار النمو.
- تطوير الحوار بين العلماء والأخلاقيين Moralistes حتى يتعاونوا على ضبط أفكارهم واتخاذ مواقف تعبر من جهة على القدرات العلمية والضرورات الأخلاقية المؤسسة على احترام حقوق الإنسان من جهة أخرى.

وبما أن هذه التوصيات لم تلقى طريقها إلى التطبيق بشكل تام، يبقى هنالك سؤالان دون إجابة وهما :

---

124 Faure Christine, Comité D'éthique, encyclopédie universalis.

125 Varnaمدينة بلغارية تقع على ساحل البحر الأسود.

126 Bruno Ribes, Biologie et éthique, Réflexion sur un colloque deL'Unesco, Publié, en 1978, par L'organisation des nations Unies, p.173.

1 ــ مسألة العلاقة التي ينبغي أن تتم اليوم بين البحث العلمي و البحث الأخلاقي، هذه العلاقة التي نجد فيها تدخّل الأخلاق دائما لتقييم و نقد النتائج العلمية بشكل عام. في حين كان من المفروض أن يسيرا جنبا لجنب في إطار جهد واحد و اتخاذ قرارات مشتركة.

2 ــ مسألة التعريفات التي تنبثق عن هذه البحوث في إطار تكوين المفاهيم الأخلاقية المتعلقة بالإنسان أو بالمجتمع في الدول المصنعة أو في إطار التصنيع.

وكرد فعل مباشر عن هذا التقرير يوجه المؤتمر التوصيات التالية التي يطلب من المدير العام للمنظمة تشجيعها والعمل على متابعتها و هي :

أ) مواصلة وتدعيم البرنامج المتعلق بالعلم والأخلاق، والمراجعة الدائمة لمسألة العلاقة بين العلوم والأخلاق. وتنظيم من حين إلى آخر ورشات عمل دولية ومتعددة التخصصات، في البلدان النامية أو في إطار النمو. ونشر كل التقارير المنبثقة عن هذه البحوث في كل أنحاء المعمورة عن طريق طبعها.[127]

ب) التعاون من أجل وضع تصور لمفهوم **أخلاق عملية** و تشجيع البحوث في هذا المجال.

ت) تشكيل خلية دائمة لمراقبة تطبيقات نتائج البحوث البيولوجية. مكونة من علماء وفلاسفة، بالتعاون مع OMS [128] و[129] **CE**TM

ث) إدماج تدريس مادة الأخلاق العملية المعاصرة الخاصة بالاكتشافات العلمية، ضمن البرامج والمخطط الدراسي لمنظمة اليونيسكو في إطار العلم والتربية.

ج) تشجيع تنظيم دروس في الأخلاق موجهة لطلبة الجامعات والمعاهد التقنية ومراقبة سيرها الحسن.

ح) رفع القلق عن المواطنين وذلك بإعلامهم بشكل كامل وواضح وأمين وفي وقته حول الاكتشافات البيولوجية وامتداداتها الأخلاقية. وذلك بتوظيف وسائل الإعلام التابعة للمنظمة أو خارجها.

خ) تسجيل الدراسات العلمية والأخلاقية للمسائل البيولوجية وخاصة منها البيئية ضمن الأهداف الكبرى لبرنامج المنظمة اليونيسكو والخصوصيات الإنسانية للتطور العلمي.

د) تشجيع العلماء البيولوجيين وكذا المختصين الاجتماعيين والفلاسفة على المساهمة في تحسين نمط الحياة في البلدان السائرة نحو النمو أو النامية منها.[130]

---

127 Bruno Ribes, Biologie et éthique, p.173.

128 OMS المنظمة الدولية للصحة organisation mondiale de la santé

129 CETM اللجنة الأخلاقية العالمية comites d'éthique à travers le monde

130 Bruno Ribes, Biologie et éthique, p, p. 173-176.

إن مجمل هذه النتائج والتوصيات المتمخضة عن هذا المؤتمر، توضح جليا كم كانت مسألة النظر في التقييم الأخلاقي للتقنيات الطبية والبيولوجة أمر ضروريا، وهي في آن واحد دعوى إلى العودة إلى الأساس الأخلاقي للممارسات العلمية خاصة منها الطبية والبيولوجية، على أن يكون مسايرا للواقع، وهو ما يطلق عليه اسم الأخلاق العملية. وما حيرة المتدخلين في هذا المؤتمر، والذين يمثلون كل شعب المعرفة والتفكير، إلا دليلا قاطعا على أن الوقت حان لدق ناقوس الخطر الناجم عن البحوث التجريبية على الكائن الحي وخاصة منه الإنسان.

في المجموعة الأوروبية:

سنة 1991م يكلف المجلس الأوروبي من طرف مجلسه التشريعي، الذي يضم 281عضوا. بإعداد معاهدة (اتفاقية)أوروبية خاصة بأخلاقيات الطب وعلوم الحياة Bio-éthique على أن تكون جاهزة للمصادقة عليها من طرف الدول الأربعين أعضاء المجلس الأوروبي (هذه الاتفاقية تهدف إلى البحث عن التوازن والانسجام بين الفرد والعلم والمجتمع). تتكون من ثمانية وثلاثين مادة موجهة إلى حماية الإنسان في وحدته وقيمته. المادة الأولى تتحدث عن ضمان لكل فرد الاحترام التام لكماله وسلامته وحقوقه وحرياته الأساسية في إطار التطبيقات البيولوجية والطبية وقد نجم عن ذلك سنة 1992م، تشكيل ما يسمى باللجنة المديرة للبيوإطيقا، التابعة للمجلس الأوروبي مكونة من أطباء ورجال قانون وفلاسفة.

بالرغم من كل هذا، يبقى الوقوف على اتفاقية واحدة و قوانين أوروبية واحدة في مجال أخلاقيات الطب أمر في غاية الصعوبة، فإذا كانت الدول الأعضاء قد اتفقت وبوضوح على مجمل القواعد القانونية في هذا المجال، فإن التباين في الثقافات والآراء والأغراض، يقف حائلا دون التفاهم حول بعض القضايا، فالمجلس لا يجمع على قضية الإجهاض Avortement مثلا أو قضية، الموت الرحيم Euthanasie والتي تخضع في كثير من الأحيان لثقافة وديانة المجتمع. ف **مالطا** و**إرلاندا** تعتنق المسيحية، لا توافق على هذا الموضوع، مثلما نجده في "هولندا" أين تسود البروتستانتية. ولذا فإن اللجنة الوطنية للأخلاق Comité National d'éthique في فرنسا وإيطاليا وكذا بلجيكا والبرتغال تعارض العمل المستقل لبعض البلدان الأوروبية مثل ألمانيا.

وعوض أن تسلم مهمة التفكير في مجال البيوإطيقا لمتخصصين في هذا المجال، تقوم **الدانمارك** مثلا: بإشراك غير المتديّنين وكذا كل المواطنين، فهي تمتلك لجنة أخلاقية مفتوحة لكل المواطنين.أما بريطانيا كونها معارضة لفكرة اللجنة الوطنية، توظف مبدأ لجنة الملائمة (

التكيف) comité ad hoc أنشئت لمواجهة أي مشكل من هذا النوع. لذا فإن فكرة اللجنة الأخلاقية الأوروبية، التي تصورها المجلس الأوروبي رفضت من طرف كثير من البلدان الأوروبية تحت ذريعة أنها غير معروفة أو غير واضحة أو أنها غير نافعة في بلدانهم.

النموذج الفرنسي:

على العكس من ذلك، كان من دواعي التفكير الأخلاقي العميق في التطبيقات العلمية البيولوجية والطبية في فرنسا، كتقنية الإخصاب الاصطناعي، سنة 1982مو ضع الخطوط العامة، لسيْرةٍ أخلاقية مطابقة للتقاليد الفرنسية في مجال حقوق الإنسان. وعلى إثر ذلك ، وفي سنة 1988م، يوضح تقرير مجلس الدولة القواعد القانونية في مجال التجريب على الإنسان، استعمال أعضاء الإنسان، الإخصاب الصناعي، التشخيص القبولادي، الجنين الإنساني. وكون التطور العلمي أكثر سرعة من القانون فإننا نجد هذا التقرير يغض الطرف عن بعض القضايا وغير متأكد من بعض الآخر، لكنه يحصي جميع المسائل المطروحة، وفي الوقت نفسه يتصور مشروع قانون في هذا المجال. تعتبر فرنسا في هذا المجال هي الدولة الرائدة، والأولى في سن القوانين التي تنضم استعمالات التقنية البيولوجية و الطبية

وقد أتفق أعضاء البرلمان على ثلاثة نصوص: الأول من تقديم (وزير العدل الفرنسي)، يهتم باحترام الجسم الإنساني. الثاني من وضع (وزير الصحة) يهتم بمكونات وعناصر الجسم الإنساني، ابتداء من الإخصاب الاصطناعي إلى التشخيص المبكر، وغيره. أما النص الثالث من تقديم (وزير التعليم العالي) يهتم بآليات تنظيم القطاع الصحي، وحفظ أسرار الأفراد أثناء العلاج.من أهم ما جاء في هذل الشأن: العنوان الأول الذي يستعمل كمرجع أساسي << القانون يضمن أولويّة La primauté الفرد، يمنع كل مس بكرامة dignité هذا الأخير ويضمن احترام الإنسان ابتداء من بداية حياته>> [131]

فاستعمال الجنين لأغراض البحث العلمي أو التجريب عليه ممنوع قانونا. وقد تم على هذا الأساس تشكيل: لجنة استشارية وطنية للأخلاقيات في مجال علوم الحياة والصحة (*)CCNE. بهذا تكون فرنسا أول بلد يمتلك القوانين (الشرائع) الكاملة الرسمية في مجال الأخلاق البيولوجية والطبية البيوإطيقا، بعيدا عن الاعتبارات الدينية. هذه القرارات وغيرها مما أتفق عليها، يستغلها الفيلسوف **داغوني** لتبرير موقفه الرافض لهذه الهيئات، هذا ما نتبينه من مواقفه بخصوص البيوإطيقا التي سأعمل على مناقشتها.

---

131 Mattei jean François, bioéthique : progrès biomédical et législation, le model français, encyclopédie universalis, Version 6.

(*) (CCNE), comité consultatif national d'éthique "pour les sciences de la vie et de la santé".

الفصل الثاني

الفصـــــل الثاني

فلسفة الطب عند فرانسوا داغوني

1 - موقفه من تاريخ الفلسفة

ا) التقسيم التاريخي للتفكير الفلسفي
ب) وظيفة الفلسفة اليوم
ج) فلسفة داغوني

2 - الأسس المعرفية لفلسفة الطب عند داغوني

ا) مفهوم الإبستمولوجيا
ب) التناول الإبستمولوجي للطب:
ج) التمييز بين الطب والبيولوجيا
د) موقف داغوني من الفيزيولوجيا

3 - موضوع الطب ومنهجه

ا) الطب بين العلم والفن
ب) موضوع الطب (المرض)
ج) الطب كمعطى تجريبي فريد من نوعه

الفصـــــل الثاني :

فلسفة الطب عند فرانسوا داغوني

1 ــ موقفه من تاريخ الفلسفة:

من الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن ونحن نطلع على التوجهات التي تتصف بها دراسات هذا الفيلسوف. ما هي الأسباب والدواعي التي تقف وراء تحول عالم مختص في الطب إلى فيلسوف وإلى إبستمولوجي؟ لا شك أن هناك داعيا قويا وراء هذا التحول، خاصة إذا علمنا أن الأمر لا يقتصر على هذا الفيلسوف فحسب، بل إن الظاهرة تعم الكثير من الأطباء، وكثيرا من العلماء في التخصصات الأخرى. والملاحظ هو أن الفترة التاريخية التي حدث فيها هذا التحول بشكل يلفت الانتباه، تمتد من نهاية القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا. وهنا يطرح السؤال نفسه، ما هي الأسباب التي دفعت العلماء بشكل عام والأطباء بشكل خاص إلى اتخاذ هذا المنحى في بحوثهم؟ وما هي مشروعية هذا التوجه الجديد؟ حتى نجيب على هذه الأسئلة، وبالضبط ما يخص الفيلسوف **داغوني**، يجدر بنا عرض موقفه من الفلسفة أولاً لأنه فيلسوف، وطبيب وهذه الصفة الأخيرة تؤثر من دون شك على موقفه من الفلسفة. ثم كونه إبستمولوجيا، علينا أن نبرر هذا الاسم، ونحدد موضوع الدراسة الإبستمولوجية، ومن دون شك سيكون الأمر متعلقا بتخصصه العلمي وهو الطب. هل استطاع إقامة ابستمولوجية خاصة بالطب متميزة عن تلك الخاصة بالبيولوجيا؟ وما مدى قابلية الطب للتناول الإبستمولوجي؟ إن التطرق لمواقف الفيلسوف من الفلسفة له ما يبرره من الناحية المنهجية، ذلك أن نظرته للطبيعة وللكائن الحي، ومنه موقفه من التقنيات الطبية، متوقفة بشكل واضح على ذلك.

ا) التقسيم التاريخي للتفكير الفلسفي:

في كتابه "الفلاسفة الكبار وفلسفتهم تاريخ متقلب وشرس" Les grands philosophes et leur philosophie. Une histoire mouvementée et belliqueuse. يعرض الفيلسوف **داغوني** مقاربة خاصة بتاريخ الفلسفة وذلك من خلال تناول عشرين فيلسوفا، وجوهر فلسفتهم، مصحوبة بنظرة نقدية لاذعة ولهجة ثورية مقصودة للمساعي المألوفة، ولمناهج التفكير في هذا المجال،

أي تاريخ الفلسفة. وقد جعل محتوى النص، مجالا لتطبيق المبادئ الإبستمولوجية. في هذا الكتاب، لا يخفي **داغوني** مواقفه الشخصية التحفظية بوضوح اتجاه تاريخ الفلسفة، ونظرته النقدية لكل محاولة ترمي إلى تجميع الأعمال أو الاهتمام بتحديث التفكير القديم. وفي هذا الصدد يقول:<< علينا أن نحذر ونحتاط من التاريخ الذي يحاول إظهار الفلسفات بمظهر جديد وإدراك مجمل ما هو حديث في إطار ما هو قديم مجدد. قراءة مثل هذه لا يمكن أن تكون إلا مضللة، فهي لا تدلنا لا على الحاضر ولا على الماضي.>>[132] وبالتالي يفضل الفيلسوف، بكل وضوح نوعا من تاريخ الفلسفة النقي الصافي، الذي لا يحتفظ إلا بالحوادث الأساسية والانشقاقات أو كل ما يمثل قطيعة هامة ضرورية. بهذا يكون الفيلسوف **داغوني** ضد مشروع الترقية، وضد حيرة الدقة النهائية. وبالتالي يعرض الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها تاريخ الفلسفة. يشبه موقف **داغوني** من تاريخ الفلسفة، موقف أستاذه و صديقه فيلسوف العلم **غاستون باشلار** Gaston Bachelard (1884-1962م). الذي يرى بأننا لا نستطيع امتلاك ناصية العقل العلمي طالما أننا غير متأكدين في كل لحظات الحياة الفكرية من إعادة بناء معرفة بكاملها. ولذا ينبغي طرح مسألة المعرفة العلمية بعبارات العقبات (العقبة المعلومية الإبستيمولوجية).[133] لأن في نظر **باشلار** هناك عقبات على رجل العلم أن يبدأ بها لتحرير عقله العلمي. لأنها أسباب الركود والجمود و النكوص وهي خمسة عقبات إبستيمولوجية، والتي تعد في نظره قيما باطلة Fausses valeurs وهي :

ــ عقبة الاختبار الأول: لا يمكن للاختبار الأول أو ما يسمى بالملاحظة الأولية – في أي حال من الأحوال - أن يكون سندا موثوقا. فالمعارف الأولية هشة، لا مناص إذن للعقل العلمي من أن يتكوّن بمواجهة الطبيعة، بمواجهة ما يكون فينا وخارجنا، بمثابة المحفّز والموجّه للطبيعة. لا بد للعقل العلمي من أن يكون وهو يرمم ذاته، ويقاوم الإنجذاب نحو الطبيعة.[134]

ــ العقبة الثانية هي عقيدة العام الباطلة: أو محاولة التعميم على أساس المظهر، ليس هناك شيء في نظر **باشلار** أوقف عجلة تقدم المعرفة العلمية سوى عقيدة العام، التي سادة منذ عهد أرسطو

---

132 Arnaud Desjardin, compte-rendu, François Dagognet, les grands philosophes et leurs philosophie. Une Histoire Mouvementeé et Belliqueuse, Les empecheurs de ponser en rond, Paris, 2002, p. 10.
-http://www.ac-amiens.fr/pedagogie/philosophie/lecture/dagognet06/01/2006
"Méfions nous encore plus de l'histoire qui s'emploie à rajeunir les philosophies et à apercevoir les esquisses de l'actuel dans une ancienneté qui serait de ce fais même renouvelée et modernisée. Une telle lecture ne peut que tromper : elle ne nous donne ni présent, ni passé". P10

133 غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة، خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1981م.، ص. 13.

134 المرجع نفسه، ص. 21.

حتى باكون، فالعلم بالعام هو بإستمرار نكسة ووقف للتجريبية المبدعة. ثمة متعة فكرية خطيرة في التعميم السريع والبسيط، فلا بد من النظر في كل إغراءات هذه السهولة، وبهذا الشرط نصل إلى نظرية سليمة في التجريد. على الفكر أن يتخلى على النزعة التجريبية المباشرة L'empirisme Immédiat [135]

ـــ العقبة الثالثة العقبة اللفظية أو التوسع المفرط في الصور المألوفة: أن تشكل صورة واحدة، وحتى كلمة واحدة، التفسير برمته، هي عادات لفظية تمثل عقبات أمام الفكر العلمي. ويطلق **باشلار** على هذه العقبة اسم الإسفنجة، للتعبير عن ذلك الوهم من أكبر أوهام التجريبية الساذجة. والإسفنجة كما هو معلوم بخصائصها، التجميع والتشابك. فالتفسير الزائف، بواسطة كلمة شارحة أو تعريف سابق، يشكل عقبة أمام الرؤية المجردة والصافية للمسائل الفعلية.[136]

ـــ العقبة المعرفة الواحدية التجريبية: هي الرؤية العامة للعالم، بالإستناد إلى مبدأ عام في الطبيعة. أو هي التعميمات بالمفهوم الواحد أو الطابع الأحادي للوحدة التفسيرية أو الفكرة التفلسفية التي تفسر العالم بمبدأ واحد، وهي في الواقع و في كل الأحوال عقبات أمام الفكر العلمي. إن كل فكر غير علمي كما يعتقد **باشلار** هو فكر محدد من أعلى. يقدم مثالا على كتاب **ألكومت دي ترسان** 1786م هذا يدعي تفسير كل ظواهر الكون بفعل السائل الكهربائي. وكل توازن من أصل كهربائي. [137]

ـــ العقبة الجوهرانية: هي عقبة متعددة الأشكال، فهي متكونة من تجمع الحدسيات الأشد تشتتا وتعارضا، فالعقل القبل العلمي يصب كل المعارف على موضوع يكون له الدور وحده، دون الاهتمام بمراتب الأدوار التجريبية. وهي عقبة الفلسفة السهلة، التي تعتمد على تفسير الخصائص عن طريق الجوهر، فالجوهرية Le substantialisme (مذهب من يقول بوجود الجوهر، أعني الشيء القائم بنفسه وهي ضد الظواهرية Phénoménisme لا تحل إلا المشكلات اللفظية الزائفة.[138]

لا بد أن يكون الفيلسوف **داغوني** قد أخذ عن صديقه وأستاذه هذه الطريقة في التعامل مع تاريخ الفلسفة، وحتى يتسنى له توجيه مشروعه، والمتمثل في نقده للفلسفات القديمة التي تقوم على التصور الثنائي(الثنوي) Le Dualisme(اعتقاد أن الشيء مشتمل على مبدأين مستقلين لا ينحل أحدهما إلى الآخر). ووضع تصوره الجديد للفلسفة، الذي يقوم على التصور الواحدي أو الأحديّة Le Monisme. يقال عن كل نسق فلسفي يعتبر مجمل الأشياء كأنها قابلة للخفض إلى

---

135 غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ص. 47.

136 المرجع نفسه، ص. ص. 61. 62.

137 المرجع نفسه، ص. ص. 69-77.

138 المرجع نفسه، ص. 79.

الوحدة: سواء من حيث جوهرها أم من حيث قوانينها(المنطقية والطبيعية) التي تدار بها، أم من الناحية الأخلاقية أخيرا.

وهي كلمة من إبتكار **وولف** Wolf Christian von (1679-1754م)، والذي طبقها على المذهب الأنطلوجي الذي يرجع الأشياء كلها إلى المادة أو إلى الروح.

أما المعنى من الزاوية العلمية، الفلسفية والأخلاقية معا، نجده في مذهب الفيلسوف الألماني **هايكل** Haeckel Ernst (1834-1919م). الذي اشتغل بالفلسفة العلمية، كما حارب الدين، يقول:<< أين يبدأ الدين ينتهي العلم>>،[139]وقد وضع الوحديّة(الواحدية) كمذهب علمي مؤسس على قانون حفظ المادة (المادة والطاقة)، متزعم المادية العلمية في ألمانيا. سعى إلى تفسير الكون بواسطة العلم. وقد اختصر الوحديّة في النقاط التالية. << وحدة العالم، بلا نقيضة بين الروح والمادة، ماهيّة الله والعالم الذي لم يخلق، بل تطور وفقا لقوانين أزلية، نفي قوة حيوية مستقلة عن القوى الفيزيائية والكيميائية، فناء النفس، رفض التعارض المقام من قبل المسيحية بين غايات الجسم وغايات الروح، فخامة الطبيعة: العقلانية، الدين، العلم، والخير والجمال.>>[140]

اعتمادا على هذا التصور، يقترحُ علينا الفيلسوف **داغوني** في أول الأمر تقطيع تاريخ الفلسفة إلى ثلاث مراحل واضحة: القدامى: **أفلاطون، أرسطو**، الأبيقوريين Epicuriens ، الرواقيين Stoïciens. المدرسيين: ابتداء من ديكارت إلى كانت. المعاصرين: ابتداء من **هيغل** إلى **سارتر**. Jean- paul Sartre (1905- 1980م).

أما **المرحلة القديمة** بالنسبة للفيلسوف **داغوني** فهي تمثل العاصفة الأولى وتبدأ مع أفلاطون الذي عمل على عزل الفكرة أو المثال، وبالتالي فصلها عن المحسوس أو الملموس، فهو بهذا مائع لأنه غير ثابت.[141] كل الدراسات الموجهة لكتاب **أفلاطون** القديم " الجمهورية " تؤكد ذلك الفصل الجذري بين الفكري والحسي، وهذا يوضح استعمال الفلسفة الإغريقية فيما بعد الأفلاطونية، لمجموعة كبيرة من المصطلحات التي تعمل على الحد من هذا التمييز(بين الفكري والحسي). وجمع ما كان متفرقا.

وبهذا يؤكد **داغوني** على أهمية **أرسطو** وفلسفته المضادة للأفلاطونية من خلال كتابه (ما بعد الطبيعة)، والتدليل على الواقع من خلال قوله بالمادة والصور والتي يعتبرها ردا من **أرسطو** على **أفلاطون** وتميُّز أفلاطوني واضح في فلسفته لكن في قالب واقعي.

---

139 Brossolet Jacqueline, Haeckel Ernst, encyclopédie universalis, Version 6

140 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج. 2، ص. ص. 831-833.

141 Arnaud Desjardin, François Dagognet,les grands philosophes et leur philosophie. p.13.

- http://www.ac-amiens.fr/pedagogie/philosophie/lecture/dagognet06/01/2006

تظهر الرغبة أكثر في إلغاء هذه النظرة الأفلاطونية الثنائية (المادة والصورة) لدى السفسطائيين Sophistes، ثم الأبيقوريين Epicuristes الذين أنهوا المهمة، بنظرتهم الحسية في مجال المعرفة، والنفعية في مجال الأخلاق. وهو جمع بين الحسي والمادي، إلى درجة يكون الروحي فيها مبعدا تماما عن مجال الفلسفة. لأن كل شيء مادي. وبهذا تنتهي الفلسفة القديمة بعودة أساسها الأول (المؤسس).

يعتقد **داغوني** أن النماذج الثلاثة التي تم تحديدها متميزة كل واحدة عن الأخرى بصفة واضحة، ومن غير الممكن مقارنة إحدى الفترات الثلاثة للميتافيزيقا بأخرى. وفي النهاية تتنكر لبعضها البعض، فالمهم بالنسبة لأي فيلسوف، يتمثل في التميز عن سابقيه وفي تجاوزهم، ومحاولة إلغاء منافسيه. إننا في كل مرحلة نتطلع إلى أفق جديد فكل فلسفة في نظره تمثل مؤسسة ترمي إلى الإطاحة بالمذاهب الأخرى الداخلية.

فتاريخ المذاهب الفلسفية لا يكون له معنى إلا في إطار المنافسة، والخصومة والصراع. يعتقد أن تاريخ المذاهب الفلسفية أو الفلسفة بشكل عام ليست هيكلا، أو معبدا أو حتى ورشة أو معمل، ولكنه ميدان حرب.[142]

لكن من جهة أخرى وأخيرا، تستحق هذه الفلسفات في نظر **داغوني** تقريب بعضها ببعض، فبالرغم من أن لكل طريقتها فهي تشترك في فكرة رئيسية. **وهي إحترام وإجلال الطبيعة**. كل واحد منهم يؤمن بذلك. بالنسبة لأرسطو أو السفسطائيين أو الأبيقوريين يفقد المعقول الواضح، قيمته أمام المادة التي تصبح شيئا فشيئا أكثر أهمية.

من الجدير بالإشارة في هذا الصدد أن **داغوني** من الفلاسفة الذين يدعون إلى تسخير الطبيعة للإنسان وليس العكس ويقول في هذا الخصوص:<< إن إخضاع وتطويع الإنسان للطبيعة هو أسوأ استلاب وأقبح عبودية.>>[143] ويشير هنا إلى ما كانت تفرضه وضعية العلوم البيولوجية المتطورة، من احترام للحياة وبالتالي احترام الطبيعة، وطبعا كان يؤثر هذا على المواقف من التقنيات العلمية والطبية بشكل خاص، والمتمثل في معارضتها. فالطبيعة في نظره كانت تفرض نفسها على الطب.[144]

المرحلة الثانية تمثل القطيعة بين الفيلسوف الفرنسي، **رينيه ديكارت** René Descartes (1596-1650م) والقديم أي التفكير الفلسفي اليوناني، وهذا تعبير على أن ديكارت من المجددين. إلا أنه أعاد المأساة بشكل آخر، ذلك أنه باسم الأفكار الواضحة يكون قد فرق الكل: بيـــن النفس

---

142 Robert Maggiori, Aquoi sert La Philosophie, http://www.bpi.fr,rubrique. 25/05/2006 , p.18.

143 Rojer-pol droit, les grands entretiens du monde, Penser la philosophie, tome 2, p, 22.

144 François Dagognet, Questions Interdites, Journal de L'humanité, Rubrique Culture, édition du 13 Mai 2002

- http ://www.humanite.presse.fr/journal/rubriques/4/cultures 22/12/2006

والبدن ويتضح ذلك من خلال المبدأ الأول لفلسفته " أنا أفكر إذن أنا موجود" وبالتالي يكون في اعتقاد **ديكارت** حسب قوله:<< أن الأنية، أي "النفس" التي أنا بها، هي متمايزة تمام التمايز عن الجسم.>>[145] كما فرق بين الله والكون، من خلال اعتقاده أنه مادام ليس تام الكمال، فهذا يفيد تفكيره في شيء تام الكمال وهو الله، وتميزه عن كل الموجودات التي به تقوم، يظهر ذلك من خلال قوله:<< ولكن إذا كان في العالَم بعض الأجسام، أو بعض العقول، أو طبائع أخرى، لم تكن تامة الكمال، فإن وجودها كان واجبا أن يعتمد على قدرته، بحيث أنها جميعا لم تكن لتقدر على أن تقوم بدونه لحظة واحدة.>>[146] ويكون بذلك قد فرق بين التفكير والديمومة. ففي الوقت الذي كان عليه أن يضع الفكرة في أعلى أو خارج عالمنا، عمل **ديكارت** على إعطاء السلطة "للكوجيتو" الذي يحمل في طياته رسوم الكون. إنها مثالية وعي الذات Idéalisme Réflexif فلكي يتم الكشف عنه ومعرفته، يكفي التوغل في الذات والتفكير جيدا.[147] ولكن بالنسبة لـــ **داغوني** ، قبل أن تهتم الفلسفة بالكوجيتـــو Le Cogito. من الأفضــــل لها أن تهتم أكثـــر بالأشياء أو الموجودات Les Cogitatas . ولِم لا تتخذها كموضوعات للتفكير. فبالنسبة للفيلسوف كل الأشياء والوسائل، مجال تتجسد فيها الأفكار وتتضح. فجهاز الفيزيائي، والتطبيـــقات التقنية، والعمليات الصناعية، الأعمال الفنية، الشعر والقصائد، الرموز اللغوية للتواصل. ناهيك عن المحيط الجغرافي، والطرقات والمباني والمؤسسات والتقاليد وكل الإنجازات العلمية. هذا التنوع في الوجود، له دلالة، إنها حقائق إنسانية. ولذا على الفلسفة في نظر **داغوني** أن تتجه إلى الأشياء وتتوغل فيها، تتأملها سواء مفككة أو خارقة. [148]

إلى هذا الحد يبدو بالنسبة لـــ **داغوني** أن الميتافيزيقا (الفلسفة)، لم تحاول حقيقة قطع صلتها مع التأملات الذاتية Le Mentalisme، ولا قطع صلتها مع الثنائية التي ترافقها دوما وكأنها ظلها.[149]

إن الفلاسفة الذين جاءوا بعد **ديكارت** نقدوا هذه الثنائية، وأعادوا للكون قوى، وبُنية.

- إنه **باروخ سبينوزا** Baruch Spinoza (1632-1677م). الديكارتي الأكثر عداوة للديكارتية.

---

145 رينيه ديكارت، مقالة عن المنهج، المقال الرابع، ترجمة، محمود محمد الخضيري، الطبعة الثالثة،الهيئة المصـــرية العامة للكتاب، مصر، 1985م.، ص. 218.

146 المرجع نفسه، ص. 224.

147 Arnaud Desjardin, François Dagognet, les grands philosophes et leur philosophie. p. 111.

- http://www.ac-amiens.fr/pedagogie/philosophie/lecture/dagognet 06/01/2006

148 François Dagognet, La Raison et les Remèdes, Collection Dito,1964. p. p.2. 3.

149 François Dagognet, faces, surfaces, interfaces, Librairie Philosophique J.Vrin, Paris, 1982, p. 208

على حد تعبير **داغوني**-الذي يحتل مرتبة هامة في نقده للديكارتية. وذلك بجمعه بين عناصر فرّق بينها **ديكارت**. بين الله والطبيعة، بين التفكير والديمومة، الفرد والحي La cité.

ثم تأتي حسية وتجريبية الفيلسوف الإنكليزي **لوك** Locke John (1632-1704م) و**هيوم** Hume David (1711-1776م) وزعيم المذهب الحسي في فرنسا الفيلسوف **كونديلاك** Condillac (1715- 1781م). هؤلاء عكسوا فكرة **ديكارت** عن المعرفة الفطرية. ويرجع الأمر إلى الفيلسوف الألماني **كانط** ، في طرح مسألة إمكانية الجمع بين المذهبين، القبلي (المنطقي الضروري) والإضافي (المستحدث الصِنعي). لكن ينظر **داغوني** إلى حل **كانط** على أنه فشل وإخفاق. فإذا كانت الأشياء خارج الذات، لا تعرف إلا من خلال الشكل الذي تفرضه قدرتنا على المعرفة، إذن علينا أن نعي النومان Noumène، وهذا الأخير غير قابل للمعرفة.

لا يتردد الفيلسوف **داغوني** في اعتبار أن الكانتية التي أحدثت ثورة، نجت من الوقوع في طريق مسدود، التعارض بين العقلانية والتجريبية لكن وقعت حبيسة مذهبها، أي دخلت متاهة لا مخرج منها. لقد جعل **كانط** الأنا أو الكوجيتو متعال. وبقي حبيسه. على حد تعبير **داغوني**.[150]

إذا كانت الفلسفة القديمة حرب انتهت بقلب الحالة الابتدائية في اعتقاد **داغوني**، نفهم من ذلك أن مسألة المرور إلى المعاصرة -بالمعنى التام- غير مطروح، وغير قابل للنقاش Stricto sensu. إذ ليس هناك تواصل بين القديم والحديث والمعاصر، يمكن البحث عنه.

ينبغي اعتبار مسألة القطيعة مع الفلسفة القديمة أمر تم تجاوزه بشكل سريع، حول فكرتين مركزيتين هما:

- من جهة علاقة الإنسان بالطبيعة، حيث أصبح لا يعتمد على الاعتقاد بخضوع الإنسان لها بل بالتحكم فيها.[151] ولقد أشار إلى ذلك **ديكارت** في كتابه (مقالة عن المنهج) من خلال قوله:<< ... هذه الأنظار في علم الطبيعة بينت لي إمكان الوصول إلى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة، وبدلا من هذه الفلسفة النظرية، التي تُعلم في المدارس، فإنه يمكن أن نجد عوضا عنها فلسفة عملية، بها إذا ما عرفنا ما للنار، والماء، والهواء، والكواكـــب، والسماوات وكل الأجرام الأخرى التي تحيط بنا من قوة وأعمال، معرفة متمايزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة، فإننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة في كل المنافع التي تصلح لها، وبذلك نستطيع أن نجعل أنفسنا سادة ومسخِرِين للطبيعة.>>[152]

---

150 Arnaud Desjardin, les grands philosophes et leur philosophie, p.124.
151 Robert Maggiori, Aquoi sert La Philosophie, p. 18.
152 رينيه ديكارت، مقالة عن المنهج، ص. 268.

- تحول الفلسفة إلى علم دقيق وصارم، فلسفة تهتم بالواقع من خلال اهتمامها بالعلم.

يرى الفيلسوف **داغوني** أنه علينا أن لا نفرق بين الروح والجسم. علينا أن ننبذ الثنائية القديمة، التي يؤمن بها من غير شك اليونانيون المدافعون عن التفرقة الهيلومورفية (*) L'hylémorphisme . والحيوية le vitalisme.[153]

المرحلة الثالثة هي المرحلة العصرية دشنها كل من **هيغل** G.W.F. Hegel و**كارل ماركس** Marx Karl (1818-1883م) إنهما في طليعة الجدلية التي نجحت في تزويج العقلي بالواقعي، وتوليدهما معا أو توليد أحدهما من الآخر.[154] لماذا لم يجعل **داغوني** من **هيغل** و**ماركس** آخر فيلسوفين كلاسيكيين؟

يعتقد أن **هيغل** -على وجه الخصوص- لم يضع حدا للمشكلات الفلسفية الحديثة، ولكن جمع كل النظم الفلسفية واقترح نظام النظم. إنه لم يحاول انتقاد أو تحسين البناء الفلسفي السابق. بل استوعبت فلسفته كل الفلسفات. فبجدليته استطاع جمع ما كان متفرقا. إن فلسفته قراءة وإحاطة ومسح لتاريخ الفلسفة إن صح التعبير.

أما **ماركس** فإننا نعيش معه عودة الأساليب القديمة، لأنه يعيد ترميم مذهب قبلي حكم عليه بالاعوجاج. بمعنى آخر أعاد "ماركس" إحياء الجدلية الهيغلية التي تسير مطأطئة الرأس على حد تعبير **داغوني**. في خاتمة كتابه، يعرض علينا **داغوني** ملاحظاته الخاصة بالمرحلة العصرية واعتبار أن:

- كل هذه الفلسفات المعاصرة تشترك في أنها قاومت فكرة أن العلم هو المفتاح الذي يحل مشاكل الإنسان، وبالتالي تحذر من مخاطر التقنية.
- كل هذه الفلسفات تشترك في التفكير في المستقبل، حتي لا يقع العالم الذي نعرفه في مشاكل.
- كل هذه الفلسفات تشترك في رفضها للنظم الفلسفية الجامعة.[155]

من بين هذه المراحل الكبرى الثلاثة، إذن - حتى بالنسبة للذي يولي اهتماما للمرحلتين الأوليين – تعتبر المرحلة الثالثة (المعاصرة) أكثر المراحل تعقيدا، وأهمية. لأنها الفلسفة الوحيدة التي لا ترفض التعامل والتعاون مع ميادين المعرفة الأخرى من علم النفس وعلم اللغة

(*) الهيلومورفية، L'hylémorphisme لفظ مؤلف من " هيلو" و هي الهيولى أو المادة، و "مورفة" و هـــي الصورة. مذهب يفسر الكائنات، حسب تصّور أرسطو و المدرسيين، بلعبة المادة و الصورة.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب، خليل أحمد خليل، المجلد الثاني، منشورات عويـــدات، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2001م.، ص.572.

153 François Dagonet, Rematérialiser: Matières et Matérialismes, Librairie Philosophique J.Vrin, Paris, 1985. p. 245.

154 Robert Maggiori, A quoi sert La Philosophie, p. 15

155 Arnaud Desjardin, les grands philosophes et leur philosophie, p. p.121.122.

وعلم الاقتصاد وغيرها من العلوم. ولعل هذا ما احتفظ به الفيلسوف **داغوني** من معلميه غاستون باشلار و**جورج كانغيلهم** Georges canguilhem (1904- 1995م).(طبيب وفيلسوف فرنسي) وهو أن الفلسفة لا تستطيع أن تتغذى من نفسها. ولكن عليها أن تدخل مدرسة العلوم، وأن تتفتح على المعارف والآداب الأخرى.[156]

ذلك أن الفيلسوف **داغوني** يعتقد أنه لم يكن للفلسفة من خلال تاريخها، إلا دور محدود في هذا المجال. وهذا راجع إلى كون المشكلات والمسائل لم تكن بالقسوة والخطورة، مثلما هي عليه اليوم. حتى أن مشكلة البيئة، مثلا، لم تكن حاضرة ضمن المشكلات الفلسفية مثلما نراها اليوم. فاليوم هناك هجوم على الحياة، على المجتمع، على القيم الأساسية. بالأمس لم يكن للأمر قيمة. أما اليوم فالقضية أصبحت مركزية، أساسية. ثم إن الفيلسوف لم تكن له وظيفة، إلا الاهتمام بجمع المعارف والعلوم. أما اليوم فهو يهتم بتطورها.

حين نجمع الفلاسفة ندرك بسرعة التباين الموجود بينهم. وما هو دور الفلسفة إذن إن لم يكن قراءة العالم الراهن ومحاولة الكشف عما هو غير معطى؟ لذا وجب أن يكون هناك قارئ يكشف عما يخفي هذا العالم. فوظيفة الفلسفة، ليست وظيفة هيرمينوطيقية (تأويل الكتب المقدسة، أو النصوص القديمة). ولا هي دراسة تأثيرات الظواهر الثقافية، على المجتمع والفرد.

فالفلسفة في نظر **داغوني** لا تستطيع أن تتمسك أكثر بوصف الأكوان، أو العوالم كلها. لأن آفاقها الواسعة تفقدها الفائدة والقيمة التي من المفروض أن تكون قد حددتها من قبل عند بدايتها، وإلا انتهت إلى المثالية بالمعنى الاجتماعي للكلمة، فترجع إلى اللاواقعية، أو اللامادية.[157]

يعتقد **داغوني** أن الفلاسفة القدامى هم حبيسوا مذاهبهم. وبالتالي يدْعو الفلاسفة إلى الالتحاق بالمستقبل الذي هو في حركة. ثم يتساءل عن وظيفة الفلسفة إن لم تكن محاولة الفهم الأحسن للعالم والعمل على تغييره.[158] فوظيفتها ثورية، وهي من جهة أخرى الكاشف. ولذا يعتبر البحث صميم العمل الفلسفي، فالفيلسوف الذي يسمي نفسه إبستمولوجيا، غير مرتبط بما يفرزه العلم من نتائـــــج فحسب، بل مرتبط بحركته التطورية (ديناميكيته). والآفاق التي تفتحها كذلك. لأن البحث يتعلق بما سيكون وليس بما هو كائن فقط. ذلك أن هذا الأخير ينتمي إلى مجال السكون والشلل، والبحث غير ساكن، لأنه يشارك فيما سيكون. [159]

---

156 حوار مع داغوني حول كتابه Cent mots pour commencer a philosopher

- http://www. Ethnopsychiatrie.net/actu/dagognet.ht 02/03/2006

157 François Dagognet, La Raison et les Remèdes, p. 2.

158 Robert Damien (Sous la Direction), François Dagognet Médecin Epistémologue Philosophe, une philosophie à l'œuvre, Institut Synthélabo, 1998, p. 25.

159 Robert Maggiori, A quoi sert La Philosophie, p. p. 5-18.

- http://www.bpi.fr,rubrique. 25/05/2006.

هذا ما دفع الفيلسوف **داغوني** إلى معارضة الفلسفة الرومانتيكية Romantisme بشدة، لأن التطور الذي شهدته العلوم في شتى الميادين، وخاصة في مجال علوم المادة الحية، أدى في العصر الحاضر إلى ارتباك حقيقي في لغة الحوار على حد تعبير **راسل**. وقد سبق أن أثار هذا التقدم العلمي رد فعل عنيف تمخض عن الحركة الرومانتيكية، ضد الأضرار التي بدا لهم أن التقدم العلمي يلحقها بالإنسان. فقد بدا لهم أن الأسلوب العلمي يخنــق روح الحرية، والمغامرة التي لا يستغني عنها الفنان.[160]ذلك أن الرومانتكيين يفضلون العيش في خطر. هذا ما دفعهم إلى البحث عن المغامرات بدلا من السعي إلى البحث عن الأمان، وقد احتقروا الراحة والسلامة، على أساس أنها تحط من قدر الإنسان. ورأوا أن الحياة معرضة للخطر هي الأسمى، وهكذا انبثقت الفكرة " المصطبغة " بالصبغة المثالية. فكرة الفلاح الفقير الذي يحيا حياة شظف من جهده الذي يبذله في قطعة أرضه الصغيرة، في مقابل ذلك أن يعيش حرا، و يظل بمنأى عن فساد حضارة المدن. لقد كانوا يولون اهتماما وقيمة خاصة للاحتفاظ بالصلة الوثيقة بالطبيعة.[161]وهو أمر يعارضه الفيلسوف ويعتبره حط من قيمة الإنسان، وهي برأيه فلسفة تدعو إلى الخمول ولا تعبر عن الواقع ولا عن آفاق الإنسان.

ب) وظيفة الفلسفة اليوم:

من خلال تحليله لأهم مراحل الفكر الفلسفي عبر التاريخ، يصل **داغوني** إلى بيان وظيفة الفلسفة اليوم وعلاقتها بالعلوم بشكل عام وعلم البيولوجيا على وجه الخصوص. وهي طريقة أراد بها إثبات ضرورة توجيه البحوث الفلسفية إلى العناية بالواقع أكثر، والابتعاد عن الميتافيزيقا. وهنالك تجد الفلسفة قيمتها. وكون العلِم لا يلتفت كثيرًا إلى ماضيه فهو لا يفكر في ذاته. لذا اضطلعت الفلسفة بهذه المهمة وهي التفكير في ذات العلم، في منهجه، في منطقه وفي خصائص المعرفة العلمية، شروطها، طبائع تقدمها، كيفياتها وعواملها. إن الفلسفة بهذا هي كذلك مسؤولة عن تاريخ العلم ووضعيته، ومحاولة فهم ظاهرة العلم فهما أعمق. و ما دامت كذلك فإن فلسفة العلم في هذه الحالة هي المعبّر الرسمي والشرعي من دون منازع.[162]

لقد كانت الفلسفة من قبل، أي قديما تدير ظهرها لتاريخ العلم ولعل السبب الرئيسي في عدم الاهتمام به، هو العقلانية التي ترى الحقيقة واضحة يمكن للإنسان من أن يدركها. وأن يميزها عن الباطل. فالعقلانية اتجاه تنويري يثق في الإنسان ثقة عمياء ويرفع الوصاية الملقاة عليه لأنه الكائن العاقل، كما أنه يمتلك الحواس، وهي الوسائل التي تمكنه من إدراك الحقيقة واكتساب

---

160 برتراند رسل، حكمة الغرب، برتراند رسل، حكمة الغرب، ج. 2، ص. 193.

161 يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص. 109.

162 يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص. ص. 10. 11 .

المعرفة. **فديكارت**، مثلا رفع الوصاية عن الإنسان وذلك بالقول بالثقة في العقل والله. و**فرنسيس بيكون** Bacon Franciss (1561-1626م) رفع الوصاية عن الإنسان وذلك عن طريق الثقة في الحواس وفي الطبيعة (أب التجريبية).[163]

في اعتقاد الفيلسوف، أن إعادة تجسيد تاريخ الفلسفة، هو من الوظائف المهمة التي ينبغي على الفيلسوف العناية بها. وذلك بالالتفات إلى المهم من الفلسفة ومن مذاهبها. وفحص النصوص الفلسفية والكشف عن عمل الفيلسوف. الذي من المفروض أن يكون مرتبطا بالمشكلات التي كانت تفرض نفسها في زمانه. يجاهد من أجل الاحتفاظ بالحلول أو من أجل التغيير، مع إدراك مخاطر هذين الحلين. وفي هذا يدعو **داغوني** إلى تربية وتعليم (بيداغوجيا) إعادة "المادية" pédagogie de la rematérialisation.[164]

وعليه يعرض علينا **داغوني** ما ينبغي فعله حتى يتسنى لنا النظر إلى تاريخ الفلسفة نظرة واقعية، مادية:

- أن لا نهمل الكلمات والمصطلحات التي استعملها الفيلسوف، كلغة مرتبطة بزمانه وبثقافته. أي باعتبارها لغة مرتبطة بواقعه. دون أن ننسى من كونّه، أي من ولدّه؟.
- وكون استعدادات الفيلسوف، وقدرته على البرهنة، ليست من إبداعه في كل الأحوال. فلا بد أن يكون قد سار على درب من سبقه، وهذا يتطلب فهمه.
- علينا أن نحسن التقطيع (تقطيع التاريخ). مَنْ الفيلسوف؟ ما هي أهم الحقبات والحوادث التي اصطدم بها؟ تحديد بدقة ما هي المرحلة التي كتب فيها؟ وذلك في علاقة بما كان يتلقاه من اعتراضات.
- أن لا يمر محور المناقشة من غير نظر، وكيف تم التعبير عنه بشكل مجمل (مجمل الكلم)، في شكل حوار كان، أم في شكل دراسة، أم جريدة، أم إقرار أو اعتراف، أم في شكل بيان.
- نركز أكثر على دراسة المخطوطات وطبيعتها. لماذا تم حذف هذا المقطع أو ذاك؟ أو لماذا تم تغييره أو نقله إلى مكان آخر ؟ ويكون النص النهائي في شكل تركيب. علينا أن نصل إلى تمييز التركيب. وندرك الترجيع، والارتباطات. علينا أن نصل إلى عدم فصل الأفكار -حتى المجردة منها – عن الواقع.[165]

ج) **فلسفة داغوني**:

---

163 غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ص. 27 .

164 François Dagonet, Rematérialiser: Matières et Matérialismes, p, 248.

165 François Dagonet, Rematérialiser : Matières et Matérialismes, p. 247.

إن الفيلسوف **داغوني** من الفلاسفة الذين يمتلكون طريقة خاصة في عرض القضايا وتحليلها. فهو يجد متعة في الذهاب بتحليلاته هذه إلى أبعد حدود من المغامرة والمخاطرة. وأقول المخاطرة، ذلك أن ما يعرضه، على حد تعبيره، لا يرضي الجميع دائما. لذا نجده في كتابه: .Faces, Surfaces, Interfaces يضع الخطوط الكبرى لفلسفته، التي أعتبرها جديدة إذا ما قيست بالفلسفات القديمة. من هذه الخطوط والتي ينظر إليها **داغوني** على أنها محور ومركز دراسته. نجد:

ــ صورة الإنسان، والتي يعني بها شكل أو ظاهر الإنسان أو بُنيته. يشكل الكائن الحي وخاصة منه الإنسان صميم فلسفتة، بحيث يضعه في أعلى سلم الكائنات الحية. وخاصة ظاهره أو شكله. يقول **داغوني**:<< لم يكف الجسد عن الحديث، وعلينا أن نستمع إلى لغته.>>[166] Le "corps" ne cesse pas de parler nous tenons à entendre son langage

هكذا ينظر إلى الظاهر والشكل، الذي كان دوما أساسا في النظرة إلى الإنسان لدى كثير من الفلاسفة. ويعطي مثالا عن موقف الفيلسوف **فريدريك نيتشة** Friedrich Nietzsche (1844-1900م) الذي يقول:<< إنزع للأحدب حدبته، فسوف تنزع له روحه.>> Enlève la bosse au bossu, et tu lui enlèves son esprit

إذا أردنا أن نتأكد من ذلك، في نظر **داغوني** فلنسأل الروائيين ، والكُتاب.

هذا يبرر من دون شك ثورته على الفلسفات خاصة منها التي تبني نظرتها على تحليل ما هو باطني أو عميق، وتميزه عما هو ظاهر. يريد **داغوني** مما سبق - وهو يعلم أن هذا خطر -، إعادة الشباب للمذهب الطبيعي القديم الذي يعتبره مُخزٍ،[167] خاصة إذا علمنا أن هذا المذهب يرى بأن الطبيعة هي الوجود كله، وأن لا وجود إلا للطبيعة، ومعنى ذلك أن المذهب الطبيعي يفسر جميع ظواهر الوجود بإرجاعها إلى الطبيعة، ويستبعد كل مؤثر يجاوز حدود الطبيعة ويفارقها. وهذا طبعا يعارض ما يقول به **داغوني** من ناحيتين: الأولى أن الطبيعة لا قيمة لها من غير الإنسان. والثانية أنه لا وجود لشيء طبيعي، بل أن كل شيء مصطنع. وسوف يتضح ذلك بالتفصيل عند الحديث عن موقف **داغوني** من الطبيعة في الفصل الثالث.

ــ المحور الثاني الذي يبني عليه **داغوني** فلسفته، هو السعي إلى عدم التمييز بين مختلف أسس الوظائف، وما دامت دراسة الجواهر أمر سهل (الجسم ومختلف أجزائه)، فعلينا الاعتناء به أملا في استنباط معرفة نفسية.

بالضبط يحاول التوحيد بين العضوي والفكري. وهذا طبعا يترتب على نظرته إلى الكائن الحي المبنية على قراءة ظاهره.[168]

---

166 François Dagognet, faces surfaces interfaces, p. 7.

167 Ibid, p.9.

168 Ibid, p. 10.

ــ الاتجاه الثالث الذي يبني عليه **داغوني** فلسفته، يعتمد على تحليلات "الفيزياء الإحيائية" Biophysique التي تولي اعتبار للسطح أو الظاهر فقط ، دون العمق.

لقد ساد الاعتقاد ولزمن طويل، أن المساحة ما هي إلا غلاف واق، وعازل للعمق ولهذا كان العقل والتفكير دوما منشغلا بمحاولة معرفة هذا السراب وهو العمق على حد تعبير **داغوني**،[169]وهي من الأمور التي انتقدها، واعتبرها مضيعة للوقت.

باختصار شديد، يحاول الفيلسوف أن يفهم الإنسان من خلال المواقف، والوضعيات، وطيّات، وخصوصيات الجسماني (البدن). و لذا يمكن أن نطلق على فلسفته إسم فلسفة الظاهر أو السطح.

لم تبق مواقف الفيلسوف **داغوني** من تاريخ الفلسفة وبعض الفلسفات، سليمة من الإعتراضات وردود فعل بعض الفلاسفة، ففي كتابهAnatomie D'un épistémologue يعرض **داغوني** وبكل موضوعية، هذه الاعتراضات والتي كان على رأسها ملاحظات أستاذه الطبيب والفيلسوف **جورج كانغيلهم** ولهذه الانتقادات ما يبررها من الناحية المنطقية. فموقف الفيلسوف **داغوني** الرافض للفلسفات التي تقوم على النظرة الثنائية، والرافض لمشروع تجديد الفلسفات القديمة. وبشكل عام، رفض كلمة "**مرجع**".

والأهم من كل هذا هو ما جاء في كتابه Faces, Surfaces, Interfaces والمتضمن لمشروع فلسفة جديدة تقوم على رفض العمق، والقول بفلسفة تقوم على البحث في الشكل أو البنيان. ناهيك عن معارضته للفلسفات التي تمجد الحرية والشخصية، وكل من يهتم بالمعنى.

كل هذه الأسباب هي دواعي المحاكمة أو التشريح، الفحص والتحليل Anatomie إن صح التعبير. والتي شكلت افتتاحية الكتاب Anatomie D'un épistémolog ، التي قدمها **كانغيلهم**. ذلك أن هذا الأخير اقترح على مجموعة من الفلاسفة والأطباء والبيولوجيين، عقد يوم دراسيى، حول أعمال **داغوني** وكان تاريخ 14 ماي 1983م هو موعد اللقاء.

وقد اختِيرَ متحف **كلود برنار بسان جوليان** Saint-Julien ، ولم يكن اختيار المكان، أمرا عفويا، بل أن الفيلسوف **كانغلهم** كان يعلم كم تعرض تلميذه إلى أعمال **كلود برنار** بالإنتقاد. وكأنه أراد أن يعطي هذا الأخير فرصة للدفاع عن نفسه.[170]

من أهم المداخلات، مداخلة الأستاذ **فرانسوا غيري** François guery بعنوان إبستيمولوجيا غير فلسفية Une Epistémologie non philosophique? والتي حاول من خلالها بيان أن أعمال الفيلسوف **فرانسو داغوني** الإبستيمولوجية تفتقد إلى عنصر الفلسفة. يرجع هذا في

---

169 Ibid, p. 13.

170 François Dagognet, Anatomie d'un Epistémologue, Librairie Philosophique J.Vrin, Paris, 1984. p. 11.

تصوره إلى غياب ثلاثة معانٍ كاملة غير منقوصة، لا يمكن تصور الفلسفة إلا بها. الأولى هو إتصاف الفلسفة بإنها دائرة المعارف، الثانية تتصف الفلسفة بالمرحلة النقدية، مبنية على بيان وتوظيف الملكات العقلية، وأخيرا، الفلسفة تفكير حول النتائج دون تقييمها.

إعتمادا على هذه المعايير، لا يرى الأستاذ **غيري** في مواقف **داغوني** إلا فلسفة لا هي بالمعنى الأول، لأن الطبيعة الموسوعية في الحقيقة تميز مشروع **داغوني** وليس أعماله. إن فكرة العودة إلى بناء نظم فلسفية، والنظرة الموسوعية هي فكرة قد تتسبب في مشكلة، لأنها جعلت من عمل الفيلسوف **داغوني**، تعسف ضد التحفظات والمواقف النقدية التي تبديها بعض الفلسفات ضد مخاطر التطور العلمي والتقني. وهي كذلك نفي للحق في تفلسف يعيش على معارضة التجاوزات الناتجة عن التطور. ويتساءل **غيري** فيما كانت مراقبة هذا التطور في جميع أشكاله، والتمييز بين الشكل المقبول منه من الشكل المرفوض، خيانة للفلسفة، ونكران لها؟ إن فلسفة **داغوني**، في نظر **غيري** فلسفة بالية، ليست في وقتها.

ولا هي بالمعنى الثاني ولا الثالث، لأنهما مشروطين المعنى الأول، وهذا راجع، إلى عدم بيان القدرات الذهنية، ولا عرض إجمالي للمنتوج.[171]

2 ـــ الأسس المعرفية لفلسفة الطب عند داغوني

إن تحديد الفيلسوف داغوني مهمة الفلسفة اليوم، والمتمثلة في الاهتمام بالواقع وما تنتجه العلوم دفعه إلى السير في هذا الاتجاه، وكونه طبيب، لا شك أن هذا أكبر دافع إلى الإهتمام به وهذا ما يبرر محاولته التأسيس لإبستمولوجيا طبية أو خاصة بالطب، والتي كانت من أهم الموضوعات التي إشتغل بها الفيلسوف ، ولم يكن ذلك من الأمور السهلة خاصة إذا علمنا ما للطب من تقارب ونقاط تقاطع مع كثير من العلوم التجريبية، كالبيولوجيا وفروعها والفيزياء والكيمياء وغيرها. دفعه كل هذا إلى النظر في هذه العلوم، وتمييز الطب عنها تمييزا واضحا، وإثبات أن التقارب بينه وبين هذه العلوم، ليس تقاربا بالجوهر بل بالعرض. فإلى أي مدى تمكن الفيلسوف من إثبات إبستموجيا خاصة بالطب؟

التعرض إلى الحديث عن إبستنمولوجيا محلية تخص الطب والبيولوجيا، يدخل ضمن إطار النظرة الجديدة إلى العلاقة بين العلم والفلسفة. فالطب يعد في الحقيقة، أقرب العلوم إلى الفلسفة، ومنه يمكن للفيلسوف أن يلج إلى مشكلات أنطولوجية، كالمرض والمعاناة المرضية المعيشية.

171 François Dagognet, Anatomie d'un Epistémologue, p. 12.

وإلى مشكلات أخلاقية تتعلق بالممارسة الطبية، قواعدها وحدودها. ثم إلى مشكلات اجتماعية ترتبط بالممارسة البيروقراطية للمؤسسات الطبية.[172]

يعتبر **داغوني** فيلسوفا إبستمولوجيا، هذا الاسم لا يطلق إلا على فيلسوف علم. و هنا أضطرُ إلى إثبات أنه كذلك، وأن هناك علم اهتم به أكثر وهو موضوع دراسته الفلسفية وهو الطب، ومن جهة أخرى إثبات أن هذا العلم قابل للتناول الإبستمولوجي. وقبل هذا وذاك نتساءل عن معنى الإبستمولوجيا Epistémologie والشروط التي ينبغي أن يتصف بها أي علم من العلوم حتى يكون موضوعا قابل للتفلسف فيه. قبل أن يكون **داغوني** فيلسوفا كان طبيبا. وهذا يبرر من دون شك اهتمامه أكثر بالطب كموضوع لفلسفته. وبهذا أحاول أن أجيب عن أهم سؤال في هذا الصدد وهو: هل يمكن تناول الطب تناولا إبستمولوجيا؟ هل يمكن الحديث عن إبستيمولوجيا خاصة بالطب، مثلما هو معروف في كثير من العلوم؟ وهل للفيلسوف نظرة إبستمولوجية لهذا العلم؟

هذه التساؤلات لها ما يبررها من الناحية التاريخية، ذلك أنه نظرا لأهمية البيولوجيا وسعة مجالاتها، وكذا اتصالها بكثير من العلوم الشيء الذي جعل من الطب في نظر البعض مجرد حلقة في سلسلة البيولوجيا. وهذا ما لم يُرض فيلسوفنا، خاصة إذا علمنا قيمة الطب في نظره. ولعل هذا يرجع إلى كونه طبيبا.

لقد اعتمدت على أهم كتاب له يتناول فيه هذا الموضوع وهو كتاب الفلسفة البيولوجية La philosophie Biologique [173] أين يصف الطب بالوظيفة الإنسانية ويصف الطبيب بالإنساني.

ا) مفهوم الإبستمولوجيا:

الإبستمولوجيا أو المعلوميّة، Epistémologie هذه الكلمة تدل على فلسفة العلوم، لكن بمعنى أدقّ. فهي ليست حقّا دراسة المناهج العلميّة، التي هي موضوع الطرائقية وتنتمي إلى المنطق. كما أنّها ليست توليفا أو إرهاصا ظنيّا بالقوانين العلميّة. فالمعلوميّة هي الدَّرس النَّقدي لمبادئ مختلف العلوم وفرضيّاتها و نتائجها، الرامي إلى تحديد أصلها المنطقي، قيمتها ومداها الموضوعي. ولذا فالمعلوميّة متميزة عن نظرية المعرفة، بالرغم من أنها مدخلاً لها ومساعدها، فهي تمتاز من نظرية المعرفة، بأنها تدرس المعرفة بالتفصيل وبشكل بعديّ، في مختلف العلوم

---

172 رشيد دحدوح، تاريخ و فلسفة العلوم البيولوجية و الطبية عند جورج كانغيلهم، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، قسم الفلسفة، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، 2006م.، ص.3.

173 François Dagognet, philosophie biologique, Presses universitaires de France, Paris, 2ème édition. 1962.

والأغراض أكثر مما تدرسها على صعيد وحدة الفكر.[174] ولكن اصطلاح الإبستمولوجيا في الأنكليزية مرادف لاصطلاح نظرية المعرفة، أما في اللغة الفرنسية، فهو مختلف عنه، لأن معظم الفلاسفة الفرنسيين لا يطلقونه إلاّ على فلسفة العلوم وتاريخها الفلسفي.[175]بأي معنى من معنيي الإبستمولوجيا (نظرية المعرفة – فلسفة العلوم) يمكن الحديث عن ابستمولوجيا طبية؟ يستعمل **دومنيك لوكور**(*) Dominique Lecourt في كتابه معجم التفكير الطبي Dictionnaire de la pensée médicale عبارة الإبستمولوجيا الطبية.[176] لاشك أن هذا دليل على وجود علاقة بين الإبستمولوجيا و الطب، وذلك إذا تمكنا من الإجابة عن أحد السؤالين على الأقل. **الأول**: هل هناك شيء يمكن أن يقدمه الطب للإبستمولوجيا - بمعناها الأول (نظرية المعرفة)- أي للنظرية العامة لقدرتنا المعرفية؟ إذا كان الجواب بنعم، لا يكون الطب في هذه الحالة مجرد موضوع تفكير بالنسبة للفلسفة، بل يمكن أن يكون من حقه وبنفسه لعب دورا فلسفيا، وذلك بالتداخل مع أهم جانب في النشاط الفلسفي وهو نظرية المعرفة.

هذه الصورة الأولى للعلاقة بين الإبستمولوجيا والطب تستحق لقب "الإبستمولوجيا الطبية " Epistémologie Médicale حتى إن كانت هذه العبارة غير مستعملة بشكل واسع، فهي تعني إبستمولوجيا مكونة من وسائل مستعارة من الطب. وبهذا المفهوم، يمكن مقارنتها بالإبستمولوجيا النفسية، أو البيولوجية. ومنه يمكن للعلوم التجريبية كعلم الفيزياء أو البيولوجيا أو فيما بعد علوم الطب المشاركة في النشاط الفلسفي والمتمثل في بيان أسس وحدود القدرة على المعرفة.

أما **السؤال الثاني**: هل يثير الطب تساؤلات إبستمولوجية بالمعنى الثاني " فلسفة العلوم " أي بالمعنى الذي يستدعي فيه أي نشاط علمي إلى تفكير فلسفي حول أهدافه، مناهجه، نظرياته، مفاهيمه، آفاقه و طموحاته المعرفية ؟ وهذا يثير مشكلة. لأننا لو اعتبرنا الطب علما، فهو في هذه الحالة موضوع تساؤل فلسفي في فلسفة العلوم. و لكن الأمر يختلف لو اعتبرناه فنا. في هذه الحالة لا يمكن أن يشكل موضوع تفكير فلسفي، إضافة إلى ذلك، إذا اعتبرنا هدف الطب العلاج والتخفيف من الأمراض، دون أهداف معرفية نظرية. هنا يصبح من الصعوبة بمكان الحديث عن إبستمولوجيا الطب. لأن المعرفة النظرية في هذه الوضعية تصبح هدفا ثانويا.[177]

ب) التناول الإبستمولوجي للطب:

---

174 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، المجلد الأول، ص. 356.

175 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 1، ص. 33.

(*) دومنيك لوكور Dominique Lecourt ، أستاذ بجامعة دونيه ديدرو، Denis Diderot باريس، فرنسا

176 Dominique Lecourt, (Sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, p. 430.

177 Dominique Lecourt, (Sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, p. 431.

لماذا يعتبر الطب موضوعا إبستمولوجيا؟

فإذا انطلقنا من اعتقاد **كانط** في السؤال ما الإنسان؟ و الذي يلخص التساؤلات الثلاثة التي تمثل مجالات الفلسفة هذه التساؤلات هي:

ــ ماذا أستطيع أن أعرف؟ Que puis-je Savoir?

ــ ماذا يجب أن أفعل ؟ Que dois-je Faire ?

ــ ماذا أستطيع أن آمل؟ Que puis-je Espérer?

وإذا كان للفلسفة المعاصرة في ذاتها تاريخ(أي أصل) فكيف يمكن تصور أن أقدم وأخصب علم من علوم الإنسان مثل الطب لم يؤثر على الفلسفة في عمقها؟

وكيف يمكن له أن يبقى على هامش المناقشات الأساسية في الأبستمولوجيا أو في نظرية المعرفة العامة بالمعنى العام؟ يستدل **لوكور** بموقف الطبيب و الفيلسوف الفرنسي **جان جورج كبانيس** Cabanis Pierre Jean-Georges (1757-1807م) في مقالة بعنوان"درجة اليقين في الطب " Du degré de la certitude en médecine 1788م. حيث يذكر ما نصه:<< حين لا يكون للطب في الأمراض التي يسكنها و يشفيها، هدف نفعيّ بيّن، يبقى بحاجة إلى اهتمام يكون أساسا في فلسفة عقلية جيدة. فالطب هو ما وحده يُمَكننا من معرفة قوانين هذه الآلة الحية. ومعرفة النشاط العادي لإدراكنا في حالة الصحة أو التغيرات التي تتأثر بها هذه القدرة في حالة المرض. إن الطب يظهر لنا الإنسان في طبيعته الفيزيائية، أين يكون جانبه المعنوي جزءا منه أو وجهه الآخر.>>[178]

من هذا القول يمكن أن نستنتج أن الطب لا يتمتع باليقين والدقة الكاملين، وبالرغم من هذا، يعتقد **كبانيس** أن للطبيب نوعا من الحدس يمكن أن نسميه (الحدس العلمي). فالطبيب الذي يقف أمام سرير المريض، لا يمكنه ألاّ يرتبك داخليا، إنه يرى تارة في ملاحظاته أنها قاصرة، وأن تنبؤاته خاطئة، حتى يهتدي بعدها إلى غريزته التي تحسنت شيئا فشيئا بفعل العادة(أي تجربته المهنية)، أو إلى ذلك الإلهام العلمي.

فبالرغم من خطأ هذا الحدس في كثير من الأحيان إلا أنه يبقى المصدر الوحيد في محاربة الألم.[179]

كُتبت هذه الجمل ليلة الثورة الفرنسية، في الوقت الذي كان فيه الإيديولوجيون يحضرون مشروع لعلم عام للأفكار، وفي الوقت نفسه أين كان مؤرخو العلم، يضعون الطب في طريق العلمية. في القرنين التاسع عشر والعشرين سار الكثير من الأطباء الذين في طريق الفلسفة أي

---

178 Ibid, p, 438.

179 Hee-Jin HAN. Etude Historico-épistémologique du vitalisme Français au18è siècle. Avrile 2004. p.4

- http://www.gteps.net/HeejinHAN.pdf . 25/8/2006

تحولوا إلى فلاسفة، وكثيرا منهم في طريق إبستمولوجية الطب، وآخرون مارسوا نوعا من التفلسف الكلاسيكي، لم يساهموا مثل زملائهم الفلاسفة الفيزيائيين، والفلاسفة الرياضيين، والفلاسفة البيولوجيين، بشكل واضح في النظرية العامة للمعرفة.

يبدو أن الذي جندهم لهذا العمل " أي التفلسف"، هو التساؤل الكانطي الثاني الأخلاقي، ماذا يجب أن أفعل؟ من خلال ما تقدم يمكن القول أن هناك مكانا لإبستيمولوجيا الطب، وهناك مكانا للتساؤلات حول النشاط الطبي[180]باعتباره معرفة علمية عامة؟ هذا ما سأحاول توضيحه لاحقا عند الحديث عن الطب بين العلم والفن.

يمكن أن نلتمس أكثر وبوضوح هذه الإبستمولوجيا، في المذهب الحيوي الفرنسي Le Vitalisme. جاء في موسوعة **اندريه لالاند**(*) André Lalande (1867-1963م) أن المذهب الحيوي، أ) بالمعنى الضيق (الأقدم والأكثر تداولا بالفرنسية): مذهب مدرسة **مونبلييه،** مذهب يرى أن في كل كائن فرد " مبدأً حيوياً " مميّزًا في آن من النفس المفكرة ومن خصائص الجسم الفيزيائية- الكيميائية، ومدبّرًا لظواهر الحياة. ب) أما بالمعنى الواسع، هو كل مذهب يرى أن ظواهر الحياة تتسم بسمات فريدة، تختلف بها اختلافا جذريا عن الظواهر الفيزيائية والكيميائية، وتكشف بذلك عن وجود " قوة حيوية " لا يمكن خفضها إلى قوى المادة الجامدة. [181]

المذهب الحيوي هو في الحقيقة من إبداع مدرسة **مونبلليه** في القرن الثامن عشر.قرن يقول عنه **كبانيس** Cabanis ، ـ وهو الذي ينتمي لهذه المدرسة ـ قرن الفضول العلمي، قرن الملاحظة، لأنه قرن الشك. ففي كل مكان نجد الحذر تجاه الإنسان، كما نجد الإعجاب بتنوع وغنى الطبيعة.

بالنسبة إلى البيولوجيين والأطباء، يبدو الشك الإبستمولوجي بمثابة الخشوع الذي لا بد منه، ريب اتجاه قدراتهم، وهو دلالة على عدم اليقين. في اعتقاد **كبانيس،** يكون الوضع كارثيا إن ادعت العلوم البيولوجية والطبية أنها أدركت الحقيقة أو اليقين، بنفس درجة اليقين في العلوم الفيزيائية و الكيميائية.

---

180 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p, p, **438**,.439

(*) أندريه لالاند Andre Lalande فيلسوف فرنسي اعتنى بالمنطق و انتقد نظرية سبنسر في التطور التي اعتبها مجرد فرض . دافع عن العقل و قدرته على بناء العلم و توجيه الحياة و تدبير السلوك عن طريق الإستقراء و التجريب من أهم مؤلفاته، المعجم الفلسفي، العقل و المعايير، نظرية الإستقراء و التجريب.

181 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، المجلد الثالث، ص**.**1559**.**

إن لكل علم نوعية من الدليل، وللطب على وجه الخصوص غاية وهي اليقين التطبيقي Certitude Pratique أو الواقعي أو الطبيعي وهو الاعتقاد الجازم المتعلق بموضوعات التجربة.[182]

لإبستمولوجية المذهب الحيوي مصدران استلهمت منهما الطريقة التجريبية و التي تميز أصحاب المذهب الحيوي الفرنسي. المنبع الأول: الأبوقراطية Hippocratisme الذي يعتبر أغنى وأعظم مثال لليقظة العلمية في العصر اليوناني، حتى إن تجاوزته الأحداث اليوم، فقد كان باستمرار يستلهم الفكر الحيوي. لفلاسفة "مونبلليه" للحيويين ميل خاص لقراءة مؤلفات "أبوقراط" لمنفعتها الفكرية وهذه بعض مميزاتها:

- التماميّة أو الكلّية العضوانيّة (*) Organiciste (*) Holisme مستخدم في شكل مبدأ الوحدة بين الأعضاء.
- التنوع في وظائف أعضاء الإنسان، والذي يمكن تلخيصه في النظرية البوقراطية حول الأمزجة والطباع.
- الشك الإبستمولوجي تجاه مسألة اليقين أو الوثوقية سواء في الطب أو في العالم الحي،
- التجريبية الطبية نتيجة هذا الموقف الإبستمولوجي المبدئي الذي يقر أولوية الملاحظة.
- الارتباط الضروري بين الطب والفلسفة الذي ينتج التعاون المتبادل.

أما المنبع الثاني: والذي يعتبر أقل قيمة من الأول، يتعلق الأمر بالطريقة أو المنهجية ذات الطبيعة الحسية المعروفة آنذاك بالطريقة التحليلية أو التحليل الذي جاء به **كونдиاك** Condillac (1714-1780م) كونها طريقة عالمية وعامة فقط تحتاج إلى بعض التعديلات قبل تطبيقها في المجالات الواقعية مثل العلوم الطبية والبيولوجية. وقد تعلم الحيويون من طريقة " كونداك" عدم التعصب. وتعرف طريقتهم بالتحليل التأليفي أو التركيب التحليلي Synthèse

---

182 Hee-JinHAN, Etude Historico-épistémologique du vitalisme Français au 18è siècle, p, 5.

(*) العضوانيّة Organicisme في مقابل الأرواحية و الحيويّة، و هو مذهب من يرى " أن الحياة هي حصيلة التنظيم" عند "جاني". وما يمكن فهمه هو إما أنّ الحياة تنجم آليا عن تكوّن الأعضاء وعن لعبتها. وإما بمعنى أنّ كل عضو مناط بخصائص حيوية يتميز بها وحده و هو ما تعتقده عموما مدرسة باريس " مونبلليه" و تسمى العضوانية لأن الحياة لا تقبل الانفصال عن الأعضاء الحية. و في البيولوجيا المعنى الحقيقي للعضوانية هو الدال على مذهب روستان Rostand

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، المجلد الثاني، ص. ص. 919. 920.

(*) التماميّة أو الكليّة Le Holisme نظرية تقول إن الكل هو شيء أكثر من مجموع أجزائه. و هي مفردة نادرة في الفرنسية و لكنها متداولة في الإنجليزية.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، المجلد الثاني، ص.1102.

Analytique طريقة في نفس الوقت واقعية ومجردة، عملية جمع ملاحظات واستخلاص كلٍ مركب، ولذا يعطى للملاحظة الأولوية على أن لا تكون أولية أو في شكل فكرة مسبقة. كما لا تستبعد التجريب على الكائن الحي.[183]

ج) التمييز بين الطب والبيولوجيا:

إن طبيعة الطب، التقنية من جهة، وفكرة إبستمولوجيا خاصة بالطب من جهة ثانية، تثير مسألة العلاقة بين الطب والبيولوجيا، حتى إن سلمنا بأن للطب صورة المعرفة النظرية، فالسؤال المطروح، هل تستحق هذه المعرفة النظرية التي يتصف بها الطب إبستمولوجيا خاصة متميزة عن تلك المتعلقة بالبيولوجيا؟ إن هذه المسألة اتخذت منحى خارقا نظرا للإهتمام الكبير بها. اليوم مع تأسيس الطب، بمعنى آخر هذه المسألة أصبحت تُطرح انطلاقا من اعتبار العلاقة في صورتها الجديدة، أي من خلال الارتباط الضيق للطب - الذي هو في توسع كبير - مع البحث البيولوجي الأساسي. وفي هذه الحالة إما أن تكون العلوم الطبية قد نبعت من هذه الأسس البيولوجية، و منه لا دعوى للحديث عن إبستمولوجيا خاصة بالطب، أو أن الأمر غير ذلك، وهذا معناه أن موضوع الطب الأساسي والمثالي وهو المرض[184] La Maladie ، يفلت من المعقولية العادية للظواهر البيولوجية.

وفي هذه الحالة الثانية علينا أن نعترف بأن هناك استقلالية جوهرية للمعرفة الطبية بالنسبة للمعرفة البيولوجية. بهذا تكون من أولويات إبستمولوجية الطب، تفسير معنى ومشروعية هذه الاستقلالية. ولعل أغلب توجهات هذه الإبستمولوجيا يتضمن، التعريف بمختلف فروع الأمراض، والصحة، المعنوي والمرضي، وبيان ما إذا كانت هذه التفسيرات تنتمي لحقل التأويلات الطبيعية للظواهر البيولوجية.[185]

هناك مسألة أخرى تتعلق باستقلالية الطب عن البيولوجيا، وهي مسألة شبيهة باستقلالية البيولوجيا عن علوم المادة الجامدة (الفيزياء و الكيمياء).

فلو تعلق الأمر بعلاقة علوم المادة الجامدة فيما بينها لكان الأمر سهلا. فمثلا لحساب سقوط المظلة سقوطا حرا، نقوم بتنظيم القوانين المتعلقة بسقوط الجسم مع معلومات عن الارتفاع والثقل وغيرها. لكن هذا لا ينطبق على علوم الحياة في نظر فلاسفة البيولوجيا. ذلك أن مفهوم القانون في البيولوجيا يشكل في حد ذاته مسألة. لأن تفسير أو جمع المعارف البيولوجية لا يتخذ

---

183 Hee-JinHAN, Etude Historico-épistémologique du vitalisme Français au18è siècle, p, 2

184 Dominique Lecourt, (Sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, p. 431

185 Dominique Lecourt, (Sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, p. p. 430.431.

شكل النتائج، إنها تكون على هيئة مخطط سببي يوجه البيولوجيين إلى الكشف عن عمليات آلية، بدلا من القوانين. هذه الآليات تصل أحيانا إلى مستوى أكبر من التعميم حين تصبح شبيهة بالقوانين. مثال ذلك: مفاهيم نقل A R N الرسول إلى A D N ، واعتبار A R N الرسول القوالب التي تتألف أو تتركب عليها البروتينات Polypeptides. وهذه المخططات سببية Schémas Causals تتصف بالتعميم لأنها تنطبق على كل الخلايا المشتركة في عالم الكائن الحي. ولذا فإن التفسير الطبي لا يتميز عن التفسير البيولوجي في أغلب الأحيان وهذا لا يعني أنهما يمثلان شيء واحد.[186]

د) موقف داغوني من الفيسيولوجيا :

إن مسألة التمييز بين الطب والبيولوجيا هي من الأمور التي حاول **داغوني** تحقيقها، لما لها من أهمية في إثبات إبستمولوجية خاصة بالطب متميزة عن تلك الخاصة بالبيولوجيا، وذلك بتحديد موضوعه ومنهجه وأهدافه. ولذا نجده لم يكتف بهذا بل راح يميز بين أهم فروع الطب الباثولوجيا وأهم فروع البيولوجيا الفيزيزلوجيا وقد كان الغرض من هذا التمييز ابعاد تلك الصورة التي تعود البعض عليها وهي ربط الطب بالبيولوجيا.

فرانسوا داغوني واحد من الأطباء الذين تحولوا إلى فلاسفة وإلى إبستمولوجيين. وقد كان تناوله الإبستمولوجي للطب نتيجة لتخصصه في هذا المجال، وقد حاول أن يقيم الحدود بين البيولوجيا بفروعها وبين الطب، وكان القصد من ذلك تصنيف الطب ومحاولة الكشف عن أصوله، وتاريخه، وبالتالي إقامة إبستمولوجيا محلية. مرورا بنقده للفيزيولوجيا. في بداية الأمر كان الإهتمام بالأشكال أو البنى الحية وهو بالنسبة **لداغوني** يمثل **عصر الطفولة**. ومخافة من أن يحول الأمر دون التقدم أو التطور، توصل العلماء إلى كشف الوظائف الحيوية وبالتالي ربط "المعثكلة" البنكرياس بسكر الدّم glycémie وربط الغدة الدرقية بالنمو.

وقد كان هذا **عصر الملاحظة الحسية**، يتميز بسلطة الإنسان، كما تطغى عليها النزعة الذاتية نتيجة المركزية الذاتية ومبدأ الحساسية والتأثر السريع. ثم يأتي **عصر الرشد والعقل**، أين تم فيه الكشف ليس فقط عن الوحدة بين عالم الحياة واللاعضوي بل وكذلك العلة الخفية التي تجمع بين هذه المظاهـــر المتفرقة.

وعليه فإن تاريخ العلم الطبيعي يتقدم بخطى يمكن حصرها في ثلاث مراحل: علم التشريح يفتح المجال. الفزيولوجيا تنشط المورفولوجيا (العلم الذي يهتم بدراسة الشكل الخارجي للكائن الحي)، وتعرض الحالات التي ينبغي على الكيمياء معرفتها أو الانتباه لها. يضع **داغوني**

186 Ibid, p. 432

الكميائي في أعلى هرم فلاسفـــة البيولوجيا ويعتبره بمثابة نبيـــهم. ويقصد هنا الكيمياء الحيوية .La biochimie

<< Le chimiste se présente à nous comme le philosophe de la biologie par excellence et même comme son prophète.>>[187]

ذلك أن الكيمياء الحيوية هي أكثر العلوم التي شهدت من التطور حتى البلوغ. لأن بالنسبة له الفيزيولوجيا توقفت ابتداء من القرن التاسع عشر، وبقيت تعمل في إطار الوصف، إنها من دون شك نبهتنا وأنقذتنا من التصورات الساذجة للظواهر ولكنها لم تستنتج.[188] وبالرغم من الأهمية التي تكتسيها الكيمياء الحيوية. إلا أنها -هي كذلك، مثل الفيزيولوجيا - قاصرة عن مساعدة المريض وتخليصه من مرضه. وهو دور الطب والعيادة لا غير في نظر **داغوني**. لأن الطبيب يفلت من التجريد الميت، للكيمياء الحيوية. ففي نظر العيادة، هذه الأخيرة تحطم نفسها بنفسها. إنها تستعمل مفاهيم خاصة، كما تستعمل لغة الأرقام. فهي ذات وجهين، تارة مادية ميكانيكية ذات تأويلات قهرية ومفروضة، لانهاية لها. وتارة أخرى حيوية بيولوجية تظهر تطورات الوظائف الحية.[189] ليس هناك بالنسبة للفيلسوف إمكانية التعرف على الجهاز العضوي بكليته إلا عن طريق العيادة والطب.

فالتقدير الكمي، والتفاعلات والأرقام، التي تستعملها الكيمياء الحيوية، لا تمثل إلا ظواهر معزولة أو مجردة، فالأرقام لا تحدد لنا أي شيئ ولا حتى مخاطر المرض والألم. وتتضح هذه الفكرة أكثر من خلال مثال يقدمه الفيلسوف عن الضغط الدموي بواسطة والذي نعبر عنه بدرجة معينة- في الحقيقة - يدعم عمل العيادة في التشخيص المرضي، وهنا تشترك العلامة الموضوعية (الدرجة) والعلامة الوظيفية (العيادة والفحص). إلا أن العلامة الموضوعية يمكن أن نجدها لدى إنسان سليم جسميا. بالنسبة للطبيب الحقيقي، فإن المصاب بمرض الضغط الدموي، ليس إنسانا درجة الضغط لديه مرتفعة، بل هو إنسان يتألم ويشكو من نشاطه المحدود. وبهذا فإن المرض لا يُقدر بأهمية الأرقام. الدليل أن بعض الأشخاص يجدون التوازن في الدرجة العليا للضغط الدموي. لذا يعتقد **داغوني** أن ما ينطبق على الضغط الدموي، ينطبق على أي معطى مخبري حتى الأخطر منه.[190]

ولكي يبين لنا الفيلسوف الفرق بين الباثولوجـــيا والفيزيولوجيا ويثبت في الوقت نفسه قصر هذا الأخير عن التعريف بالمرض أو مساعدة المريض. يقدم الفيلسوف **داغوني** ملاحظتين

---

187 François Dagognet, philosophie biologique, p. p. 66.67.

188 François Dagognet, Penser lLe Vivant; L'homme, Maitre de la vie? p. 151.

189 François Dagognet, Philosophie Biologique, p. p. 84. 85.

190 François Dagognet, Philosophie Biologique, p. 86.

ابستمولوجيتين لعلم الفزيولوجيا لأنها من أول وأهم فروع البيولوجيا. وكان الهدف من هذه الملاحظات، دائما هو إثبات وجود فلسفة طبية مستقلة عن الفلسفة البيولوجية.

الملاحظة الأولى: تتمثل في اللامبالاة التي تتعلق بالوسائل الفزيولوجية، فما دامت الفزيولوجيا تجرب على الحيوان، عليها أن تعلم أنه يمثل وحدة مغلقة على حدا لا يمكن مقارنتها بوحدة أخرى. فالحيوانية، حل في بعض الأحيان لبعض المسائل المقترحة عليها فقط والتي تحاول حلها بطريقتها الخاصة بمعنى أن لكل حيوان طريقة رد فعل خاصة به.[191] ومن هذا يعتقد الفيلسوف، أن الفيزيولوجيا تسعى إلى أمرين متناقضين يمزقانها: من جهة ضرورة التحليل بالنسبة للمجرب (العالم) ومن جهة أخرى ضرورة الاحتفاظ بالكلية Nécessité du total بالنسبة للحيوان[192]

الملاحظة الثانية: تتعلق بطريقة التعامل مع الحيوان موضوع التجربة، فالحيوان لا يمدنا إلا بالأعراض الفيزيولوجية للمرض، فهو لا يتكلم ولا يعارض، وبالتالي لا تعطينا الفيزيولوجيا من خلال دراستها للحيوان إلا جداول وحسابات وبيانات وأرقام ونِسب ..الخ.

هذه المعطيات لا تمكننا من معرفة الحيوية الفيزيولوجية Dynamique physiologique ، وهذا يؤدي إلى عقلانية خاطئة Faux Rationalisme وهذا يفتح المجال للنزعة الشكية. Scepticisme[193] من هذا فإن اتجاه الفزيولوجيا هو العقلانية المجردة Rationalisme Abstrait بقطع النظر عن مبحثها وبهذا فإن المعرفة الفيزيولوجية لا تكون ممكنة إلا ضمن بحث طبي إنساني(أي بالتجريب على الإنسان). وبالتالي يمكن تحقيق فيزيولوجيا الوظائف اللانهائية، فيزيولوجيا حقيقية. فلكي نبني عقلانية صحيحة، في نظر **داغوني** علينا أن نعمل على تكييف مفاهيم بيولوجية مع البيولوجيا نفسها. لأن اللغة التي تستعملها البيولوجيا، لغة توصف بأنها قادرة على التعبير حتى عما هو غير معقول، لغة تتركها دائما حبيسة الوثوقية، لأنها لغة تشبه لغة الدعاية القادرة على الإجابة عن كل الأسئلة، وفي كل مجال، وتحسب نفسها دوما على صواب، لأنها تحول الهزيمة إلى خطة إستراتيجية. لأنها تنجح في تحويل كل تقدم أو تطور - في مجال لا يأخذ بعين الاعتبار الحيوان- إلى قياسات وبيانات مدرجة. لأنها في نهاية الأمر، قادرة على إنتاج المفاهيم.[194]

---

191 Ibid, p. 36.
192 Ibid, p. 41.
193 François Dagognet, Philosophie Biologique, p. 43.
194 Ibid, p. 45.

كل هذه الإنتقادات التي وجهها الفيلسوف **داغوني** للفيزيولوجيا المجرّدة physiologie abstraite، يضيف إليها نتيجة هي في اعتقاده غير منتظرة، والتي تسمح في المقابل بإثبات أصالة العيادة La Clinique، وهذه النتيجة تتمثل في فكرة التشبيه، أو التجسيم anthropomorphisme (*) الذي لا مفر منه وهذا ما ينبغي على الرغم من أن الفيزيولوجيا تخافه.[195] وهنا المقصود بذلك تشبيه الإنسان بالحيوان، وهو أمر ينبغي أن تنتهجه الفيزيولوجيا بالرغم من أنه لن يوصلها إلى الحقيقة.

في هذا الصدد يعرض لنا الفيلسوف **داغوني** مثالا عن أعمال الفيزيولوجي الفرنسي **كلود برنار** Claude Bernard (1835-1911م) الذي أمضى وقتا كبيرا في دراسة مرض السكري، محاولا تحليله ومعرفة أساسه. لقد كان يلاحظ أن أغلب المصابين بهذا المرض فقراء، مصابون بالنهم المرضي La Polyphagie وهي الحاجة المفرطة للأكل والتي لا يحدّها الشبع. ويمكن ملاحظة أجسامهم الهزيلة بشكل واضح، وهم في طريق الموت. إنهم لا يتألمون، لكن العلامة على مرضهم تتمثل في كثرة بولهم Polyurie والمبالغة في شرب الماء Polydipsie، ولذا يعرف المرض السكري بالمرض الثلاثي. إشارة إلى الأكل، والبول والشرب المُفرط. في نظر **داغوني** يكون **كلود برنار** قد تناول المسألة، تناولا إيتيولوجيا Etiologie (علم أسباب الأمراض). وبالتالي حاول الإجابة عن السؤال ما هو سبب المرض؟ وفي الوقت نفسه تناول مسألة تولُد المرض Pathogénie أي تفسير خلل عضوي معين.

إن اكتشاف **كلود برنار** الذي أسس للطب التجريبي، في نظر **داغوني**، كان القصد منه بيان- اعتمادا على هذه الأعراض- أن المريض يصنع السكر بشكل مفرط و عليه التخلص منه. ولذا نجد السكر في البول بكميات كبيرة، تتجاوز المعدل الذي حددته الفيزيولوجيا وهو غرام من السكر في لتر واحد من الدم. إنه مصنع للغليكوز Glucoserie على حد تعبير **داغوني**، وبالتالي هناك فرط السكر في الدم Hyperglycémie.[196] حتى يذهب **كلود برنار** إلى أبعد من ذلك، عندما عمد على التجربة على الكلاب، ولاحظ أن الكلب حين يقدم له الغذاء منقوص من السكر، لا تنقص كميته في الدم ولا في البول. يتوصل العالم في الأخير إلى الكشف عن الوظيفة التي تمردت، والتي أخلت بالنظام. إنه الكبد Le Foie أي الوظيفة الغليكوجينية

(*) تجسيميَّة (مجسِّمة) التشبيه anthropomorphisme عمليّة ا) عزو الطبيعة البشرية إلى الله. ب) حديثاو .بمعنى أعمّ، تطلق على كل استدلال أو كل مذهب يرمي إلى تفسير ما لا يكزنه الإنسان (مثلاً، الله، الظواهر الطبيعية، الحياة البيولوجية، تصرُّف الحيوانات، إلخ)

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب، خليل أحمد خليل، المجلدالأول ، ص. 75.

195 François Dagognet, philosophie biologique, p. 65.

196 François Dagognet, philosophie biologique, p.183 .

Glycogénique (تكوُّن سكر الكبد)، و يحصل مرض السكري حين يفرز الكبد كمية كبيرة من السكر في الدم على المريض التخلص منها.

يتساءل الفيلسوف **داغوني**، لماذا يتجاوز الكبد الحد في إفرازه للسكر؟ كيف يمكن الربط بين عمل الكبد و سكر الدّم، ووفرة السكر؟ أين يحدث مرض السكري بالضبط؟ إن السكر بهذا المعنى يفلت من الضابط الإفرازي للمرشح الكلوي.

حتى إن خضع الكبد لنظام غذائي من غير سكر أو مشتقاته، هذا لا يمنع من إفرازه لمادة السكر، وتجاوز النسبة المحددة، غرام في اللتر. يرى **داغوني** أن ملاحظة علامة موضوعية للمرض، لا تُعرفنا بالأسباب الحقيقية له، ولا عن ما يوقفه ولا على ما يلطفه أي العلاج، حتى يؤخر أو يؤجل النهاية. إن فيزيوباثولوجية Physiopathologie كلود برنار – ويمكن تسميتها كذلك لأن في اعتقاده أن الفيزيولوجيا تسمح لنا بفهم الباثولوجيا- تحاول ابتلاع مرض السكري واعتباره مجرد تجاوز بسيط لنسبة السكر في الدم.

هذه نظرة منقصة لقيمة المرض السكري، وهي سجينة فلسفته الوضعية. و لذا فهي مسخرة للإجابة عن السؤال كيف؟ Comment ، وليست متفتحة على الإجابة عن السؤال لماذا؟ Pourquoi.[197]

إن الوضعية التي كانت تشكل أساس البحوث التي كان يقوم بها **كلود برنار** و التي جعلت منه يخضع الكائن الحي للآلية، سرعان ما فندها تطور الفيزيولوجيا من جهة والطب من جهة أخرى، وأصبح واضحا أن المعثكلة (البنكرياس) Pancréas، هو الذي يفرز هرمون الأنسُلين Insuline المكلف بالحفاظ على استقرار كمية السكر في الدم. ويشارك في الإستقلاب أو الأَيْضْ السكري Métabolisme Glucidique كذلك كل من الغدّة النخامية والغدّتين الكظريتين.وما ينقص من النظرية البرناردية مثلما يسمّيها **داغوني**، هو أننا نعرف اليوم أنواع كثيرة من مرض السكري.[198]

هذه إشارة واضحة للفيلسوف **داغوني**، حول الثقة التي كانت تمنح للفيزيولوجيا، لأنها تستند إلى الملاحظة الموضوعية وإلى التفكير الوضعي الذي هيمن على عقول العلماء حينا من الدهر، ونتج عن ذلك معاملة المادة الحية كمعامل المادة الجامدة. التي تتصف قوانينها بالدقة والضبط اللازمين.

من هذا كله، يميز الفيلسوف **داغوني** بين البيولوجيا أو بالأحرى أحد أهم فروعها، الفيزيولوجيا وبين أحد أهم فروع الطب وهو الباثولوجيا. فما دام المرض أو النقص في وظيفة

---

197 François Dagognet, Penser le vivant, L'homme Maître de la Vie? Bordas, Paris. 2003, p. 184.
198 Ibid, p, 185 .

من وظائف الأعضاء. إلى جانب عدم التخلص من الموت، هي أمور تطبع الكائن الحي. ينتج عن ذلك نشاط خاص(ذاتي)، أي توجيه ذاتي. الطب يوجب العلاج، الذي ينبغي تمييزه عن الفيزيولوجيا، حتى إن كان قريبا منها. يؤكد على هذا التمييز الجراح الفرنسي **بيشه** Marie François Xavier Bichat (1771- 1802م) الذي يرى بأن هناك شيئين في ظواهر الحياة: حالة الصحة L'état de la santé وحالة المرض L'état de la Maladie وينتج عنهما علمان متميزان:

1- الفيزيولوجيا La Physiologie التي تهتم بظواهر الحالة الأولى (الصحة)

2- الباثولوجيا La Pathologie التي تهتم بالحالة الثانية (المرض).[199] فإذا كان التشريح يقطع الجثة في نظر الفيلسوف **داغوني**، والفيزيولوجيا تُرضخ الحيوان، والكيمياء الحيوية تهتم بالبنية التحتية، وتَعزل تجريديا التفاعلات التي لا تقف عندها إلا قليلا، هي بالذات(البنية التحتية)،لا معنى لها، ومتغيّرة من فرد إلى آخر. إن الباثولوجيا تقودنا إلى الواقع التام والحقيقة الكاملة، إزاء مريض يتألم.

في نظر **داغوني يندرج الطب ضمن المباحث التي ليس لها مرجع** و محاولة الفلسفة تبرير التجريبية L'Empirisme، بالنسبة **لداغوني** هي طريقة من طرق تحطيمها فلسفيا في الوقت الذي كانت فيه متجذرة ومعترفا بها، وممجّدة بالتعبير العلمي والمهني.[200]
يشير **داغوني** إلى عبارة **هيغل** Hegel الحجر ليست مريضة ولن تكون أبدا كذلك في نظر الفيلسوف بالطبع. أما الكائن الحي فقد يصاب بمرض أو ما يشبه ذلك لأنه ينشأ في الزمن الذي يؤثر، ويترك علاماته عليه. أو أن العضو لكثرة حركته كالقلب مثلا، يفقد مطاطيته ويتصلب بمرور الزمن، خاصة إذا علمنا أن له ستين نبضة في الدقيقة الواحدة، ليلا ونهارا دون توقف.[201]هذه دعوة واضحة إلى اعتبار الكائن الحي، الإنسان على الخصوص، كائن له ما يميّزه عن الجماد، فلا يجوز التعامل معه مثل ما نتعامل مع هذا الأخير.

لقد كان على الفيلسوف فرانسوا **داغوني** - في أول الأمر- حتى يثبت أن هناك ابستمولوجيا خاصة بالطب متميزة عن تلك التي تتعلق بالبيولوجيا، أن يميز بين البيولوجيا بفروعها كالفيزيزلوجيا والكيمياء الحيوية، و بين الطب وأهم فروعه الباثولوجيا، من جهة، واعتبار المرض والعيادة أنطلوجيا كلاهما يدعوا إلى التناول الفلسفي الإبستمولوجي للطب من جهة أخرى. ما دام الطب والعيادة ملازمين لحياة الإنسان، فهذا في نظر الفيلسوف يعطي الطب ذلك

---

199 Ibid, p. 182.

200 François Dagognet, L'homme Maître de la Vie? p. p. 105. 106.

201 Ibid, p. 181.

الطابع الإنساني، فلا غرابة أن نعتبره **علما من العلوم الإنسانية،** [202] ذلك لأنه يهتم بالمرض هو في اعتقاده أكثر الحالات تعبيرا عن الطبيعة الإنسانية. كما اعتبر الطب في هذه الحالة هو أفضل العلوم تعبيرا عما يشغل بال الإنسان منذ فجر الإنسانية. ألا يستحق كل هذا اهتماما فلسفيا خاصا به وبالتالي ابستمولوجيا خاصة.

3- موضوع الطب ومنهجه

الحديث عن إبستمولوجيا خاصة بالطب يستدعي الحديث عن طبيعة البحث الطبي والمتميز عن البحوث الأخرى، وكذا طبيعة موضوعه هل هو موضوع متميز وبالتالي ينبغي النظر إليه نظرة خاصة؟ وإذا كان لكل دراسة منهج، فما هو منهج الدراسات الطبية وما هي طريقة تعامل الطب مع الموضوعه؟ ما قيمة هذا المنهج؟ وهل هذا المنهج موصل إلى المعرفة وإذا كان كذلك ما طبيعتها؟ وما معيار الصدق فيها؟ كل هذه الأسئلة يحاول الفيلسوف **داغوني** أن يكشف من خلالها أنه ما دام الطب متميز، فلا بد من وجود ابستمولوجيا طبية متميزة كذلك.

أ) الطب بين العلم والفن:

حتى يتم إثبات استقلالية التطبيقات الطبية، ووجود إبستمولوجيا خاصة بالطب، هناك برهانان يمكن الاستدلال بهما. من جهة وقبل كل شيء اعتبار الطب فناً وليس علما.
أما الدليل الآخر فهو المتعلق بالمرض.

إن الطبيب يصف المرض أو ما يسمى بالتشخيص، يتصور تطورات المرض، يتكهن إن صح التعبير، يبحث عن الأسباب. إنه لا يكتفي بالوصف، والتصنيف والحكم المسبق، والتفسير فقط. إن تطور المعرفة الطبية لم يتم إلا من خلال التنبؤ، تحسين وعلاج المرض، خلافا للعلوم الطبيعية. يعتبر علم الطب في هذه الحالة فن الوقاية والتسكين والعلاج للمرض. منذ القِدم ومن العهد اليوناني كان هناك التمييز بين فن الطب وعلم الطب.

---

202 Francçois Dagonet, La medecine est une science Hummaine, Revue, Panorama du medecin, N°5011, 27/03/2006, p. p. 2- 4. -
http/web.mac.com/serge.cannasse/iweb/ 23/01/2007

تعتبر تحليلات **أرسطو** لمفاهيم مثل العلم épistémè والفن technè هي التي سمحت بفهم الفرق بين علم وفن الطب. فالعلم كما عرفه **أرسطو** لا يكون إلا بالكليات وهو ضروري وليس موضوعا للتغيير. أما الفن فيعرف بأنه استعداد للإبداع مصحوب بقواعد، فإذا شكل معرفة، فهي معرفة تهدف إلى تغيير شيء، وفي هذه الحالة يكون الفن نشاطا يمارس على أشياء خاصة (شخصية) وعرضية. فالفن يُعنى بما سيكون، وبالتالي هو خاصية الطبيب، ويعتبر الطب النموذج الأحسن بالنسبة **لأرسطو** حين يُقبِل على توضيح نوعية المعرفة التي تشكل الفن.[203]

لم يظهر النقاش حول هذه المسألة أي مسألة الطب بين العلم والفن إلا خلال القرن التاسع عشر، وقد أفضى إلى تأكيد علمية الطب. هذا التغيّر في النظرة إلى الطب باعتباره علما وليس فنا أشار إليه الطبيب والفيلسوف والمؤرخ للعلوم الفرنسي **جورج كنغيلام** ، من خلال علامتين تدلان على هذا التحول، **الأولى**: اختراع المِسماع أو ما يسمى بسمّاعة الطبيب Stéthoscope من طرف الطبيب الفرنسي **رينيه لاينيك** René Laennec (1781 -1826م)، حيث أصبح الطب يستعمل الوسائل لجمع أعراض المرض الموضوعية، وعدم الاكتفاء بما يدلى به المريض. **الثانية**: الطريقة الرقمية التي تسمح بمراقبة التشخيص والعلاج عن طريق الإحصاء.[204]هذا يدل على أن الطب علم وليس فن. وبالرغم من ذلك يعتبر **كانغيلهم** الطب أقرب منه إلى الفن من العلم بالمعنى الحقيقي، وإذا شئنا أن نحدد بالضبط نظرة **كانغيلهم** للطب، يمكن اعتباره مبحث مزدوج الأغراض والغايات: فهو من جهة علم موضوعي- أو على الأقل أنه يسعى لكي يكون كذلك- من خلال تفسيره للظواهر المرضية والحيوية تفسيرا علميا، ثم هو إنساني ذاتي لأنه يجسد قلق الإنسان و معاناته(المرض)[205]يقول **كانغيلهم** في هذا الصدد:<< لقد بدا لنا الطب، ويبدو لنا حتى الآن، كتقنية أو كفن ملتقى لعدة علوم، أكثر من كونه علما بالمعنى الصحيح.>>[206]

إن اعتبار الطب فنا أكثر منه علما في نظر الكثير من الأطباء، له ما يبرره من تقرير لما سيكون ، وحس أو تصور للمرض - مع العلم أن المرض شخصي- ومحاولة علاجه بمختلف الطرق وليس فقط العلمية الدقيقة منها. لكن وبالرغم من التطور الذي شهده الطب اليوم، هل تبقى إمكانية إعتباره فنا؟ إنها مسألة أكثر إحراجا مما سبق، خاصة إذا كنا لا نشك في علمية الطب اليوم من خلال الشواهد مثل البحوث الطبية في جميع القطاعات العمومية والخاصة، وكذا

---

203 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p. 433.

204 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p. 433 .

205 رشيد دحدوح، تاريخ و فلسفة العلوم البيولوجية و الطبية عند جورج كانغيلهم، ص. 69.

206 Georges canguilhem, Le normal et le pathologique, Quadrige, Presses universitaires de France, Paris, 7ème édition, 1998, p. 7.

المتابعات الطبية التي يخضع لها الجميع طوال حياتهم. وكذا تكوين الأطباء والمطالبة بالنتائج الدقيقة. لا شك في أن كل هذه الدلائل تثبت أن الطب يتجه نحو العلمية.[207]

يعتقد **داغوني** أن الطب غيّر من وضعيته وهذا منذ حوالي عشرين إلى ثلاثين سنة. اليوم يمكن الحديث عن نوعين من الطب، الطب العام Médecine Générale والطب المتخصص Médecine Spécialistes على أن النوع الأول هو الطب الحقيقي لأنه يهتم بالمريض وبعلاجه، فالعيادة هي من مميزات الطب العام، وهي التي تعطي للطب بُعده الإنساني. فهو يهتم بالبحث عن العلامات ويحاول تشخيص المرض، ويعمل في مجال العلاقات بين الأفراد أي العلاقات الإنسانية. أما الطب المتخصص فهو وَسَائِلِي، أي يستعمل الوسائل يبحث عن أسباب المرض ولا يهتم بالمريض. فالطب في اعتقاد **داغوني** هو من العلوم الإنسانية.[208] يركز **داغوني** على العيادة لأنها تمثل الوجه الحقيقي للطب ومن غيرها قد لا نستطيع الحديث عن تاريخ ولا معرفة و لا ممارسة طبية وبالتالي لا حديث عن ابستمولوجيا خاصة بالطب.

يوضح الفيلسوف **ميشال فوكو** Michel Foucault (1926-1984م) هذه الفكرة أكثر أي تاريخ العيادة وقيمتها في تاريخ الطب، فهو يعتقد أن الطب يجد أصله في العيادة (التي تعني الوقوف أمام سرير المريض وملاحظة كل ما يمكن أن يدل على المرض، ملاحظة خارجية أو داخلية) وهذا الذي يعطي معنى للطب و يعبر عن بعده الأنطلوجي.[209]

لكن اعتبار الطب من العلوم الإنسانية، يجعل منه علما نسبيا إلى حد ما، لأن العلوم الإنسانية هي في حد ذاتها علوما نسبية. إن هذا لا يغير في الأمر شيء، بل على العكس من ذلك يزيد إثباتا لإمكانية التناول الإبستمولوجي للطب. ذلك أن جعل من الطب علما نسبيا، أي لا يتمتع بالدقة والموضوعية اللازمين في كل علم، يجعل منه بحثا متميزا عن البحوث البيولوجية والفيزيائية والكيميائية التي وصلت إلى الدقة المطلوبة يرجع هذا لطبيعة موضوعها والتي تختلف عن طبيعة موضوع الطب وهو المرض. إن نسبية الطب يؤمن بها الكثير من الفلاسفة الأطباء أنفسهم أمثال **آن فاغو لارغو**(*) Fagot Largeault Anne التي تقول نقلا عن لوكور:<< لا يمكن للطب المعاصر أن يكتفي بوضع القوانين العامة، فتعقيد الظواهر البيولوجية يدفعنا إذا أردنا علاج مريض ما بطريقة علمية، إلى الدخول في حتمية خاصة وهي حتمية علم العلل، أو

---

207 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p. 433.

208 Francçois Dagonet, La medecine est une science Hummaine, Revue, Panorama du medecin, p. p. 2- 4.

209 Michel Foucault, Naissance de la clinique, in Naissance de la Médecine, Éditions Cérès, 1995, p. 71.72.

(*) آن فاغو لارغو Fagot Largeault Anne 22سبتمبر سنة 1938 بباريس (فرنسا) طبيبة أعصاب (كرسي الأستاذية) في فلسفة العلوم البيولوجية و الطبية.

أسباب الأمراض.>>[210] وهذا يعني بوضوح أن الطب ليس من العلوم الدقيقة التي تتوفر على اليقين التام مثل بعض علوم الطبيعة كالفيزياء والكيمياء.

لقد أكد هذا الأمر -خاصة ما يتعلق بنسبية الطب- من قِبل الفيلسوف **رينيه ديكارت** في كتابه (مقالة الطريقة)، حيث يقول:<< حقا إن الطب المستعمل الآن يشتمل على قليل من الأشياء التي لها منفعة تذكر. ولكن دون أن أقصد إلى تحقيره، فإنني واثق أنه لا يوجد إنسان، حتى ممن يحترفونه، لا يعترف بأن كل ما يعرف منه يكاد لا يكون شيئا، إذا قورن بما يبقى غير معروف وأن من المستطاع التخلص مما لا يحصى من الأمراض، بدنية كانت أو نفسية. بل وقد يتخلص أيضا من ضعف الهرم، إذا عرفت أسبابها معرفة كافية، وعرفت كل الأدوية التي زودتنا بها الطبيعة.>>[211] واضح من هذا القول أن الطب حتى عصر **ديكارت** لم يصل بعد إلى الدقة والتطور المطلوبان إذا ما قيس بالعلوم الأخرى الطبيعية.

ولكن لماذا يصنف **ديكارت** الطب كفرع من فرو ع العلوم الطبيعية؟ حين شبه الفلسفة بالشجرة جذورها علم ما بعد الطبيعة وجذعها علم الطبيعة وفروعها هي العلوم الأخرى كالهندسة والطب والميكانيكا. يرجع هذا بالأساس إلى محاولة ديكارت في إبراز ما لعلم الطبيعة من معارف يمكن الوصول إليها ذات فائدة كبيرة للحياة والتي لا تتحقق إلا بالإهتمام بالفلسفة العملية، وقد كان بالتالي تصنيف ديكارت للطب ضمن العلوم الطبيعية والتي تدخل في إطار الفلسفة العملية، مقترنا بحديثه عن الصحة، ذلك الخير الأول وهي الأصل لما عاداها من خيرات هذه الحياة. و قد اعتبر الطب من الوسائل التي تجعل الناس أكثر حكمة وحذقا مما هم عليه.[212]

ومن الذين يؤكدون على هذا الأمر أكثر أي نسبية الطب والبيولجيا، نجد **بارتيز بول جوزيف** Barthez Paul Joseph (1734-1806م) (طبيب فرنسي رئيس مدرسة **مونبللية** Ecole de Montpellier (*) وأبرز مؤسسي النظرية الحيوية) فيما يخص القوانين الإبستمولوجية لمبدأ الحياة، يذكرنا **بارتيز** أن مفهوم السببية العلمية ينبغي تطبيقها بحذر كبير، وينبغي علينا أن لا نبحث بل لا نستطيع البحث علميا عن أسباب الظواهر إلا في حدود ما

---

210 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p, 438.

211 رينيه ديكارت، مقالة عن المنهج، ص. ص. 268. 269.

212 المرجع نفسه، ص. ص. 267. 268.

(*) مونبلليه Montpellier مدينة فرنسية معقل مدارس الطب ابتداء من القرن الثاني عشر إلى يومنا هـــذا. جامعة مونبلليه للطب تحولت بعد الثورة 1792إلى مدرسة للطب 1795 عرفت شخصيات علمية أمثـــال. Barthez و Bordeu و غيرهم.

يمكن معرفته بواسطة التجربة، فلا ينبغي إذن البحث عن الأسباب الأولى، بمفهوم أن كل ظاهرة هي دائما تابعة لأخرى. أو أن هذه الحركة تجعل من الضروري هذا التتابع الذي يُعتقد أنه ثابت. وهذا مظهر من مظاهر الشك في مبدأ الحياة. هذه المواقف تثبت نسبية الطب والبيولوجيا ونسبية قوانينها مما يفسح المجال للشك، بل لإبستيمولوجيا خاصة بهذه العلم.

ب) موضوع الطب المرض:

البرهان الثاني على وجود إبستمولوجيا خاصة بالطب، تختلف عن تلك الخاصة بالبيولوجيا، يتعلق بالمرض La maladie .على الرغم من اهتمامات الطب الكثيرة، مثل الحياة والموت الصحة والمرض وغيرها. إلا أنه لا يطلب منه إطالة الحياة وتجنب الموت، كما لا يطلب منه حفظ الصحة لأن هناك طرقا كثيرة لحفظها، من تغذية ورياضة والبيئة الملائمة. **من هنا يبقى المرض هو المجال الأهم في النشاط الطبي معرفة كان أم تطبيقا، ولذا يشكل الموضوع المحوري في كل نقاش فلسفي نظري أو إبستمولوجي في مجال الطب**. وما يبرر ذلك أكثر هو تعريف الطب. فقد جاء في مقدمة معجم الفكر الطبي لـــ **دومنيك لوكور** تعريف الطب في قوله:<<الطب هو علم الأمراض>>. Science des Maladies . المشكلة هي أن المرض في حد ذاته أمر ليس من السهل بيانه وضبط تعريفه لأنه يقترن بكلمة Mal وتعني ضرر، شر، أذى، سوء، ألم...إلخ. والشخصية أو الفردية التي يتصف بها المرض، قد لا تجعل من الطب ذلك العلم الدقيق ذا القوانين القابلة للتعميم. ثم إن الأمراض لا تعتبر مجرد حوادث فيزيائية (طبيعية)، ولكنها بالنسبة للإنسان مأساة تاريخه، والتي بواسطتها أدرك أنه فان أو قابل للموت. وقد كانت هذه الحقيقة بالنسبة إليه، دافعا لمواجهة، دون خسائر كثيرة، تحديات الوجود الذي يعرضه أو يفرضه عليه محيطه.[213] لا شك أن الأبعاد الفلسفية والأنطولوجية، والإجتماعية وحتى السياسية، للمرض هي التي تجعل من الطب قابلا للتناول الفلسفي الإبستمولوجي.

لقد تحدث الفيلسوف **داغوني** عن المرض بشكل دقيق و بين صعوبة ضبط مفهومه. لقد أشار في أول الأمر إلى أن الإنسان أكثر عرضة للمرض لأنه أكثر هشاشة من الحيوان والنبات على العموم. ثم تساءل: ما معنى أن أكون مريضا؟ إن أغلب المنظّرين حسب **داغوني** ينظرون إلى المرض نظرة سلبية. يعرض الفيلسوف بعض النماذج من هؤلاء العلماء، نجد **ف. بروسيه** Broussais François (1772- 1838م) الطبيب الفرنسي. الذي لا يرى في المرض إلا مبالغة في وظيفة فيزيولوجية وأحيانا، يمثل نقص في هذه الوظيفة. وبالتالي، كان الطبيب بروسيه يحاول تقريب المفهومين اللذين كانا متميزين وهما يشكلان أهم الفروع سواء بالنسبة

213 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p. 10.

للبيولوجيا أو الطب وهما: الفيزيولوجيا La Physiologie (علم وظائف الأعضاء) وهو أهم فرع من فروع البيولوجيا. والباثولوجيا La Pathologie (علم من العلوم الطبية التي تهتم بدراسة أسباب وأعراض المرض) وأهم فرع من فروع الطب.

أما إذا تناولنا علم الأجنة الممسوخة والمخلوقات الغريبة La Tératologie فإن هذا العلم لا يطلعنا إلا على المراحل التي يمر بها الجنين لأن الوحشية (المخلوق الغريب) تكمن في توقف نمو الجنين، ولكن الوحش لا يُظهر شيئا إلا ماضي الجنين.[214]

ومن الذين تحدثوا عن المرض والصحة جورج **كانغيلهم** في كتابه Le Normal et le Pathologique بحيث يعتبر أن الكائن الحي (الإنسان خاصة) هو الكائن الوحيد الذي يحتاج إلى معيار Norme ، ذلك لأنه الوحيد الذي يمكن أن يكون في حالة الصحة أو حالة المرض أو حالة بينهما. ولا نجد ذلك في الظواهر الطبيعية الفيزيائية أو الكيميائية أو حتى في ظواهر المادة الحية التي تؤول تأويلا علميا حسابيا أو كميا، مثلما هو معمول به في الفيزيولوجيا.

يعتقد **كانغيلهم** أن حالة المرض أو حالة اللاسوي، ليست حالة خالية من كل ما هو سوّي أو عادي، بل أن المرض هو مقياس أو معيار للحياة، ولكنها حالة أقل مستوى، لأنها من جهة، لا تطيق أي وضعية أخرى خارج الشروط التي تحدد قيمتها، و من جهة أخرى غير قادرة على التحّول إلى حالة أو معيار آخر. ومنه فإن الكائن الحي(الإنسان) المريض منسجم في إطار الشروط المحددة لوجوده، و قد ضيع القدرة المعيارية السوية، وبالتالي ضيّع القدرة على إنشاء وضعيات أخرى في شروط أخرى.[215]

نجد كذلك **هويلنغس جاكسون** Hughlings J.Jackson (1835-1911م) طبيب أمريكي. الذي يرى في المرض عودة إلى الأفعال البسيطة والحركات البدائية الأوتوماتيكية (الآلية). فالمصاب بالأفازيا (الحُبسة) Aphasie. (فقدان القدرة على التعبير بالكلام أو بالكتابة أو هي عدم القدرة على فهم الكلمات المنطوق بها). لا يستطيع التلفظ بكلمات لغته لكن يهذي ويستعمل كلاما غير مفهوم في موضع الكلام الصحيح. حتى علماء النفس شاركوا بنظرتهم في هذا الموضوع واعتبروا المرض خللاً في التوازن.

مهما كانت الآراء حول هذا الموضوع فالمرض في نظر **داغوني** لا يعلمنا شيئا إلا خللا في وظيفة من الوظائف، سواء ضعف أو مبالغة فيها، بعد تحرير ما كان مراقباً وممنوعاً.

---

214 F. Dagognet, Penser Le Vivant; L'homme, Maitre de la vie? Bordas, Paris, p.182.

215 Georges canguilhem, Le normal et le pathologique, p. p. 119. 120.

ج) الطب كمعطى تجريبي فريد من نوعه:

يتساءل الفيلسوف **داغوني** عن سر هذا التفوق الأبدي Prééminence Sempiternelle والضروري للعيادة، بالرغم من هجوم التقنيات المخبرية. لا شك أن هذا يرجع إلى كون الباثولوجيا هي وحدها التي تخص الإنسان كل الإنسان، إنها تنقلنا إلى الواقع التام في مواجهة مريض يتألم، هذا المرض يتطور بالوتيرة وبالحيل الخاصة به، وله طريقة يتبدى بها، ويتسلل من هنا ومن هناك. يقدم لنا **داغوني** ملاحظة وضعها الطبيب الفرنسي **تروسو** Trousseau Armand (1801-1867م) الذي تمكن من وصف أعراض مرض تكزّز الطفولة Tétanie Infantile والذي يحمل اسمه علامة **تروسو** Le signe de trousseau وتتمثل هذه الملاحظة في قوله: << إن العلوم التحضيرية هي بالنسبة لفن الطب، كنسبة قوانين الضوء لفن الرسم. لنترك الفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي، التي من دون شك هي علوم ضرورية بالنسبة للطب، ولكنها لا تصنع الطبيب. مثلما أن علم المناظر، لا يصنع رسّام الطبيعة Paysagiste.>> [216] من هذا العرض نلاحظ بأن الفيلسوف يولي اهتماما خاصا للباثولوجيا، والطب، ويعتبرهما من أهم العلوم التي تعبر على الإنسان. وهذا يبرر من دون شك تصنيفه للطب خاصة منه العام، ضمن العلوم الإنسانية. وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الفرنسي **ميشال فوكو** حين تحدث عن مَوْلِدِ العيادة. فقبل كل عقيدة، قبل كل نظام، منذ البداية، كان الطب موجودا في العلاقة المباشرة للألم مع ما يسكنه، أو يخفف منه، ولم تكن هذه العلاقة وليدة التجربة بل منبعها الطبيعة، والفطرة، من طرف الإنسان وللإنسان. قبل أن تدخل ضمن العلاقات الإنسانية في المجتمع. وقد انتقلت من فرد إلى آخر حتى أصبحت موضوعا عاما للوعي ، أين يكون الشخص هو الدارس والمدروس في آن واحد. فالطب تتوارثه الأجيال، من الأجداد إلى الأبناء إلى الأحفاد، فقبل أن يتحول الطب إلى علم، كان عبارة عن علاقة بشرية كونية[217]

يرى **داغوني** أن التجريبية الطبية فريدة من نوعها، فهي لا تمت لتجريبية رجل الأعمال أو تجريبية الفيلسوف المشتغل بمسائل المعرفة بصلة، إلا من بعيد. إنها تنمو على أرضية فلسفية تنشأ من معارضة إبستيمولوجية بين معطى إنساني خالص وهو المرض، كظاهرة أنثربولوجية(قديمة) سواء في جوهرها، أو في ظهورها، أو في إظهارها والتعرف عليها. وبين التقنيات التي تعمل على عقلنته وبيانه أو بالأحرى الكشف عنه حتى تتمكن من محاربته.

---

216 François Dagognet, Philosophie Biologique, p.87.

217 Michel Foucault, Naissance de la clinique, in Naissance de la Médecine p.p.72.73.

فمن جهة، تقدّم الباثولوجية (علم الأمراض) للإنسان أغرب مادة، لأن الأمر يتعلق بالإنسان نفسه، في حالة ضياعه لإنسانيته الفيزيولوجية، أي في حالة ضياع صحته وتوازنه، بمعنى آخر في حالة مرضه وهو أمر أكثر قساوة بالنسبة للطبيب(*). ومن جهة أخرى، حالة المرض والموت التي يعيشها الإنسان، تنظر إليها العيادة و العلوم الطبية الموضوعية، على أنها مأساة ذاتية، أو على أنها ظاهرة تابعة لشعور المصاب، أو المعلول، أو على أنها شهادة تحت التأثير لأنها من الشخص المعني. يعتقد الفيلسوف **داغوني** في هذه الحالة أن العقلانية تقضي على الذاتية، حتى تتمكن من احتواء الطب التطبيقي في نسيج من المفاهيم الملائمة.[218] << Le rationalisme élimine La subjectivité, afin de pouvoir enserrer la clinique dans les mailles de concepts appropriés.>> سواء العقلانية البصرية للموضوع التي دافع عنها **أوغيست كونت** عندما نريد تفسير عمل أو عطب الآلة، وذلك بوصفها، أو في مجال علم وصف الأعضاء، فالجروح تبرر علم الأعراض Symptomatologie. أوعقلانية السوّي أو العادي التي تريد أن تستنتج المرض من خلال معرفة الوظائف الفيزيولوجية. فالمرض ما هو إلا منع للفيزيولوجيا. بعبارة أخرى ما هو إلا تعطيل لوظائف الأعضاء. إنها عقلانية مُبسِطة، عموميات مجردة، فإذا كانت الأمراض تعني العجز في المفاهيم مثل: أن الكلى وظيفتها التصفية والتطهير، الرئتين للتنفس، المعدة للطحن، هذه صُور ليست مقبولة إلا في حدود الكلام الذي يوضحها. أما العقلانية الطوباوية، التي تمثل أساس الكيمياء الحيوية أو الحياتية، فإنها تخطط للمستقبل لحُلمٍ غير قابل التحقيق في الحاضر، إنها تهدف إلى الإبقاء على البحث عن الموضوعية وذلك من خلال اللجوء إلى تهديدات المستقبل، أين يتم التأكد من التكافؤ بين الأعراض المرضية والتفاعل البيوكيميائي.[219]

من دون شك، إن التجريبية في مجال الطب تتولد من التقاطع بين هذين الشرطين المنطقيين، أو بالأحرى بين هاتين العقلانيتين اللتين تتصارعان أكثر مما تتحدان. إحداهما بإرشاد الواقع أو من وحي الواقع والمحسوس، والأخرى نظرة غائية أي مقترنة بالأهداف. إذن هي تجريبية فريدة من نوعها.

يوضح لنا **داغوني** هذه الصورة لوضعية الطب من خلال موازنة بين الفلاح والطبيب. كون الفلاح غير قادر على التحكم في الطبيعة، فهو يمتثل للخرافة. فعوضا من أن يصنع الحوادث، من أمطار وشمس، فهو ينتظرها. من هنا تتواصل الخرافة كممارسة، يعتقد الفيلسوف أن الحياة

(*) في هذا الخصوص يشير داغوني إلى أن موت الطبيب من أبشع المأساة القديمة لأنه إلى جانب معاناته وألمه، يضاف إلى هذا أحيانا معرفتة لوقت إقتراب الموت.إنها قساوة مضاعفة

218 François Dagognet, Philosophie biologique, p. 102.
219 Ibid, p. p. 101-103.

الطبية- ونظرا للاعتبارات السابقة وما تؤدي إليه- لا تفلت من ضرورة مماثلة. ولذا فهي تعمل بحذر (الحياة الطبية) وبشك، متظاهرة بالتجريبية نتيجة التفاوت بين المخبر والمستشفى، بين تدريس العلوم المسماة أساسية وبين روح المرض. باختصار، بين الطب التجريبي والتجريب الطبي.[220]

من خلال ما تقدم، يعيد الفيلسوف **داغوني** ترتيب النشاط الطبي، بحيث يعتقد أنه من الخطأ أن ينتقل العمل الطبي آليا من الفحوص الطبية إلى التشخيص المرضي، ثم إلى التنبؤ أو التوقع، ثم إلى الوصفة الطبية والعلاج بواسطة الدواء. من خلال هذا العرض السيئ لمراحل العمل الطبي الذي لا يتوفر إلا على القليل من العلم والمعرفة، يؤدي حتما إلى تأكيد سلطة العلاج و الدواء. وفي هذه الحالة يصبح من الضروري البحث عن فلسفة لهذه الصورة الهزلية.

في الواقع، الطب الحقيقي -في نظر الفيلسوف- يعمل خلافا لذلك، فالعلاج في نظر الفيلسوف يساهم في إظهار المرض وأعراضه. فإذا كان على الفلسفة أن تطلع على المظاهر وأوجه الحوادث الهامة، حقيقتها، قوانين ظهورها و تجددها، فإنه لا ينبغي عليها أن تدير ظهرها لأغرب شيء، الذي يشفي، تلك هي قوة الدواء. إنه لا يغيّر الطبيعة الخارجية فحسب، بل الإنسان نفسه. إنه يُبقي عليه حيا، يقيه، يريحه، يمسخه.[221] يعطى الفيلسوف **داغوني** دليلا على ذلك من خلال الطب الشعبي، في تعامله مع الحمى مثلا: فهو يشّجع المرض عن طريق استعمال النُقاعات Tisanes المغلاة، استعمال الكحول، أغطية سميكة لرفع حرارة المريض مع أنها مرتفعة، لأجل إخراج المرض والقضاء عليه.[222]

وبالتالي، فإن الفحص نفسه سواء كان بالتحاليل، أو بالإثارة الفيزيولوجية، أو كان كيميائي البحث عن الزُلال(*) Albumine مثلا، لا يمكنه لوحده حل المشكلة التي يساهم في إثارتها وتحديدها. علينا أن ننزع من أذهاننا الأفكار المسبقة مثل العلاج الأمثل، لأنه لا يحقق لا الشرط المنطقي (تسبيق الفحص والتشخيص الذي يتخلله، هو تسبيق للأحكام وهذا غير منطقي). ولا الشرط الإنساني لأن الحياة تصبح رهينة الدواء وهذا خطأ لأنه يعتمد على تصور الإنسان الآلة.وبالتالي لا نعالج الأمراض عن طريق استعمال الترياق(*) Panacée. يرجع موقف **داغوني** إلى اعتقاد أن للإنسان فرديته. فلا يجوز أن نصف لكل الناس الدواء نفسه حتى إن بدا أنهم يعانون من نفس المرض.[223]

---

220 François Dagognet, Philosophie biologique, p. 93.
221 François Dagognet, La Raison et les Remèdes, Collection Dito,1964. p. 15.
222 Ibid, p, 9.

(*) الترياق Panacée دواء يعتقد أن يصلح لكل الأمراض

إن اصطفاء الإنسان وفقا للدواء هذا أمر مرفوض قي نظر الفيلسوف، وهو موقف يشبه إلى حد بعيد موقف أستاذه جورج **كانغيلهم** Georges Canguilhem الذي يعتبر أن مسألة ضبط نظام خاص بوضعية الفرد في الطب، هي إحدى الحوافز الأساسية لإبستمولوجية الطب.

وقد تناول هذه المسألة في كتابه المعروف Le Normal et le Pathologique الصحي والمرضي والذي يرى فيه أن الطب التطبيقي والعلاج أو الشفاء، يمثلان جوهر ما يسعى إليه الطب. ينبغي اعتبارهما تقنيات فردية خالصة ، تهدف إلى معيارية خاصة بالفرد. لأن الكائن الحي في نظر **كانغيلهم** – ويقصد به الإنسان على وجه الخصوص – (هو فرديّة أو فردانية معيارية) Individualité Normative أو يقصد بها فردانية سليمة مصدرًا للقواعد. فالمعيارية ماهية الحي وتتميز بالإرادة والإبداع والمغامرة وسلوكها كجملة وككيان. ويلّح **كانغيلهم** على معيارية الحي وتضامنه في مواجهة الوسط ككيان كلّي متعاضد ومتآزر.[224] فإذا كان الدواء اليوم في نظر المرضى والأطباء، بمثابة الثمار الذي من خلاله تتحقق العلوم البيولوجية.

وإذا كان الدواء يمثل نهاية ما نتوصل إليه بعد الفحص الطبي، فإنه يشارك من جهة في ضم الفرد للأعراض المرضية بحيث يصبح تابعا لها وليس العكس، وهذا يقضي على الفردانية. ومن جهة أخرى، يشارك في حجب الفردانية الشخصية والاجتماعية للمريض، لأننا في هذه الحالة لا نأخذ في الاعتبار وضعية المريض الشخصية والاجتماعية وهذا تأكيد من الفيلسوف **كانغيلهم** على أن لكل شخص وضعيته وحالته ولذا كل محاولة علاج ينبغي أن تنطلق من هذا الاعتبار. وبالتالي لا نصنف المرضى وفقا للدواء، بل العكس، وصف الدواء وفقا لطبيعة المريض.[225]

يؤكد الفيلسوف **فرانسوا داغوني** على أن كل فلسفة تحت هذا الإطار(أي العلاج) ينبغي أن تكون واضحة. وأن لا يبقى العقل حبيس الخدع التي تظهرها الأدوية، فهي تبدو في مظهرها،

(*) الزُلال Albumine أحد المكونات الثلاثة للبلازما إلى جانب الغلوبلين و الفيبروجان.

223 françois Dagognet, Philosophie biologique, p. p. 103.104.

224 رشيد دحدوح، تاريخ و فلسفة العلوم البيولوجية و الطبية عند جورج كانغيلهم، ص. 9.

225 Céline Lefèvre. Individu et médicament. Ce que soigner veut dire. Séminaire de l'école doctorale d'épistémologie. 5/05/2004.

(*) الأنثربولوجيا Anthropologie أو إناسة أصبح منذ سنة 1870فرع من كبريات فروع العلوم الطبيعية،ذلك الذي يشكل، مثلا علم حياة الجنس البشري، عرفها بروكا Broca :" بأنها دراسة الجماعة البشرية، في مجملها ، بتفاصيلها و علائقها ببقيّة الطبيعة. بهذا المعنى ، تشمل علم التشريح البشري، ما قبل التاريخ، علم الآثار، الاتنوغرافيا و الاتنولوجيا بالمعنى الأوسع علم الإجتماع، الفولكلور، اللسانة.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج. 1، تعريب، أحمد خليل، ص. ص. 74.75.

نافعة ولكن تخفي الضرر الذي تسببه. أننا إذا نجحنا في تطهير هذا العرض للنشاط الطبي سنقترب من تحقيق نتيجتين منهجيتين.

الأولى: أن المرض كحالة معقدة وواقعية يحقق نوع من الجدلية العضوية التي تعلمنا تجنب أو التمسك بما تحتفظ به المجازات، الخيال، العموميات، العادات. والاحتفاظ بالنتائج التي تستحق نظرة الفيلسوف. وعلى الأنثربولوجيا(*) Anthropologie البعيدة عن ضغط العلوم، أن تعين على ذلك. فالعيادة La Clinique في نظر **داغوني** معرفة خاصة بالإنسان، لأنها معرفة الحياة وهي بهذا ترغم اللامبالاة على الخضوع لشروطها، وتلحق بها الهزائم في كل مرة. فإذا كان العلم مرغما على الإحاطة بالمرض بشكل تام، وإذا كان ينبغي على العلوم الأساسية أن تتقارب وتتحد على العيادة، فعلى هذه الأخيرة أن تمنعها، وتقوم دائما بتصحيح مواقفها المعدية، الضيقة. يرى الفيلسوف أنه علينا أن ندخل العلاج النقي الذي يعتمد على المعطيات الطبية العلمية، عبر المعلومات التي يمدنا إياها تاريخ المفاهيم المجردة، وطب الأمراض النفسية والعقلية، وكذا الأدب، حتى نصل إلى ترقية العلم بواسطة الأنثربولوجيا.

النتيجة الثانية: تتعلق بالفلسفة الطبيعية للطبيب، في اعتقاد الفيلسوف **داغوني**، أن مصدر الصراع بين التجريب الطبي والطب التجريبي، يكمن في التجريبية Empirisme الطب التجريبي(الذي وضع أسسه كلود برنار في القرن التاسع عشر، اعتمادا على فكرة أن على علوم الحياة أن تكون لها نفس المبادئ التي تتوفر عليها العلوم الفيزيائية و الكيميائية، وبالتالي يكون استعمالها للتجربة آليا).

هذه التجريبية التي تدخل في حد ذاتها، في الريبية أو الشكية – مثلما هو معلوم لدى الفلاسفة- إلى جانب ما تدخله من مختلف المفاهيم مثل الحظ، الثقة بالطبيعة وغيرها.[226]

إن شك الطبيب، ونزعته المادية الحذرة، ورفضه المعلن للوثوقية هي في نظر **داغوني** الخصال التي تؤسس صورة الروح في فينومنولوجيا(*) Phénoménologie النشاطات الإنسانية. ليس كصورة عظيمة أو بالأحرى طبية، لكن في هيئة عكسية تماما، إنه مآل فلسفي ذو مستوى راق يريد من خلاله الفيلسوف **داغوني** توضيح وتحليل وإعادة التنظيم الفلسفي للمعاني. في هذه الحالة، يرفض ترك الطبيب لنزعته التجريبية المخيبة، كما يرفض تركه للتحليلات

---

226 François Dagognet, Philosophie biologique, p. p. 104. 105.

(*) فينومنولوجيا Phénoménologie في المعنى العام:دراسة وصفيّة لمجموعة الظواهر، كما تتجلّى في الزمان أو المكان، بالتعارض إما مع القوانين المجرّدة و الثابتة لهذه الظواهر؛و إما مع الحقائق المتعالية التي يمكنها أن تكون من تجليّاتها؛ وإما مع النّقد المعياريّ لمشروعيّتها. وتقال بنحو خاص على منهج إ. هوسرل ونسقه.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج. 2، تعريب، أحمد خليل، ص. 973.

النفسية التي تجعل منه يرى الطبيب الجراح كشخص مصاب بعقدة أوديب. ويحاول التأكيد على أن الطب هو الذي يصنع الطبيب ولو كان العكس صحيحا، لحطم الطبيب الطب وعليه ينبغي أن يخضع لكل مقتضياته أي مقتضيات الطب.

على الطبيب أن يجول في كل أنحاء المعرفة و أن يتحمل المخاطر الناجمة عن ذلك إذا أراد أن يكون في مستوى هذه المهنة (الطب)، بمعنى آخر أن يتصرف كفيلسوف. هذا إن كنا نؤمن من أن التفكير ينمو من الإحتكاك المنجزات والمواد، خاصة منها مغيرّة الشكل، والتي تدرك في أعماق ثقافة متنوعة على حد تعبير **داغوني**.[227] فإذا كان هذا، هو الهدف أي الوصف والتبرير، لتفكير فلسفي طبيعي لا يُغلب، ومعبر عنه تجريبيا وشكيا بشكل محتشم، فإنه من الواضح إدراك عدم القدرة على متابعة تحليلات **كلود برنار** التي قنّنت البحوث التجريبية لمعهد علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا)، أكثر مما تسلط الضوء على الجدلية البيولوجية الواقعية التي يعيشها الطبيب في عمله.[228]

وهذا طبعا تأكيد من طرف الفيلسوف على رفض ما يسمى بالطب التجريبي والفيزيولوجيا حسب تصور **كلود برنار** الذي يقول في هذا الصدد صراحة: << أنا الذي أسست الطب التجريبي في معناه العلمي الصحيح.>>[229]

مما تقدم يمكن القول أن الفيلسوف **داغوني** أراد أن يوضح الأساس المعرفي الذي يمكن أن نقيم عليه ابستمولوجية خاصة بالطب، معتمدا على التمييز الواضح بين البيولوجيا وأهم فروعها الفيزيولوجيا، وبين الطب وأهم فروعه الباثولوجيا، واعتبار أن الأولى تنظر إلى الكائن الحي منه الإنسان على أنه مماثل للجماد قابل للحساب، وبالتالي الحياة تساوي الموت مثلما اعتقد **كلود برنار**، أما الثانية فهي المعبِّر الحقيقي على البعد الإنساني، لأنها ترتبط به تاريخيا، خاصة إذا علمنا أنها ترتبط بالمرض والمرض أنطلوجيا ظاهرة ملازمة للوجود الإنساني، أمر شكّل جزء من طبيعته باعتباره انسانا. وعليه، فإن الفلسفة البيولوجية التي يدعو إليها الفيلسوف **داغوني** هي فلسفة طبيعية، في صميم الصناعة الطبية.

ولكن مهما يكن فإنه من الصعب جدا التمييز بين فرعين من فروع العلم نظرا لتقاربهما، بالرغم من أن البيولوجيا من العلوم الحديثة الظهور والتطور، إلا أنها كانت دوما مرتبطة بالطب، بل أنه من الصعب تصور عمل طبي من غير أساس بيولوجي، والأكثر من هذا نجد أن الطب هو الأكثر استفادة مما تقدمه البيولوجيا من حقائق حول الحياة، خاصة في أيامنا هذه. وبالتالي إصرار داغوني علىإقامة ابستمولوجيا خاصة بالطب له ما يبرره من الناحية المعرفية ومن الناحية المنهجية. أما من الناحية المعرفية، فإن هناك تأكيد من طرف الفيلسوف على أن ما

---

227 François Dagognet, Philosophie biologique, P. 2.

228 Ibid, p.5

229 Dominique Lecourt, Dictionnaire de la pensée médicale, p. 718.

تقدمه البيولوجيا لا يجيب عن السؤال ما الحياة؟ وبالتالي هذا العلم غير قادر على صنع مفاهيم تعبر عن حقيقة الكائن الحي، حتى إن كان يبدو لنا في كل لحضة أن بإمكانه وضع ما لا نهاية من هذه المفاهيم، فإن طغيان الطابع الكمي الدقيق عليها يعبر أكثر عن الجماد منه عن الحياة والكائن الحي وعن الإنسان على الخصوص.

أما من الناحية المنهجية، فلكي لا تتعارض الحقيقة التي يريد داغوني بلوغها، وهي أن الإنسان هو سيد الطبيعة وهو سيد الحياة كذالك، كان عليه أن يثبت بأن البيوالوجيا وسيلة وليست هدفا، حتى ينقص من قدرة تحكمها في الكئن الحي الإنسان خاصة، من خلال التجارب التي تقيمها. ويثبت عدم إلمامها بكل جوانب الحياة، لأن الحياة مادة وروح.

الفصل الثالث

الفصـــــل الثالظ

موقف فرانسوا داغوني من التقنيات الطبية

1 - نظرته للطبيعة

ا) مفهوم الطبيعة عند داغوني
ب) موقفه من المذهب الطبيعي
ج) موقفه من الحركة الرومانتيكية
د) علاقة الإنسان بالطبيعة اليوم

2 - نظرة داغوني للكائن الحي

ا) ضرورة التناول الفلسفي للكائن الحي
ب) الكائن الحي والبيولوجيا

3 - البيوإطيقا في نظر داغوني

ا) ضرورة التقييم الفلسفي والأخلاقي للتطبيقات العلمية
ب) من البيوإطيقا إلى البيوسياسة Biopolitique Bioéthique
ج) موقفه من الإخصاب الصناعي، و الإجهاض
د) موقفه من الإستنساخ و من تقنية زرع الأعضاء
و) موقفه من الموت الرحيمEuthanasie

الفصـــــــل الثالث

موقف فرانسوا داغوني من التقنيات الطبية

1 ــ نظرته للطبيعة:

لا يمكن ضبط موقف الفيلسوف **فرانسوا داغوني** تجاه التقنيات الطبية، إلا على ضوء مواقفه من الطبيعة والكائن الحي. لا لأي اعتبار، إلا أنه يعتقد أن الموضوعين مرتبطين ببعضهما البعض. فتأمل الإنسان البسيط يوصله إلى إدراك هذه الرابطة. كيف يمكن أن نعزل الإنسان عن وسطه ؟ الطبيعة يعيش فيها ويأخذ منها ويقدم لها. وعليه لا يمكن فهم هذا الكائن الحي ولا فهم الحياة، إلا بفهم الطبيعة التي تضمهما. يقول **داغوني**:<< الحياة هي المخبر الأول للطبيعة.>>[230] La vie, est le premier laboratoire de la nature. وهذا القول على ما يبدو، يوضح أكثر تلك العلاقة بين الطبيعة والحياة. وقد تبين لي من خلال كتابيه طبيعة Nature والكائن الحي Le Vivant أن الفيلسوف وهو يتحدث عن الطبيعة، فهو يشير بما في ذلك إلى الكائن الحي كعنصر أساسي ضمن هذه الطبيعة، التي تضم في طياتها كل الكائنات الحية. وعملية عزل الكائن الحي- خاصة منه الإنسان- عن الطبيعة أمر غير ممكن، نظرا لعلاقة التأثير والتأثر بينهما. ولكن في الأخير يعطي الفيلسوف الأولوية للإنسان ولتأثيراته المستمرة على الطبيعة مؤكدا تحكمه فيها أكثر فأكثر. وهو يتحكم فيها أي في الطبيعة يكون قد تحكم بصفة تامة في الحياة. وهذا ما يبدو من خلال كتابه الهام، L'homme, maître de la vie? .

ا) مفهوم الطبيعة:

إن مفهوم الطبيعة في نظر الفيلسوف **داغوني** هو من أصعب المفاهيم تحديدا. يرجع هذا للمعاني التي يمكن أن تحملها هذه الكلمة، والمتزايدة من عصر إلى آخر.وفي الوقت نفسه، توسع حلقة النقاش حولها، واشتغال اللاهوتيين والفلاسفة والعلماء والتقنيين والأخلاقيين والحقوقيين والأطباء وعلماء العمران، بها. إن صعوبة ضبط مفهوم الطبيعة في نظر **داغوني** يمكن تذليلها وذلك بمعرفة ما يقابلها ويضادها من المعاني.

من هذه المفاهيم المقابلة لها، الصناعي L'Artifice الذي نلجأ إليه غالبا لإخفاء أو تجنب أو تعويض النقص الموجود في الطبيعة. أمثلة كثيرة يقدمها الفيلسوف عن التغييرات التي أحدثها الإنسان لتحقيق هذا الغرض. الطبيعة أعطت للإنسان يدا، أسنان، وأرجل وغيرها لكن

---

230 François Dagognet, Rematérialiser Matière et Matérialisme, p. 241

الإنسان يمتلك الوسائل كالسكينة والمطرقة والمنشار وغيرها من الوسائل. حتى المزارع التي ينشئها الإنسان، في الحقيقة الغرض منها هو إصلاح مظهر القبح الذي تتصف به الطبيعة.[231]

من غير شك، أن مفهوم الطبيعة يناقض كذلك مع مفهوم العقد أو الميثاق أو القواعد Convention. Règle. فالطبيعة تشير إلى ما لا يقبل الاختزال أو الإنقاص L'irréductible، كما تشير إلى الثابت Constant، إلى ما هو دائم Immuable. أما العقد فهو من وضع الإنسان، وبالتالي فهو ذو معنى اعتباطي، فهو يتغير بتغير الزمان والمكان. يتساءل الفيلسوف فيما إذا كنا نستطيع الاحتفاظ بهذه الثنائية مثل ما هو الحال في عبارة " الحق الطبيعي". Droit Naturel [232] وهو المبدأ الأساسي الذي تستمد منه القوانين الوضعية معقوليتها. قال **دولباخ** D'holbach Pierre Henri (1723-1789م) فيلسوف فرنسي من أصل ألماني:<< أيتها الطبيعة إن لك على جميع الموجودات سلطانا، فلتكن بَناتُكِ المعبودات، أعني الفضيلة والعقل والحقيقة، آلهتنا الوحيدة دائما.>>[233] فالحق، ضروري، ومعقول وعالمي، في نظر الفيلسوف إنه مستنبط إما من الكون ونظامه أو من الإنسان وأهوائه.

يمكن مقابلة مفهوم الطبيعة، بمفهوم أكثر وضوحا، ولا ترفضه الفلسفة، وهو الوسيلة أو الآلة أو الأداة. لكن تعارضه الثقافة أحيانا، فبالنسبة إليها هو رمز للهمجية والفساد، ولذا نستعين بالطبيعة ضد الآلة. بالرغم من هذه المقابلة التي عرضها الفيلسوف يبقى معنى الطبيعة غير واضح بشكل تام، ذلك لتقاربه مع معان كثيرة قريبة منه مثل: الكون، العالم، الأشياء، الكوسموس. وبالرغم من تشابه كلمة طبيعة مع هذه الكلمات إلا أنها متميزة عنها لأنها لم تلبث حتى توسعت، وأصبحت تدل عما هو، الأصل، التلقائي،طريقة في الوجود، الجوهر، قانون الكون، النظام العالمي،الحقيقة الكاملة وكل هذه المعاني يقابلها العرضي أو الحادث، أو الصدفة أو الوضع، أو المصطنع أو الإنساني.[234]

يعتقد **داغوني** أن الكلمة المنافسة لكلمة طبيعة هي كلمة العالم Le monde Mondus، وهنا يشير إلى رأي **أندريه بيليسييه** (*) André Pellicier الذي يرى بأن المتتبع لفقه اللغة، والأمثلة الكثيرة، يمكن استنتاج الفرق الأول في استعمال هذه الكلمات، يبدو أن كلمة العالم وليس الطبيعة، هي المفضلة، حين ندخل الإعتبارات المكانية وبصورة عامة الواقعية (شكل، حدود الكون) فالعالم هو الكون الواقعي، الحقيقي، أما الطبيعة، فبالرغم من واقعيتها إلا أنها تبقى دائما مجردة.

---

231 François Dagognet, Nature. Librairie philosophique, J.Vrin, Paris,1990, p. 9
232 Ibid, p. 11
233 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 2،ص. ص. 14.15
234 François Dagognet, Nature, p.19.

وإذا رجعنا إلى كلمة مادة Matière، والمتبوعة بنتيجتها الطبيعية وهي اللزوم والضرورة، فإنها تعني كذلك الواقع الحقيقي. ولكن تنقصها العفوية وكذا مبدأ الحياة، الذي نلاحظه في عمق كلمة طبيعة. إن هذا الموصوف الذي نعني به (الطبيعة) في نظر **داغوني** والذي نميزه عن العالم والمادة، يكون قد نجح في التركيب بين كونه الخالق (الموجِدُ) أو المتسبِبْ، وفي الوقت نفسه، ما لا يتغير أبدا، والأكثر من هذا، هو ما لا مفر منه، أي محتم وما دامت الطبيعة تحمل في طياتها النظام، فمنه تعود دائما مثلما كانت بالرغم من أنها تعرف التغير والتنوع.[235]

أما الموصوف، كوسموس أو الكون وكل ما يحتويه. هو كذلك قريب من كلمة طبيعة، والذي نجده على الأقل في علم الكونيات Cosmologie. إنه يؤكد أكثر على المظهر الجمالي (الإستيتيكي) للطبيعة. ولذا كان يعني في الأول عند الإغريق زينة Ornement أو حلية النساء Parure .ثم انتهى إلى معنى الجمال أو الاستوائية أو النظام، وأخيرا السماء. يبدو أنه يشكل في الأخير إحدى جوانب الطبيعة.

مهما يكن فإن الكلمة (طبيعة) لها كثير من الإستعمالات، وكثير من المترادفات، مما يجعها غامضة، غير محدودة. إنها في نظر الفيلسوف **داغوني** تنتمي إلى الكلمات اللينة، الرخوية أو المطاطية إن صح التعبير، بحيث يمكن أن يعطى هذا المفهوم (طبيعة)، لشخص أو للجميع، لجنس، أو حتى للكون. ويمكن أن يكتفي بالإشارة إلى شيء، أو أشياء أو معطى.
كما يمكن له أن يصل إلى احتواء معنى الطريقة في الوجود والمبدأ الداخلي. إن هذه السعة ناتجة، من دون شك، في اعتقاد الفيلسوف، عن الغنى الذي تتصف به الطبيعة. يبدو أن هذا المفهوم يعني الشيء(في الذات) وقد كان من قبل يعني الشيء بالذات. فهو في الوقت نفسه الشيء وصانعه "à la fois une chose et ce qui la produit" إنه متوّج ومزيّن بمفهوم الحياة.[236]

ولتلخيص كل هذا، علينا أن نميز في الأخير بين الواقعي، وبين العالم والكون والمادة والطبيعة. أما الكون فيعني النظام الفلكي كله. أما العالم فهو الأرض وهو جزء من الكون. أما المادة، فهي المُكون القاعدي الذي لا ينفصل عن القوانين الفيزيائية التي تتعلق بها.
من بين هذه الكلمات موضوع التساؤل الطبيعة Nature، جزء من الواقع ليس من خلال مكوناته (المادة) فحسب، بل لأنه يحتوي على الكائنات الحية.إن الطبيعة في نظر الفيلسوف

(*) أندريه بيليسييه André Pellicier فرنسي متخصص في علم الإشتقاق Etymologie له كتاب. Etude sémantique et historique du mot latin

235 François Dagognet, Nature, p. 20.
236 François Dagognet, Nature, p. 21.

دائما تفاجئنا بعظمتها وقوة تنوعها، ونظامها. أما الواقعي، فهو يحتوي على كل ما سبق إحصاؤه من قبل (الكون، العالم، المادة، الطبيعة). هذه الكلمة الأخيرة، تطبع الكل بصفة الغنى، فهي تعني الكمال، التجدد الذي لا ينفذ والفريدُ من نوعه، والمتعذر تقليده ولذا نجد الكثير من الفلاسفة القدامى منهم أو المحدثين قد وضعوها في قمة الصنوبرة وتمثل المادة رأسها فقط.[237]

ب) موقفه من المذهب الطبيعي:

يعرض لنا الفيلسوف **داغوني** نماذج من الفلاسفة الطبيعيين اليونانيين الذين تحدثوا عن الطبيعة والوجود، وقد أراد الفيلسوف من ذلك بيان كم كان اليونانيون يقدسون الطبيعة.
حين كان الإغريقيون لا يتوفرون على الوسائل التحويلية التي نمتلكها نحن اليوم، دفعهم هذا في نظر "**داغوني**" إلى إبرام عقد مع الطبيعة الحية ومصالحتها والتوافق معها إلى درجة الذوبان فيها، وقبولها وهذا لعدم القدرة على محاربتها أو تغييرها. يتساءل **داغوني** إن كان لهم خيار في ذلك، إلا الدفاع عن هذا العلاج الكوني أو الطبيعي Cosmothérapie الذي مر عبر الأزمنة.

حقيقة يعتقد الفيلسوف أنه كان بإمكان الإغريق أن يسلكوا طريقا آخرا غير الذي سلكوه. بالفعل إذا صدّقنا المؤرخين، كان الإغريقيون قادرون على تطوير عقلية الهيمنة، واستغلال أول الآلات، وبالتالي إخضاع العالم لإرادتهم. لكن نتيجة تمسكهم بالتوازن والنظام، وخوفهم من تجاوز الحدود، باستعمال تقنيات لا يتحكمون فيها دوما، والتي يمكن أن تستقيل وتسيّر نفسها بنفسها. فضلوا **العيش في وفاق مع الطبيعة،** إن مذهبهم الطبيعي في نظر الفيلسوف **داغوني** يسجنهم ويوصدهم. ومما يفسر أكثر ذلك التردد في استغلال الطبيعة في نظر الفيلسوف، توفر اليد العاملة. وكذا تصورهم ونزوعهم لمجتمع من غير عنف ولا اضطراب، أو الوصول إلى ما لا يستطيعون التحكم فيه. باختصار هو الخوف من الإفراط La peur du démesuré.[238]

إن الموقف العام للإغريقيين في نظر **داغوني** و المتفق مع توجه مفكريهم، متأت من اعتبار الطبيعة – بمجرد التأمل فيها- تبدو لنا كلاً منسجما، جميلاً، لا ينبغي التشويش عليه أو إفساده. وهو بدوره (الطبيعة)، يضمن لهم الراحة والهناء ومنها يستلهم الحي أو المدينة، وإلا عليهم الاعتماد على العقود والمعاهدات والاتفاقات، التي لا نثق فيها وبالتالي لا تكون شرعية. إن الاستقرار في نظر الإغريق هو المسلك الجيد للكون مُحكَم ومُنظَم من طرف الآلهة، يكون نموذجا يُقتدى به. وهذا ما يبرر شعار الرواقيين "عش في وفاق مع الطبيعة ".

---

237 Ibid, p. 125.

238 François Dagognet, Nature, p. 22.

يترتب عما سبق، أن الطبيعة منظمة وأن روح العالَم L'âme du monde تضمن وحدتها، وتماسكها. إنها نتاج "روح خفي"، وبنفس الطريقة، يتحوّل الكون إلى الحي في ذاته.[239]

من بين النصوص التي اختارها الفيلسوف **داغوني**، و التي تؤسس في اعتقاده المذهب الطبيعي، ما جاء في كتاب طيماوس (*) Le Timée للفيلسوف اليوناني **أفلاطون** Platon 427/428-348 ق.م. يقول **أفلاطون**:<< منزه عن كل رغبة، خلق الله الكون وأراد أن يكون كل شيء يشبهه. وأراد أن يكون كل شيء جميل. خير، ولا شيء سيئ وشر.أخذ كل شيء مرئي يتحرك دون قوانين ولا نظام، ثم حوله من اللا نظام إلى نظام. وفضل هذا الأخير لأنه هو الأحسن.>>[240] بشكل مختصر يعلق الفيلسوف **داغوني** على هذا القول، ويرى أن الله وضع الفكر في الروح ، ثم وضع الروح في الجسم، هكذا خلق العالم. ومن خلال نصوص أفلاطون الغنية بالحديث عن الطبيعة استنتج منها **داغوني** هذه الخصائص.

فهي أولا بالنسبة **لأفلاطون** الفريدة من نوعها ويقول في هذا:<< حتى يكون عالمنا بكليته مماثل لـــ "**حيوان**" كامل وتام ويقصد به الطبيعة، لم يخلق الصانع منه اثنان، ولا عددا غير محدود. لم يولد إلا هذه السماء الوحيدة، ولن يولد أبدا أخرى.>>[241] لقد أراد **أفلاطون** أن يثبت كروية الطبيعة، لأن الدائرة في نظر **أفلاطون**، هي الشكل الذي ليس له بداية ولا نهاية، فهي أكمل الأشكال، لأنها تُفلتُ من المحدودية والتناهِ. وأن كل المسافات ابتداء من حدود الدائرة إلى مركزها متساوية، وهذا يبعد تأثير اللا تماثُل أو تأثير التباين على هذا الأساس، ويكون بذلك قد أعطى للطبيعة أفضل شكل على الإطلاق في نظره. يشير داغوني إلى أن هذا الحيوان " الطبيعة " الذي لا يملك أعضاء، منطوي على نفسه، يتميز بالتوجيه الذاتي، لا شيء يتسرب إليه ولا شيء يخرج منه. وبالتالي إنه بواسطة هذه الكروية، يؤكد كماله، واستقلاليته الكاملة.

إن الإله بهذا الشكل في نظر **داغوني** يكون قد أكد تجانسه ووحدته، حتى لا يتعرض لأي تأثير يمكن أن يفسده. يعرض **داغوني** في هذا الصدد قول **أفلاطون**:<< أنه يكور ويصقل أي الله كل سطحه الخارجي(أي سطح الحيوان أو الطيعة)، لأسباب كثيرة، لأنه ليس بحاجة لا إلى

---

239 Ibid, p. 23.

(*)كتاب طيماوس Le timée هو المؤلف العلمي رئيسي، فيه يعالج أفلاطون العلم لا بمعناه الضيّق المحدود، بل باعتباره بحثا في الكون، و قد ظلت محاورات طيماوس آلاف السنين- في نظر كثير من الشراح- تمثل الحكمة الأفلاطونية. و قد سميت محاورات طيماوس باسم المتكلم الرئيسي فيها طيماوس اللوكريشي، وهو شخصية يتعذر اثبات وجودها.

- جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة، توفيق الطويل و آخرون،ج. 3، ص. ص. 54.55.

240 François Dagognet, Nature, p. p. 23. 24.

241 François Dagognet, Nature, p.24.

البصر (الأعين) لأنه لم يبق شيء مرئي خارج إطاره. ولا بحاجة إلى أذنين، لأنه لا يبق شيء حتى يسمعه. أما اليدين، فإنها لا تفيد في شيء، لا في الإمساك، ولا في إبعاد أي شيء، وبالتالي رأى أنها غير ضرورية حتى يضيفها له. ويصدق هذا على الأرجل، أو أي عضو يستعمل للتنقل.>>[242]

إن القارئ المعاصر في نظر **داغوني** يجد هذا العرض وهذا الوصف للطبيعة، هذا الحيوان الماورائي Méta-Animal غريبا نوعا ما. حيوان من دون حواس، ولا أرجل ولا أيدي. محبوس في دائرة خاصة، ذلك أن **أفلاطون** يفضل استعمال لغة المجاز Langage Imagé.

لقد أرادت الحكمة أن تكشف عن جوهر هذه الطبيعة، في الوقت نفسه باطنها وجانبها الخارجي، لكن الأول (أي الباطن) هو الذي يوجّه الثاني، لأنه يتضمن كل شيء، نفهم من هنا ليس هناك شيء في نظر **داغوني** خارج إطار هذه الدائرة يمكن أن نفهم به هذه الطبيعة، وبالتالي، معرفة هذا البناء المعقول، الإله المرئي، المحسوس. إن **أفلاطون** في نظر الفيلسوف، يعترف بذلك (عدم القدرة على معرفة الصانع)، من خلال ما جاء في محاورات **طوماوس**، والدليل قول **أفلاطون**:<< أما الصانع و أب هذا الكون، فمن الصعب العثور عليه، وبعد العثور عليه، يكون من الصعب تعريفه للآخرين.>>[243]يتساءل الفيلسوف **داغوني**، إن كنا نستطيع أن نستنتج من كل هذا أن وجود الطبيعة يستلزم وجود خالق، أو عناية إلهية؟

يعتقد **داغوني** أنه بالرغم من الأدلة القديمة والسابقة لأوانها، تأتي مؤخرا النظرية الداروينية، التي تُبعد هذا الاعتراض المدمّر. بالفعل مضمون النظرية يتمثل في تقرير أن الأكثر توازنا، والأكثر انسجاما، يكون له التفوق وفرض بقائه. وهذا نتيجة تكيفه ونظامه الذاتي. فإذا استثنينا المُشَكِّلْ (الصانع)، فإننا لا نستطيع استبعاد فكرة العالَم المتناسق والمتماسك وهو الطبيعة. إلا أن **أفلاطون** لم يتبّع هذه الطريقة، إنه يركّز اهتمامه على السبب أو العلّة التي شكّلت الكون، إنه يتوغل أكثر في تفاصيل نشاطه أي نشاط الإله، ويبيّن لنا كيف يصور الروح وجسم الكون. في نظر **داغوني** يسوي **أفلاطون** بين الشيء نفسه والآخر، أي الطرفين، أو بالأحرى بين، ما لا يقبل القسمة، وما يقبلها. حتى يتحصل على خليط، الذي يعيد من جديد مزجه، ثم قام بتقسيمه، ثم إعادة خلطه، وأخيرا تقسيمه إلى اثنين. حتى يُوصل السلسلتين ببعضهما ويشكّل دائرة. و بهذا تكون الطبيعة في نظر **داغوني** قد وُلِدت من اتفاق.[244]

---

242 Ibid, p. 24.

243 François Dagognet, Nature, p. 25.

244 Ibid, p. 25.

لذا يعتقد أن كل قطعة من هذا الوجود نتاج من النظام نفسه. ويقدّم الفيلسوف ثلاث مستويات مختلفات أين يمكن ملاحظة ذلك:

عند تأملنا جميع الحركات السماوية، نلاحظ أن صِقالة(هيكل البناء) الكون، هي التي تكوّن بالتأكيد الجانب الأكثر سموًا.اعتقد **أفلاطون** أن الأرض ثابتة وأنها مركز الكون (مركز النظام الفلكي)، وهي تتخذ الشكل الكروي، مساوية للعالم بكليته. كما أننا نعرف- هنا يتحدث **داغوني** عن نظرة أفلاطون- أن الخالق شكّل حزامين كبيرين متقاطعين، أحدهما وضع في الخارج و يقوم بحصر الأخر. إذن هناك دائرتان تتداخل أحداهما مع الأخرى. لكن الدائرة الداخلية مقسمة إلى حلقات تمثل مدارات الكواكب، أما الخارجية فهي لا تعرف القسمة أو التفكك (فلك الثوابت). وفي النهاية تكون السماء مكونة من ثمانية أفلاك مجتمعة. شبيهة بالوحدات الموسيقية الثمانية. هذه الأفلاك في حركتها تمثل بالنسبة لـــ **داغوني دروع الطبيعة**.

لم يتأخر الإغريقيون عن عبادة الطبيعة، إنها تمثل الانتظام الجميل، إنهم يمتثلون لها في جميع نشاطاتهم السياسية والقانونية، حتى الصناعية، وكذا في مجال المِلاحة، والزراعة والطب على وجه الخصوص. كل هذا في علاقته وانسجامه مع الفلك والنجوم والفصول والكائنات الحية. إنها في نظر **داغوني** نظرية في الطبيعة يروق لها ربط السماء والأرض.[245]

ــ المستوى الثاني هو الإنسان (روح وجسم) الذي يتم نحته وفقا لنفس المبادئ. ولكن إذا كان هذا مذهب اليونانيين، والذي تجاوزه الزمن. أليس هناك مسألة تفرض نفسها دائما، وهي: ألا ينبغي إقامة حدود ينبغي علينا إحترامها؟ ما هو الشيء الذي ينبغي منعه في مجتمع معاصر وصناعي؟ ما هي علاقة الإنسان بالعالم؟

أسئلة يطرحها الفيلسوف، على الفلسفة أن تجيب عنها حتى تتضح أكثر علاقة الإنسان بالطبيعة اليوم، والتي من دون شك في نظره متغيرّة.

يرى الفيلسوف **داغوني** أن وقت الخضوع للطبيعة والذي دام لقرون طويلة قد اتهى خاصة مع المذهب الطبيعي Naturalisme الذي يبني اعتقاده على أن الطبيعة هي الوجود كله، وأنه لا وجود إلا للطبيعة، أي للحقيقة الواقعية المؤلفة من الظواهر المادية المرتبطة بعضها ببعض، على النحو الذي نشاهده في عالم الحس والتجربة. ومعنى ذلك أن المذهب الطبيعي يفسر جميع ظواهر الوجود بارجاعها إلى الطبيعة، ويستبعد كل مؤثر يتجاوز حدود الطبيعة ويفارقها ويسمى أصحاب هذا المذهب "بالطبيعيين" Naturalistes.[246]هذا المذهب الذي كان يقوم بالدور الواقي

---

245 François Dagognet, Nature, p.26.

246 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 2، ص. 17.

لها، لم يمنع من تحرك المجتمع في اتجاه مخالف. بمعنى إذا نظرنا إلى ما يدعوا إليه الطبيعيون، من الحفاظ على الطبيعة، ليس له تأثير إذا ما نظرنا إليه من الناحية الواقعية.

ج) موقفه من الحركة الرومانتيكية:

من الحركات التي إنتقدها الفيلسوف **داغوني** بشدة، والتي كانت معارضة للتطور العلمي والتقني، الحركة الرومانتيكية أو الرومانسية (*) Romantisme يذهب الفيلسوف **برتراند رسل** Russell Bertrand (1872-1970م) في كتابه "حكمة الغرب"، إلى أن التطور في مختلف الميادين العلمية، أدى إلى تفتيت الميادين العقلية إلى أجزاء تزداد نطاقا ضيقا بالتدريج، نتج عنه في العصر الحاضر ارتباك حقيقي في لغة الحوار. وقد سبق أن أثار هذا التقدم العلمي رد فعل عنيف تمخضت عنه الحركة الرومانتيكية، التي وقفت ضد الأضرار التي بدا
أن التقدم العلمي يلحقها بالإنسان. فقد بدا لأصحابها أن الأسلوب العلمي يخنق روح الحرية، والمغامرة التي لا يستغني عنها الفنان.[247]

تعنبر الحركة الرومانسية ثورة على المعايير الأخلاقية و الجمالية الجارية آنذاك. وقد كان المثقفون في فرنسا خلال القرن الثامن عشر معجبين إعجابا كبيرا بما كان يدعونه" الحساسية "وكانت تعني النزوع إلى العاطفة وبالأخص إلى عاطفة التعاطف. كان الرومانتكيون، وقد احتقروا الراحة و السلامة، على أساس أنها تحط من قدر الإنسان. فقد سئم الناس في أيام **جان جاك روسو** Jean-Jacques Rousseau (1712-1778م). (فيلسوف وعالِم اجتماع فرنسي، وهو الشخصية الأولى العظيمة في الحركة) الأمن وأصبحوا يفضلون العيش في خطر دفعهم هذا إلى البحث عن المغامرات بدلا من السعي إلى البحث عن الأمان رأوا أن الحياة المعرضة للخطر هي الأسمى.[248] لقد أولوا اهتماما وقيمة خاصة للاحتفاظ بالصلة الوثيقة بالطبيعة.[249] وهو أمر يرفضه **داغوني** من خلال موقفه من الطبيعة.

(*) الرومانسية Romantisme . يطلق اصطلاح الفلسفة الرومانسية على فلاسفة الألمان الذين عاشوا في آخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر. أشهرهم: فيختة، شلينج، شوبنهاور، و هيغل. الرومانسية في الأدب ضد الكلاسيكية و في الفلسفة تعرف خصوصا بردَّةِ فعل ضد روح القرن الثامن عشر و مناهجه، وبالأخص ضد الـــ "Aufklarung" أو عصر التنوير.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب، خليل أحمد خليل، المجلد الثالث، ص. 1225.

247 برتراند رسل، حكمة الغرب، ترجمة، فؤاد زكريا، ج. 2، ص. 193.

248 برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث ، الفلسفة الحديثة، ترجمة، محمد فتحي الشنطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م، ص. ص. 273. 276.

249 يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، ص. 109.

ابتداء من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، أخذ الإنسان شيئا فشيئا في تحويل الطبيعة، إن عصر التواكل والاقتناء من خيرات الطبيعة في نظر الفيلسوف قد أنتهى. إنها ثورة كوبرنيكية على حد تعبيره. ثم يتساءل إن وجد العالم يوما ببراءته، وبسخائه المفرط؟ إنه كان منذ البداية مهيّئًا ومُشكّلاً من طرف الإنسان. لكي يوضح الفيلسوف هذه الفكرة أكثر، يعرض علينا مثالا عن حقيقة توصل إليها الفيلسوف **روسو** حين أقدم على البحث عن نبتة طبيعية أصيلة في الغابة، لم يخف حيرته، لما وجد أن الحقول والبساتين قد أفسدت كل شيء. وقد أخذ عنه **داغوني** هذا القول:<< الإنسان جرّد الكثير من الأشياء من طبيعتها لكي يحوّلها إلى خدمته.>>[250]وهذا يخالف نظرة المذهب الطبيعي، الذي يعتقد أن هناك طبيعة خالصة لم تتعرض للتغيّير، أي بقيت هي هي. هذا أمر تكذبه الدراسات التي تظهر على العكس من ذلك، أن الطبيعة تعرضت لتغيرات تاريخية كبيرة، بحيث أصبحت ذات مظهر فني أكثر منها طبيعي، فلم يبق هناك نبات طبيعي ولا حيوان طبيعي.[251]

إن هذه النزعة (الطبيعية) كانت لها إمتدادات و بقيت إلى يومنا هذا. يمكن في هذا الصدد الحديث عن الفيلسوف والبيولوجي الفرسي **جون روستان** Jean Rostand (1894-1977م) الذي يتبنى فكرة الدفاع عن الطبيعة، وذلك بدعوة الإنسان إلى حماية الطبيعة من نفسه، لأن الإنسان وهو يحمي الطبيعة يحمي الإنسان في الوقت نفسه، ويكون قد حقق نوع من الوقاية الكونية. ثم إن الطبيعة تحتوي على كثير من موضوعات البحث إذا إنقرضت بسبب تدخل الإنسان، تذهب معها صورة ذلك المتحف المثير لفضوله.ثم إلى جانب ذلك تعتبر الطبيعة بالنسبة للكثير من الناس خاصة منهم الفنانين والشعراء، ملجأ لهم لأنهم يجدون فيها كل معاني الأصالة والسلام والحقيقة. ويحذر روستان من العالم الذي تغزوه البنايات والآلات، ان يصبح عالما من غير ربيع.[252]

ربما لم يكن الفيلسوف **روستان** وحده المدافع عن الطبيعة، من تجاورات الإنسان بإستعماله التقنية، بل أننا نجد الكثيرين منهم أمثال **إريك فروم** يقول إريك فروم في كتابه الإنسان بين الجوهر والمظهر:<< جعلنا التقدم العلمي وكأننا عالمون بكل شيء، كنا على الطريق لكي نصير أشبه بالآلهة. أي كائنات عليا قادرة على خلق عابر آخرلا تستخدم العالم الطبيعي إلا كأحجار لبناء عالمنا الذي هو من خلقنا.>> [253]

---

250 François Dagognet, Nature, p. 126.

251 Robert Damien (Sous la Direction), François Dagognet, Médecin Epistémologue Philosophe, p, 116.117.

252 Jean Rostand, Pensées d'un biologiste, Edition, Gallimard, 1940, p. p. 36-38.

253 إريك فروم، الإنسان بين الجوهر و المظهر، ترجمة، سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد، 140، أوت 1989م.، ص. 16

فالتقدم التكنولوجي في نظره وما ينجم عنه من مخاطر إيكولوجية ومخاطر نووية. يمكنها أن تكون سببا في إنهاء كل أشكال الحضارة على وجه الأرض. إن المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة.[254]

إن من نتائج هذه النداءات – كما هو ملاحظ- ومنذ حوالي ربع قرن، ازداد إنشاء حظائر جهوية ووطنية من أجل حماية الحيوانات والنباتات، حماية الطبيعة من مخلفات التصنيع، من مواد سامة، وزحف البنايات، واستهلاك مياه المستنقعات والأنهار، تلويث الجو و غير ذلك. كل هذا أمام عجز وسكوت المؤسسات الخاصة بحماية البيئة. حتى حماية الآثار والمناظر الطبيعية الفنية كان لها قيمة. كل هذا أدى إلى إنشاء وزارة البيئة بفرنسا سنة 1971م. وانتشار فكرة الاعتناء بالبيئة على المستوى العالمي، بل إلى الإهتمام بالبيئة سياسيا، وقانونيا، حيث أنشئت الأحزاب السياسية تعتمد برامج وأفكار للمحافظة على البليئة، مثل جمعية الخضر Les verts وتأسيس كبرى الجمعيات العالمية المدافعة عن البيئة والطبيعة مثل برنامج الأمم المتحدة للبيئة(*) UNEP، جمعية السلام الأخضرGreen Peace كما وضعت برامج في التربية البيئية ضمن المنظومة التربوية في كثير من البلدان

إن هذه الإجراءات من دون شك هي استجابة من أجل حماية "المركب البيولوجي". إلى درجة تجميد مناطق بكاملها، وتحويلها إلى حظائر. ومنع قطع أي نبتة داخل أو خارج هذه الحظائر. منع الصيد، منع التنقل بالسيارات، منع الضجيج، منع في بعض الحالات أخذ صور...الخ. يقول **داغوني**: << لقد بدأت ترتسّخ عقيدة عدم المس على نطاق واسع.>> Une Religion de L'Intouchabilité.[255]

يتساءل الفيلسوف فيما إذ كان الأمر يتعلق في هذه الحالة باقتصاد أم بتكديس واكتناز لثروات الحياة؟ ألا يشبه هذا سياسة الأرض المحروقة؟ لقد احتجزنا بهذه الكنوز وأقمنا عليها الحصون، وكأن هنالك بجانبها لصوصا أو مبذرّين، يريدون النيل منها أو الربح من خلالها. الحياة تبدو في شكل "متحف مصمم". Muséographiée وهذا ليس هو الحل الملائم. **إذن ما هو الحل في نظر داغوني؟**

د) علاقة الإنسان بالطبيعة اليوم:

---

254 المرجع نفسه، ص. 22.

(*) برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP تأسس سنة 1972م، و هو هيئة رئيسية تابعة للأمم المتحدة في مجال البيئة، مهمتها دعم و تشجيع الشراكة في الإهتمام بالبيئة و تمكين الشعوب من تحسين ظروفهم دون تعريض الأجيال القادمة للخطر.

255 François Dagognet, Le vivant, p. 157.

إن التأمل في الطبيعة اليوم يُظهر جليا، في نظر الفيلسوف، أن الذي أبدعه الإنسان فيها، أكثر وجودا من الذي اكتشفه وتأمله. إن العمل يقوم مقام الكائن. يعتقد **داغوني** أن وظيفة العالِم تجسيد القوانين وينتج عن ذلك أشياء وموجودات لا يمكنها أن تكون من دونه. ببساطة، لم يعد المخبر يتأمل بل يصنع[256] Le Laboratoire crée il ne contemple plus يستدل الفيلسوف **داغوني** بنظرية **شارل دارون** وهي النظرية التطورية، التي أعطت للطبيعة تعريفا جديدا، بحيث أصبحت لا تُعرف بالثبات ولكن بالتغير. فالطبيعة في كلّيتها تتنوع (تنوع المناخات، الإنجرافات، التقبُبّاتSurrections). حتى أن ممثل الطبيعة الأساسي وهو الكائن الحي، يتحرك ويتغير.

لقد كان يُعتقد أن إعادة الكائن الحي سواء كان إنسانا أو حيوانا، إلى الطبيعة، يرجعه هذا إلى حالته البدائية، ولكن الواقع يكشف عن غير ذلك. فالحيوانات الأليفة كالأبقار والطيور وغيرها، لا تجد أبدا وحشيتها الأولى، بل تحافظ على حالتها التي رسخت فيها ولا يمكنها العودة إلى الوراء. بالنسبة إلى **دارون** الثقافي يغيّر الطبيعي بشكل عميق.[257] فالطبيعة تم تجاوزها بالنسبة إلينا."La nature est dépassée pour nous" على حد تعبير **داغوني**، ومن الواضح أنه ينتقد الفيلسوف **برغسون**، الذي ظل يعتقد أن الطبيعة لا يصيبها الخلل.

يعتقد **داغوني** أنه ليس هناك أكبر خدعة من اعتبار الطبيعة منسجمة متزّنة، تتصف في جوهرها بالحكمة، يمكن تبرير وبشكل تام فكرة أن الطبيعة خطر، تشوبها الفوضى، قاسية وغاشمة. لا شيء من هذه الصور الوهمية، الخرافية (كالاتزّان والانسجام والانتظام) يوجد في الطبيعة.[258]وهذا ما يظهر من خلال مواقفه من الطبيعة في كثير من مؤلفاته فقد ذكر في كتابه La raison et les Remèdes أن الطبيعة ذلك المخزن الكبير الذي لا ينفذ، يحتوي على كل شيء، النافع و الضار. [259]

ولا شك أن الطب التطبيقي يمكنه توضيح هذه الأخطار سواء منها الواقعية أو المُحتملة (المُفترضة) التي تحملها الحيوانات أو النباتات. ففي القرن السابع عشر إلى الثامن عشر ازدادت الدعوة إلى توخي الحذر لأن المواد كالفطر والسمك والمعادن يمكن لها أن تشفي، كما يمكن لها أن تهلك. و لذا علينا أن نحسن النظر والكشف عما هو نافع مما هو ضار. فالزهور الأكثر لطافة، والحيوانات الأكثر هدوءا تتحول إلى سموم قاتلة. وحتى نوضح هذه الفكرة هناك مثال يقدمه الفيلسوف من بين ما جمعه **بورتال** Portal حول مُزارع كان يستعمل زهرة القمح Fleurs de Coquelicot والتي تستعمل في صنع الحبر وبعض أنواع الطلاء. يقع هذا

---

256 François Dagognet, Nature, p.163.

257 François Dagognet, Nature, p. p.147.148.

258 Rojer-pol droit, (Propos recueillis), les grands entretiens du monde, Penser la philosophie, p. 24.

259 François Dagognet, La raison est les remèdes, p. 7.

المزارع مريضا ويموت، وبعد تشريح جثته يُعثر في أحد تجاعيد المخ على بقع سوداء مثل الحبر ورائحة كريهة. هذا يبين من دون شك خطر الطبيعة على الإنسان. [260] فماذا ننتظر من الإنسان فعله؟

إن الحياة ترشح وتقطر الكوكب الأخضر، الغابات والحقول، تقوم بعملية الكيمياء الضوئية Photochimie، فهي تمتص كيميائيا الطاقة الشمسية، لكن كل هذه الظواهر، اللاإنسانية، سوف يتم تجاوزها حين يصل الإنسان إلى المرحلة الثقافية.

الطبيعة تريد حقيقة أن تمارس الكيمياء ولكنها خلقت الكيميائي.[261] ما يعنيه هذا القول بالنسبة إلى الفيلسوف **داغوني** هو من جهة تحكّم الإنسان في الطبيعة ومن جهة أخرى، يوضح موقف **باشلار** المتمثل في الجمع بين الكون والمخبر، وهو أمر يستحسنه الفيلسوف.

إن ثورة **داغوني** على الثنائية أو الفلسفة (الإثنينية) قادته إلى عدم التمييز بين **المادة والحياة**(ربما هذا يذكرنا بموقف الطبيعيين الأوائل الذين اعتقدوا أن المادة حية) وذلك ليس بإرجاع إحداهما إلى الأخرى. ولا بإضافة إحداهما لكي يُكتمل الأخرى. بل عن طريق مزاوجة إحداهما بنفسها، و كأنه عنصر يلتحق بآخر أو بنفسه. حتى يمثل كلاً معقدا يكوِّن موجودا جديدا يتصف بخصائص مجهولة من طرف المتخصصين Les protagonistesفالكل ينغلق على نفسه حتى يكوّن نظاما مغلقا، ويمكن للوظائف الداخلية في هذه الحالة أن تتسبب في إعادة تكوين مناسب للمادة، والتي تحل محل التركيب. يعتقد **داغوني** أنه ينبغي التفكير في المادة باعتبارها كل مركب و منظم. [262]

إننا نكثر من تصغيرها مع أنها تحتوي على كثير من الجزئيات التي تكونها. إن المواد لم تنقطع عن مشاركة الإنسان في أعماله، فالعلم يتولى الكشف عنها، إنه نجح في الأخذ من المنتوج الطبيعي حتى يقوم بتحسينه. ينطلق **داغوني** من فلسفة أن "الحياة هي المخبر الأول للطبيعة" وبالتالي تسبق الكيميائي. ولكن عمل الطبيعة، نمطي آلي تلك النمطية العمياء التي لا تستطيع أن تجمع بين المتناقضات فهي تعمل بوتيرة تخضع للتكرار الأعمى وفي هذه الحالة الصناعي يؤكد الواقعي ويرقيه، وينقذه من التكرار. فالإنسان بصناعته يستطيع أن يجمع ما فرقته الطبيعة. وصففته وجعلته على درجات. وهذه دعوة واضحة وتأييد تام من طرف الفيلسوف **داغوني** للتقنية. والتصنيع التحكم في الطبيعة.[263] هذه إشارة واضحة ودعوة من طرف الفيلسوف إلى عقلنة الطبيعة، فالطبيعة هي المادة، التي ينبغي أن تكون موضوعا للتفكير الإنساني وحقلا خصبا يجسد من خلاله الإنسان كل ابداعاته، واختراعاته.

---

260 Ibid, p. 7.

261 François Dagognet, Rematérialiser Matière et Matérialisme, p. 241.

262 Ibid, p. p. 241. 242.

263 Ibid, p. 242.

يعتقد **داغوني** أنه إذا ساهم الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي، في خلق الكائنات المستحيلة، من خلال ما أوحت به الطبيعة، فإنهم من غير شك يتجاوزونها وبالتالي الصناعي يفرض نفسه. نحن ندخل عالما متوسطا أين تلغى الإنقسامات القديمة. وهنا يشير **داغوني** إلى النظرة الثنائية في الفلسفة، أين يتحد الواقعي (الحدثي) مع الصناعي أو المفتعل، ويتبادلان الدور.[264]

فالأفضل لنا في اعتقاد الفيلسوف معرفة وفهم، **أن الطبيعة لم توجد على الإطلاق**، بل كانت دوما مشكّلة بأيدي الإنسان، فإذا زاد تدخل الإنسان اليوم، فهذا ليس تبريرا لحمل راية الإنذار وتوقيف التطور. يستشهد **داغوني** بقول **ديكارت** للتعبير عن تفوق الإنسان على الطبيعة، من خلال قوله:<< إنني ألاحظ في عالم الصناعة، توجيه البحوث إلى كيفية التخلص من الأخطار التي تفرزها هذه الأخيرة كلما ظهرت.>>[265] يعتقد **داغوني** أن ما نشاهده اليوم وفي كل أنحاء العالم و بشكل مذهل إنطلاقة لصناعة موجهة للحد من النتائج المضرة الناجمة عن التطور الصناعي. من جهة أخرى، يوجد قواعد جد دقيقة لتوجيه العمل والمعالجات التي تشكل خطرا على العمال كأخطار التسمم، أو أخطار التعرض للأشعة النووية. هذه التبريرات، تجعلنا لا نعتبر عالم التصنيع شنيع أو شيطاني. فالصناعات والتقنيات ليست من مخترعات إبليس التي تدنس العالم بواسطة المواد الاصطناعية والقارضة أو الآكلة.

يعتقد **داغوني** أن التطور الصناعي يسعى شيئا فشئا إلى التعديل والتقييم الذاتي. وفي هذا يرى بأننا نتبع ما تعلمناه عن فلاسفة القرن التاسع عشر، أولئك الذين شاهدوا مولد النظام المؤسّس على الحديد والنار: **سان سمون، أوغيست كونت، جوزيف برودون** Joseph proudhon و **كارل ماركس** وغيرهم. كلهم باركوا مجيء العالم الجديد وأكثرهم انتقد النظام الرأسمالي نتيجة وحشيته وانحرافاته. لكن مهما كانت سلبياته، تأتي إيجابياته فتمحوها.

حتى تكتسب فلسفتهم طابعا تطبيقيا ذهب الفيلسوف **سان سيمون** Saint-simon (1760-1825م) إلى أبعد من ذلك -ولأغراض فلسفية بحتة وراقية – حين كان يعد مشروع قناة السويس، الذي حققه تلامذته. وكذلك بالنسبة إلى قناة باناما، إنه كان يحلم بإنجازات أوروبية عظيمة، (وسوف يكون أول المدافعين عن الاتحاد الأوروبي، والتطلّع إلى الوحدة النقدية)، مدرسته تعمل على بناء نظام خاص بالسكة الحديدية، وتوسيع شبكة النقل البحري، وحتى نقتنع، يمكننا قراءة كتابه(الصناعة)1817م أو النظام الصناعي 1821 -1822، إنه لم يكتفي بتفسير العالم، بل إنه يغيره وأخيرا يعتقد **داغوني أنه إذا كان القليل من التقنية له تأثيرات سلبية، فإن الكثير منها يسمح بمحاربتها.**[266]

---

264 François Dagognet, Nature, p.166.

265 Ibid, p.225.

266 Rojer-pol droit, (Propos recueillis), les grands entretiens du monde, p. 24.

(*) البيوتكنولوجيا Biotechnologie عادة يقصد منها مجموعة التقنيات التي تسمح باستغلال المواد

Si un peu de technique engendre des inconvénients, beaucoup de techniques permettent de les combattre.

فيما يخص النبات أو الحيوان لا يرى الفيلسوف **داغوني** أي مبدأ فلسفي باسمه نمنع التقدم التقني البيولوجي، بحيث يمكن إنشاء كائنات جديدة حيوانية أو نباتية. في إطار ما يسمى بالبيوتكنولوجيا (*) Biotechnologie .إن الصناعة تحرر الإنسان، بينما كان بالأمس يتعرض للمخاطر. يؤكد **داغوني** دون إحراج مبادرته في هذا المجال.[267]

يلتقي رأي الفيلسوف **داغوني** إلى حد ما مع رأي صديقه **غاستون باشلار** الذي يرى بأنه لا مناص للعقل العلمي من أن يتكون لمواجهة الطبيعة، لمواجهة ما يكون فينا وخارجنا. بمثابة المحفز والموجه للطبيعة، لمواجهة الانجذاب الطبيعي، لا بد للعقل العلمي من أن يكون وهو يرمم ذاته. فهو لا يستطيع أن يتعلم أمام الطبيعة إلا إذا نقىّ الجواهر الطبيعية ونظم الظواهر المشوشة. وأخذ في الاعتبار أننا في داخلنا كما في خارجنا" لا نفهم الطبيعة حتى نقاومها".[268]وهي اشارة من جهة إلى امكانية، النقد وتصحيح، الأخطاء خاصة التي تتصف بها المعارف الأولى، و من جهة أخرى، و حتى يتم ذلك لا بد من أن يصحح العقل ذاته. يرى الفيلسوف **داغوني** أنه من هذا المسخ للطبيعة، يكون مفهومها قد تغير، ويكون قد فقد معناه السحري إعادة تركيب، إعادة توجيه، من هذا نكون قد احتفظنا باستعمالات جديدة لمعنى الطبيعة.ولم ننته معها بعد، إن الطبيعة دخلت التاريخ ولا يمكنها أن لا تتطور معه. [269]ولا شك أن ما ينطبق على الطبيعة ينطبق على ما تحتويه من كائنات حية، بمعنى آخر لم يصبح بمقدور الإنسان التحكّم في الطبيعة وحسب، ولكن التحكّم في كل ما تحتويه هذه الطبيعة، من كائنات حية أو جماد. ولا شك أن أبرز مظاهر هذا التحكم، التقنيات العلمية التي لا يرى فيها الفيلسوف **داغوني** إلاّ الوجه الحقيقي لقدرة الإنسان على تأكيد ذاته وهيمنته واحتلاله لأعلى درجات سلّم الكائنات الحية، إلى درجة التحكم في الحياة.

2 ــ نظرة داغوني للكائن الحي :

العضوية الدقيقة (جراثيم)، أو خلايا حيوانية، أو نباتية و مكوناها، مثل الأنزيمات من أجل المصلحة وبعض الخدمات

- Siclet Gérard, Biotechnologie, encyclopédie universalis, v6.0.72, France S.A 27/06/2002.

267 Robert Damien (Sous la Direction), François Dagognet, Médecin, Epistémologue, Philosophe, p.p.115-118

268 غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة، خليل أحمد خليل، ص. 21.

269 La nature est entrée dans L'histoire et ne peut pas ne pas évoluer avec elle

- François Dagognet, Nature, p. 166.

إن أرتباط الفلسفة بالبيولوجيا والطب يمكن رده إلى الاهتمام المشترك بموضوع الكائن الحي، فمن الواضح أن الكائن الحي هو موضوع علم البيولوجيا و الطب. ولكن كيف يمكن أن يكون الكائن الحي موضوع تفكير فلسفي إبستمولوجي؟ هذا ما يريد إثباته الفيلسوف **داغوني**.

لقد اعتقد العلماء في مرحلة معينة، أن دراسة ظاهرة الحياة، مضيعة للوقت. كما أنها لا تقدم أي فائدة للعلم. وهذا راجع من دون شك، إلى طبيعة الموضوع ذاته وما يتصف به من تعقيد. فبعد جهد كبير وتفسيرات كثيرة توصلت إليها العلوم، تم الوقوف على تفسيرين: إما أن الحياة خلقت بطريقة خارقة(فائقة الطبيعة). أو أن الحياة تتولد باستمرار من اللا حي، من تلقاء نفسها. أما التفسير الأول فهو لا يرضي العالِم. بينما الثاني فهو منبثق من ملاحظات خاطئة. إنه لم يخطر ببال أحد أن الحياة ظهرت بالتدرج وبفعل التطور. لقد كان ينقص علماء ذلك العصر، بُعد مهم للطبيعة وهو الزمان. لقد أحدث اكتشاف الزمان تغييرا في أذهان العلماء أكثر مما أحدثه إكتشاف المكان.[270]حتى إن كان لهذا الأخير من الأهمية، في كثير من النظريات العلمية، نذكر منها على سبيل المثال النظرية التطورية.

أ) ضرورة التناول الفلسفي للكائن الحي:

في نظر الفيلسوف **داغوني** يعتبر الكائن الحي من اهتمامات الفيلسوف الذي ينبغي عليه التفكير فيه باعتباره كذلك (كائن حي)، لم يمتنع الفلاسفة عن تفضيل ما هو واقعي، إلى درجة أن الأجسام البسيطة منها تلفت نظرهم، وتدفعهم إلى التساؤل عن كيفية تصورها، وما هي بنيتها؟وما هي خصائصها؟فبالنسبة إلى الفيلسوف،فإن اتصّاف الأجسام البسيطة بتركيب عناصرها وارتباط هذه العناصر وتكتلها، سرعان ما يتحوّل الاهتمام إلى ماتخفيه هذه الأجسام. فالفيزياء التجريبية تهتم بالأجسام الجامدة حتى الدقيقة منها.[271] أما الموجودات المتحركة، الحية، فإنها تتجاوز الأولى من حيث أهميتها لأن إسقلاليتها النسبية وإمكانية تحركّها وتنقلها، وخاصة تكاثرها، يجعل منها موجودا متميّزا. [272]

إن أبرع العلماء في نظر الفيلسوف **داغوني**، لم تصل تحليلاتهم للكائن الحي إلى المستوى المطلوب وهي في كثير من الأحيان فقيرة. لكن مع فلاسفة الحياة وصلنا إلى أسمى الأفق وأبعد الحدود في فهم الكائن الحي. ومن غيرهم لم يكن في وسعنا فهم الحياة.[273]ومن هؤلاء الفلاسفة يذكر الفيلسوف ثلاثة نماذج مهمة في تاريخ الفلسفة. هم **أرسطو**، **ديكارت**، **هيغل**. ويبدو أن

---

270 Joël de Rosnay, Les origines de la vie, collection "science ouverte",Edition du seuil, 1966,

271 François Dagognet, Penser le vivant, L'homme maitre de la vie?, p. 9.

272 Ibid , p. 9.

273 François Dagognet, Penser le vivant, L'homme maitre de la vie? p. 10.

الفيلسوف قصد اختيار هذه النماذج الثلاث، لأنها تمثّل إلى حد كبير منابع لكثير من الفلاسفة ومن التيارات الفلسفية من جهة، ولأهمية نظرتهم إلى الكائن الحي من جهة أخرى.

1 ــ <u>أرسطو:</u> Aristote (384-322 ق م)، أول هؤلاء الفلاسفة الذين يعرضهم **داغوني**، فبالنسبة **لأرسطو** الشيء يتحدّد بأربعة أسباب أو علل، العلة المادية، الصورية، الفاعالة، الغائية. أما السببان الأوليّان فهما أساسيان في تمييز الموجود.(السبب المادي، والسبب الصوري)، بينما السببّان الآخران (الفعال والغائي) فيمكن إهمالهما لأننا لا ندركهما إلا بواسطة التفكير، ذلك أن الطبيعة الصانعة تخفي عنا باستمرار إمكانياتها وهي السبب الفعال والسبب الغائي. يتولّد الكائن من تداخل العقلي مع الحسي، ومن تفاعلهما العميق. فلا وجود إذن لمادة أولية (خام) لأنها تحتوي في كل الأحوال على نظام، حتى وإن كان بسيطا. كما أنه لا وجود لشكل أو صورة دون جوهر، أين تتجسد. فمع الكائن الحي لا يمكن الفصل بين المادي وما وراء المادي، الطبيعي وما وراء الطبيعى. أي بين الجسد والروح أو الفكرة التي تنشطه (الروح محركة الجسم). إن الطبيعة تكون قد عملت من غير شك مثل الفنان، فقط الفرق بينهما، هو أن الطبيعة في بعض الأحيان تعمل بطريقة عشوائية. فالكائن الحي بالنسبة لأرسطو، فكرة مجسدة، فالشكل الدائري مثلا، الذي يُعطى لقطعة من الشمع، تعبر بمعنى معين عن روحها،إنه لا يمكن فصل هاذين العنصرين، الوظيفة والبنية التي تحملها.[274] فنسبة النفس إذن، بالنسبة إلى الجسم كنسبة الطبيعة أو الصورة، إلى الجسم غير الحي.

توصل الفيلسوف **داغوني** من خلال قراءته لأرسطو ونظرته إلى الكائن الحي، إلى ثلاثة نتائج:

1 ــ يكفي الاستماع إلى الطبيعة واستخراج الخطوط القوية الأساسية. وهذا ما يعبر عنه أرسطو بفكرة (سلّم الكائنات) Echelle des êtres.

2 ــ الإنسان على رأس هذا السلّم، فهو يلخص العالم البيولوجي، فالعالم البيولوجي الأصغر الفردي، يقوم في كل مرة بإعادة العالم البيولوجي الأكبر للموجودات الحية.[275]

لأن بالنسبة إلى **أرسطو**، إذا كانت الطبيعة مبدأ الحركة، فإن النفس مبدأ الأفعال الحيوية على إختلافها. ولذا جاء في تعريف **أرسطو** للنفس قوله:<< إن النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي لذي حياة بالقوة >>. أو قوله:<< إن النفس هي ما به نحيا ونُحس وننتقل في المكان ونعقل>>.[276]والتعريف الأول أوضح من الثاني، لأنه يعرّف النفس بالأفعال الصادرة عنها. ومنه تنقسم النفس عنده إلى النفس النامية والنفس الحاسة والنفس الناطقة. بالنسبة للفيلسوف

---

274 Ibid, p. 11.

275 François Dagognet, L'homme maître de la vie? , p.18.

276 جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، ص. 79.

داغوني هي النباتية Vegétative، الحسية Sensitive وهي حيوانية، والنفس العاقلة Rationnelle . أو كما يلخصها هو في ثلاثة مفردات:

Le Nutritif – Le Sensori-moteur – Le Cérébral [277] وهو على ما يبدو تلخيص للعالم البيولوجي.

3 ــ يُعتبر **أرسطو** أول من وضع تصنيفا للعملية الحيوية، فما كان يُهمه أكثر، نوعين من الفيزيولوجيا: تلك الخاصة بالأجيال، والأخرى الخاصة بالحركي أو الطبيعي المقابل للمُصنع. إن الحرارة بالنسبة إلى **أرسطو** هي الحياة، فالنار هي جوهر الحياة وهي مصدر نشاط الكائن الحي. والدليل على ذلك هو أن الحرارة الحيوانية تذهب عند الموت. ولذا يعير أهمية خاصة للدم، ويعتبر القلب هو مقّر الحياة، وهو العضو الذي بواسطته تعطي النفس أوامرها لبقية الأعضاء وهو أول شيء يلد، وآخر شيء يموت.[278]

2 ــ <u>رينيه ديكارت</u> René Descartes (1596-1650م).

يعتقد **داغوني** أن **ديكارت** جعل من الكائن الحي ذلك الكائن الميكانيكي من خلال فكرته الحيوان الآلة. تركيبه من الله، فهو مجموعة بسيطة من القطع، أو سلسلة من الدواليب تنتمي لمسننة. ولفهم الكائن الحي، لا بد من فهم كل قطعة على حدا، ثم محاولة ربطها ببعضها البعض أي ما يسمى البيوميكانيكا La Biomécanique (*) بمعنى آخر إعتبر **ديكارت** أجسام الناس والحيوانات آلات، واعتبر الحيوانات آلات ذاتية تحكمها تماما قوانين الفيزياء وخالية من الوعي والشعور.

والناس يختلفون عنها، لهم نفس تقيم في الغدة الصنوبرية، وهنالك تتصل النفس " **بالأرواح الحية** " وعبر هذا الإتصال يحدث التفاعل بين النفس والبدن.[279]

من جملة الاعتراضات التي قدمها الفيلسوف **داغوني** على نظرة **ديكارت** للكائن الحي، واعتباره مجرد آلة ميكانيكية، هي أن الآلات لا تخضع لنفس التركيب، بحيث نستطيع تركيب آلة ولكننا لا نستطيع تركيب كائن حي. كذلك إذا كانت الآلة تحتاج لمن يصلحها فإن الكائن الحي يصلح نفسه. ثم إن الآلة تحتاج لمن ينتجها، أما أجيال الإنسان والحيوان، فهي لا تحتاج لهذا الشرط. الحيوان يمكنه تصور الخطر، والقيام بسلوكات مختلفة إزاء منبه واحد والقدرة على التكيف معه، بينما الآلة مضبوطة في حركاتها، أو لنقُل أنها مُبرمجة.[280]

---

277 Françis Dagognet, L'homme maitre de la vie? p. 18.

278 Ibid, p. 20.

(*) البيوميكانيك La Biomécanique دراسة للبنى الفيزيولوجية للكائنات الحية تبعا لمبادئ الميكانيكا.

279 برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية (الفلسفة الحديثة)، ترجمة، فتحي الشنيطي، الكتاب الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م.، ص. 109.

280 François Dagognet, L'homme maître de la vie? p. 26.27.

3 ـ هيغل G.W.F Hegel (1770-1831م).

آخر الفلسفات التي عرضها الفيلسوف **داغوني** فلسف **هيغل** والتي في نظره سلّطت الضوء أكثر على الحياة و وظائفها. لقد أختار هذه الفلسفة وفضّلها على فلسفة **كانط** التي بالرغم من أهميتها إلا أنها لا تعبّر إلا قليلا عن فلسفة الحياة.

يحاول الفيلسوف التمسك ببعض أطروحات **هيغل** التي قام بتحليلها في فلسفته الطبيعية. أين نجد التوظيف الواضح للفينومينولوجيا. فالفكرة لوحدها تسمح بفهم وتصور الواقع، وهذا ليس معناه أنها تخلقه، ولكن تتحقق فيه، فهي بالذات لا توجد أو تظهر إلا به. إذن علينا دخول هذه الطبيعة الحيوية، المتحركة والأكثر نظاما بلا شك والأكثر غرابة بالنسبة للفكرة. وهنالك يمكن اكتشافها ومعرفتها.[281]

في الأخير، فإن هذا النظام المفهوم والمدرك بالعقل يتجلى لنا في صورة تناقض كبير بين الأجزاء والكل. كل جزء يؤكد اختلافه ويحاول الانفصال عن الكل، ولكن لا يوجد إلا بفضله. وهذا الكل الجوهري بدوره لا يكون، من غير هذه الأجزاء. إنه يمتصها وبالتالي يتنكر لها باعتبارها خاصة ومستقلة. لأنه من البداية كان على العناصر المقاومة أو بالأحرى المتناقضة، أن تذوب. وبهذا الإنكار لتميُّزِهم يتحقق الأنا العالمي، الوحدة. وتكون الفينومينولوجيا فاعلة في التكوين القاعدي الأكثر بساطة.[282]

كل من **أرسطو** و**ديكارت** و**هيغل** هي نماذج من الميتافيزيقا الكلاسيكية أراد الفيلسوف **داغوني** عرضها قصد التنظير للحياة وللكائن الحي. بين تصور الفيلسوف ودقة العالِم، لا يتردد **داغوني** في إختيار الأول أي الفيلسوف لأنه كان دوما، يهتم بعلم عصره، وكان دائما يحاول تناوله تناولا عقليا. بينما العالِم البيولوجي– بصورة عامة- يرفض التأمل والنظر وما له من فائدة وذلك باسم الوضعية الغير مفهومة والتي يؤمن بها.

في نظر **داغوني** هؤلاء الفلاسفة من غير شك متميزون فيما بينهم، إلا أن الفيلسوف هيغل يكون أقرب نوعا ما إلى أرسطو، بالرغم من أنه جدد في بعض الجوانب فحسب. وبما أن الديكارتية شجعت – على الأقل وبصورة غير مباشرة- تطور البيولوجيا التجريبية، فهي تستحق أن تسترجع بقوة و تفوق.

أما السبب الآخر الذي دفع **داغوني** إلى الحديث عن هذه النماذج هو حرصه على عدم الفصل بين المنهجية أو النظام المستنبط من الكتب، وعمل المخبر.

لكن، ألا تدفعنا الملاحظة الدقيقة لهذه الآراء إلى الكشف عن طابعها الميتافيزيقي الذي يكون قد ساهم بشكل سلبي في تطور علوم الحياة. قد يكون هذا ما حصل بالفعل، وهو أمر يتقبله

281 Ibid, p. p. 33.34.

282 Ibid, 34.

الفيلسوف، ذلك أنه لا يرى في علوم الحياة إلى ترجمة سيئة للكائن الحي، وقد سبق لي أن عرضت، موقفه من البيولوجيا.

ب) الكائن الحي والبيولوجيا:

إن الأسباب التي جعلت من الكائن الحي موضوع اهتمام الفيلسوف في نظر **داغوني** كثيرة، من أهمها:

1 ــ أنه لا أحد ينكر أن العضوية تمثل نظاما معقدا لا يمكن تحليله أو تفكيكه بسهولة (التحليل العادي) ولا حتى أن نقيم عليه تجارب (تدخلات) لا نعلم عقباها. فالتدخل في الكائن الحي يفترض مبدئيا الاستعانة بمنهجية ناجعة Subtile، لأننا إن لم نفكك ونحلل المركب، لا يكون لنا علما بالكيفية التي ترتبط بها عناصر العضوية. ولو استأصلناها، نوشك على تمزيقها، تقطيعها Dilacérer، وبالتالي نحطّم ما كنا نريد معرفته، كالوظائف والتأثيرات المتبادلة. كيف استطاع العلماء حل هذه المسألة الغير قابلة للتحليل؟ [283] Cette vraie quadrature du cercle وللحفاظ على الوحدة التي يتصّف بها الكائن الحي، ينبغي علينا أن نتحايل. لأن الكائن الحي يعلمنا هذا الفن وهو فن التحايل، وهو من جهة أخرى يحاول التخلص من أية حتمية، ولكن يمكن التلاعب عليه.

كيف ذلك؟ متى؟ بواسطة أي عملية ؟ لا شك أن هذه التساؤلات في نظر الفيلسوف تتجاوز المجال الفزيولوجي.[284]بمعنى لآخر لا يمكن أن تكون إلاّ موضوعا للتفكير الفلسفي.

2 ــ إننا نستند إذن إلى العلوم البيولوجية، ذلك الكشف العظيم للكائن الجسماني (المادي) ولكن ينبغي عليها في كل مرة أن تتجاوز حدودها (البيولوجيا) لما تلقته من تحوّلات كبيرة حتى أصبحنا لا نعرفها، وتكون قد تخلت عن نظرتها السطحية القديمة Séculaire، التي تقتصر على وصف المظاهر المسماة طبيعية، للتوغل أخيرا وبشكل تام في جوهر الحياة أو لبها.تمخض عن ذلك وإلى يومنا هذا الامتثال للحياة واحترامها، لكن حان الوقت للتساؤل عن هذا الامتثال والخضوع. إننا نستطيع، ونعرف كيف نغيّر في الحياة وكيف نعالجها وكيف نتحكم فيها.

وعليه هل المسألة الحقيقية التي يطرحها الكائن الحي أو الحياة تنتمي للمباحث الأخلاقية، ما هو الموقف المتخذ في هذه الحالة؟ هل يجب وضع حدود علينا احترامها؟ ما هو الخطر؟ وإلى أي حدود يمكن الذهاب؟ لا شك أن هذه التساؤلات تتجاوز الإطار العلمي التجريبي، وهذا ما

---

283 François Dagognet, L'homme maître de la vie? p.5.

284 François Dagognet, L'homme maître de la vie? p.5.

يبرّر أهمية التقييم الأخلاقي للطب وعلوم الحياة Bioéthique لأنه وحسب نظرتنا فإن موضوع الكائن الحي من المباحث الفلسفية التي كانت دوما تضعه في صميم اهتماماتها وتحليلاتها. علينا أن نعرض من الوجهة المنطقية بعض هذه التساؤلات.

3 ـــ السبب الثالث يكمن في ضرورة معرفة تاريخ تطور علوم الحياة. وما هي مراحل تطورها وكم من مرحلة يمكن عدّها ؟ وأين يمكن تعيين القطيعة أو الثورات؟ هل هناك منطق يتحكم في هذا التطور ؟ وكون الكائن الحي لا يوجد لوحده فهو يعيش ضمن مجموعة، يفرض مثل هذا النظر في منطق إختلافهم أو تقاربهم، أي منطق العلاقات التي تجمعهم. وهي طريقة بها نتجنب التحليلات الجد محدودة، ونقل علوم الحياة إلى دائرة تفكير أكثر سعة. إلى نظرية شاملة تحتوي كل هذه المباحث.[285]

إن العالِم الطبيعي البارع في نظر **داغوني** يستطيع إحداث ثورة في مجال البيولوجيا بواسطة دقة ملاحظته المُوجهة إلى الشكل أو المظهر- هذا الأخير الذي يفضّله الفيلسوف **داغوني** – دون اللجوء إلى التدخل في الكائن الحي والتجريب عليه، ودون طلب المساعدة لا من الفيزيولوجي ولا من المتخصص في علم التشريح.

إنه يستطيع إعادة بناء تاريخ الكائنات الحية، وتوضيح بنيتهم، وتشكّلهم أو تكوينهم، إنه يضع نفسه في الخارج وهذا يوضّح جليًا كم كان المظهر أو الشكل أو السطح الذي به يعبر الكائن الحي عن داخله مهم.[286] فقراءة الجسد أو الجسم، تظهر بأن هذا الأخير أي (السطح أو المظهر) أهم من العمق أو المضمون. وللتعبير عن أهمية المظهر والجسد يستعمل الفيلسوف **داغوني** عبارة لفيلسوف الجسد فاليري(*)Valery-مثلما يلقّب– وهي(أن الجلد أعمق شيء في الإنسان) "Ce qu'il y a de plus profond chez l'homme est la peau" فالأهم في الجسد يوجد في حدود ما هو مرئي، وهو المعطى الترابطي الذي يجعل الفرد في علاقة مع المجتمع، فهو ليس معطى طبيعي بل يكون دائما نتيجة لعلاقاتنا مع الآخرين مثلنا. إنه معطى ثقافي أكثر منه طبيعي. ويعبّر عنه الفيلسوف بفكرة (ما وراء الجسد) Le Méta-corps بحيث أن الجسد وهو يخضع لتغيّر ولتحوّل إجتماعي ثقافي، يصبح أمرا روحيا، لأنه قمة الوجود في العالم مرآة الخلق والذي من خلاله نعرف الحضارة وتتضح لنا.علينا في هذه الحالة أن نجعل من الجسد روحي وأن نعمه خاصة منه الدماغ.[287]

---

285 Ibid, p. 5-7.

286 François Dagognet, faces, surfaces, interfaces, p. 72.

(*) الفيلسوف المضاد للبرغسونية.

287 Robert Damien (Sous la Direction), François Dagognet, Médecin, Epistémologue, Philosophe, p. 125.

هذا الإهتمام بالجسد جعل من فلسفة **داغوني** مؤسسة متميزة عن فلسفة البيولوجيا، التي تهدف إلى تفضيل العمق. يقول في هذا الشأن :<<علينا أن لا نطيل الوقوف عند البيولوجيا، لأنها تفضل خرافة العمق و ظلمات الأحشاء.>>[288] فالحياة بالنسبة للفيلسوف ليست كنز مخبأ، ولا توجد في الأعماق. إنها تُقرأ على الجسد، إنها كتابة ينبغي قراءتها وليس تحطيمها. فكلما كان الكائن الحي متطورا، كلما كانت الحياة في الظاهر أو الخارج. هذا ما يفسر أهمية هذا الكتاب على مستوى الجلد الظاهر. وظيفة البيولوجيا الطبية هي قراءة الحي من خلال النظر إلى السطح، دون تفكيك الحياة.[289]

في النهاية يبدو بالنسبة لنا أن الكائن الحي هو رهان صراع بين الباطن والظاهر وبشكل أدق البيولوجيا وتطبيقاتها المختلفة ، تخاطر بإخراج باطن الكائن الحي.[290]

من خلال التحليلات سالفة الذكر، يحاول **داغوني** أن يقدم لنا مفهوما للكائن الحي، ليس مفهوما علميا ولكن مفهوما فلسفيا.ذلك أن الموجود "البيولوجي" يطرح إشكالا، فهو من جهة موجود مادي ذو أجزاء مجتمعة. ومن جهة أخرى باعتباره يشكل وحدة كلية غير قابلة للقسمة، نتيجة الارتباطات الآلية العفوية، التي تخضع لقوانين مضبوطة. هذا الكائن الذي يتصّف بالتفّرد أو التميّز داخلي وخارجي في آن واحد. في اعتقاد **داغوني** أننا لا ننتهي من دراسة المفارقات التي نعجز عن تسميتها والملائمة للجسم (العضوية) ذلك اللغز الكبير. لذا كل فلسفة تكون قد شعرت بهذا واستلهمت منه. انه ينتمي للعلم الذي يحلله، أكثر مما وراء البيولوجيا La Métabiologie التي تهدف إلى فهمه (الكائن الحي). ويقصد بها هنا الفلسفة.[291]

إن عمل البيولوجي يكمن في الاهتمام بعلاقة أفراد العائلة الواحدة أو الفصيلة الواحدة، فيما بينهم وعملية التبادل بينهم. ولذا فإن المشاكل التي تحاول البيولوجيا معالجتها، ليست متعلقة بدراسة الأفراد كل على حدى بل ما يتعلق بتجمع الكل أو المجموعة، أي دراسة تعتمد على تصنيف الكائنات الحية La systématique.[292]

في حين أن الكائن الحي الإنسان على وجه الخصوص يشكّل وحدة مستقلة، وهذا يجعل من دراسته أمرًا يتطلب منهجا خاصا، على الأقل يكون غير مماثل لمنهج البيولوجيا.

---

288 Ibid, p. 125.

289 Ibid, p. p. 124-126.

290 Finalement, le vivant nous à semblé surtout l'enjeu d'un conflit entre l'intérieur et l'extérieur

- François Dagognet, Le vivant, p.188.

291 François Dagognet. Biologie. Clip Edition M-Editer. Cholet 2003.

292 François Dagognet, L'homme Maître de la vie, p. 116.

الكائن الحي كائن متميز في نظر **داغوني** هو كائن هيولي، مادة أو هيولى قادرة على امتصاص في الوقت نفسه الزمان والمكان، تعديلهما، والسعي إلى تجاوزهما. مع الحي ندخل مجال التواصل أو الاتصال الفيزيائي أين يكون اختبار ما وراء المادية. التفوق على المكان أمر لاشك فيه حين نعلم أن المادة تتصف بالتمدد، الانقسام، والتعدد.[293]

فالمادة إذا تعرضت لصدمة تجعل من وحداتها أو مكوناتها تتفرق، عكس ذلك نجده لدى الكائن الحي، الذي تتماسك أعضاؤه في عمل متكامل، ومحاولا إزالة ما يعيقه. فطبيعة العضوية المكوّنة من عناصر تتصل ببعضها البعض، تجعل من الكائن الحي – على حد تعبير **داغوني** – شبيه بشبكة اتصال، يتّم من خلالها تمرير عدة رسائل. وهذا ما يسمى بـــ: macrophysiologie عمل الأعضاء المنظم (استجابة سريعة لكل موقف أو طارئ، تجنب العوائق). **وبهذا الشكل تتجاوز العضوية المكان بفعل امتلاكها لوسائل الاتصال عن بعد**.[294]

يقدم لنا فرانسوا **داغوني** مثالا في هذا الصدد، حول الأعمال التي قام بها العالم الفيزيولوجي الروسي **بافلوف** Ivan Pavlov (1849-1939م) التي تدل على الانسجام، والاتصال بين الخلايا العصبية. فالمنعكس الشرطي، يُعرف من جهة بالاتساع وفي الوقت نفسه بالتجميع. الزمان والمكان تم التحكم فيهما، وتم القضاء على تأثيرهما المتمثل في التفرقة. إنه ليس تفوق نهائي للكائن الحي على الزمان والمكان. ولكنه بداية فجر جديد conscientiel[295]

إن العضوية في نظر الفيلسوف لا تقف ضد الزمان بل تمتصه، و تحتفظ به، وبالتالي تتغلب عليه، من خلال صورتها المبيدة. وينظر إلى الكائن الحي على أنه ذاكرة قصيرة (مراحل تطور الكائن الحي منذ البويضة حتى، اكتمال نموه، أي إلى سن الرشد) يلخص مراحل تطور الكائنات الحية، ويتولى دراسة هذه الظواهر علم النسالة Phylogenèse (مبحث تكّون الأنسال وتطورها). فالجسم الإنساني يمثل مخزن أو مجموعة الرواسب، تتمثل فيه، مظاهر التطور التي تمر بها كل الكائنات الحية. فالجنين، يكون له شكل السمكة، في الأول ثم يتحول إلى برمائي. فالمسن يحتفظ دائما بالعلامات التي تتمثل في انتماءاته القديمة أو السابقة. فالإنسان في أعلى السلّم، أو أعلى درجات التطوّر، تتمثل فيه كل هذه الكائنات و يحتويها.[296]

إن جوهر الحياة، يحاول دائما التخلّص من الحدود المزدوجة الزمكانية. إنه يحاول التحرر من المادة التي تعتمد على الارتداد. إن حريتنا، في نظر **داغوني** تتجلى أكثر في بناياتنا الجسمية التي تحاول أن تحطم الزمان والمكان في آن واحدة. وهذا ما تعمل عليه العضوية. يعطي

---

293 François Dagognet, Le vivant, p. 65.
294 Ibid, p. 67.
295 François Dagognet, Rematérialiser Matière et Matérialisme, p. 245.
296 François Dagognet, Le vivant. p. p. 67.68.

الفيلسوف مثالا عن الخشب الذي بواسطته نصنع السكر والخل، لكن الخشب لا يحمل لا هذا ولا ذاك. إن الكائن الحي يتجاوز المادة الخالصة لكن دون التنكر لها.[297]

فمن جهة تنفر هذه العضوية من مصير يريد تقييدها، وإدخالها في لعبة وظائف أحادية التكافؤ. ومن جهة أخرى، لا يستسلم الكائن الحي خاصة منه الإنسان لمن يريد إخضاعه لنظام معين. فهو يثور، ليس مثل الإنسان الفظّ، البليد، البدائي، ولكن كإنسان متحرر أصيل وليس تابع كالفرع، فهو في نفس الوقت ساكن ومتحرك، إنه يقوم على قاعدتين (رجلين) مجالهما ضيق، ولو كان أكثر سكونا، لما كان بمقدوره الحركة بهذه الرشاقة والخفة. ولو لم يثبت قدميه على الأرض، لفقد توازنه.

إن الحيوان بالرغم من أنه يقوم على أربع وهو في أغلب الأحيان أسرع من الإنسان، وأكثر توازن منه ولكن لم يبرح الأرض ولم يتركها مثله.[298] إن الزمان والمكان يعملان على تفكيك الإنسان. لكن الإنسان كوّن نفسه بعناية شيئا فشيء ضد التجزئة أو التقطيع الذي يهدده.[299]
إن الإنسان المعاصر في نظر **داغوني** لا يكتفي بإعادة خلق الكائن الحي عن طريق التقنيات البيولوجية Biotechnologie فهو يركب المواد، ويضع أخرى لم تكن موجودة من قبل.

إن الإنسان يبني نفسه كذلك، سواء من الناحية المورفلوجية Morphologique (الشكل الخارجي للإنسان)، كالوقوف على رجلين، الجمجمة، إنسجام حركة إصبع الإبهام مقابل الأصابع الأخرى. أو من الناحية الإجتماعية. كاللغة، والوسائل، والقوانين. إنه الإنسان، يغير كل شيء فيه، سلوكه، حاجاته، قدراته...إلخ.[300]

يرى الفيلسوف **داغوني** أن الكائن الحي غذى الخرافات والأساطير. إنه رمزي. رمز لكل من يتطور ويتجدد. إننا نستعين به ونرجع إليه، إلى عكس ما يُكونه. بهذا يكون الإنسان نتيجة حتميتين: الاستمرار والتجديد. إمكانيتان متناقضتان إن لم ندرك العلاقة بينهما(العلاقة الجنسية تضمن الاستمرار).[301]

3 ـــ البيوإطيقا في نظر داغوني:

---

297 François Dagognet, Rematérialiser Matière et Matérialisme, p.245.
298 François Dagognet, Face, Surface, Interface, Lbrairie philosophique J.Vrin, 1982, p. 87.
299 L'homme s'est constitué laborieusement peu a peu contre le morcellement qui le menaçait.
- François Dagognet, Face, Surface, Interface, p. 205.
300 François Dagognet, Nature, p. 157.
301 François Dagognet, Le vivant, p. p. 185. 186.

إذا كانت البيوإطيقا قد ظهرت في أول الأمر كموقع إجتمع فيه العلماء ورجال الدين، فإنها سرعان ما تحولت إلى مؤسسة تهم ليس فقط رجال القانون فحسب، بل كذلك الفلاسفة. وهذا يؤدي إلى التأثير في طريقة التعامل مع القضايا المختلف فيها، في صورتين. الأولى أهمية وأولوية التفكير الموضوعي والإستنتاجي هذه الصورية التي كانت تميز التقاليد الفلسفية الأمريكية، وهذه المقاربة قامت عليها المناهج الأخلاقية المقترحة في حل الاختلافات. أما الثانية فالدافع هنا يتعلق بالطبيعة الشكية التي تميز البيوإطيقا.

إن مشاركة الفلاسفة يسمح من دون شك لهذه الأخيرة من إدراك هدفها الذي كانت تصبو إليه منذ البداية ولم يكن في مقدورها التعبيرعنه بوضوح، وهو أنها(أي البيوإطيقا)، نشأت من رفضها للأخلاق الدينية التعصبية. لقد كتب **دانيال كلهان** سنة 1993 يقول << أول شيء يجب على كل شخص يشارك في البيوإطيقا هو وضع الدين جانبا>>.[302]وهذا ما يبرز من دون شك اختلاف مفهوم البيوإطيقا عن مفهوم الدين.

ا) ضرورة التقييم الفلسفي والأخلاقي للتطبيقات العلمية:

من بين الفلاسفة الذين شاركوا في النقاش الفلسفي حول المشكلات التي تثيرها التطبيقات العلمية، بشكل عام والتقنيات الطبية بشكل خاص، الإبستيمولوجي **داغوني** الذي يعتقد بأن الحل لهذا المشكل لا يخص الأخلاقيين ولا المشرّعين والحقوقيين ولا حتى البيولوجيا الطبية نفسها. حيث يقول:<< إننا نعتقد بالفعل، أن في استطاعة الفيلسوف بل ينبغي عليه أن يأخذ هذا الدور. حتى يمزق هذه الذرائع، ويعيد النظر في نتائج هذه التطبيقات.>>[303]

يبدو أن كل المواقف أتت لكي تؤكد من جديد قيمة الإنسان. وبالتالي تحكم على التقنية بشكل عام والتقنيات الطبية بشكل خاص، على أنها تمس بالكرامة الإنسانية، ولا تحترم أبعاد الإنسان. وهذا ما يبرّر من دون شك الثورة عليها من خلال التساؤلات. وفي الوقت الذي تتخذ فيه هذه المواقف هذا المنحى. على العكس من ذلك، نراه في كثير من الأحيان ضمن آراء الفيلسوف **داغوني،** المبنية على نظرته للفلسفة وللكائن الحي وللطبيعة.

---

302 Hubert Doucet, Religiologique, Religion et Bioéthique,Réflexion sur leur relation Daniel Callahan, Why America Accepted Bioethics, The hastings center report, 23 november. December, 1993-1996.

- http://www.unites.uqam.ca/religiologiques

303 Nous pensons justement que le philosophe peut et doit ici se placer, afin de déchirer les alibis et d'exiger au moins la mise a jour des implications de telle ou telle pratique.

- François Dagognet, Le vivant, p. 164.

يقدم الفيلسوف إنتقادين للمسائل الأساسية التي تقدمها البيوإطيقا فيما يخص بعض النقاط. بحيث يرى أن ما تحسبه البيوإطيقا مسائل جديدة هو في الحقيقة كان مطروحا في تاريخ العلوم الطبية البيولوجية. وفي هذه الحالة لو حددنا مشروعية البيوإطيقا بمسألة التجريب الطبي، لأمكن القول هنا أن الأمر يتعلق بمشكلة قديمة. الدليل أن الفيلسوف **داغوني** في حد ذاته كان يهتم بمسألة التجريب الطبي قبل ظهور مصطلح البيوإطيقا سنة 1960م في مقال (التجريب الطبي العلاجي). لأن التجريب على الإنسان في نظره يُوضع دائما في إطار التطبيقات العلاجية. بما في ذلك حتى الصعوبات التي تحول دون نجاعتها.

أما إذا ربطنا البيوإطيقا، بظهور مشاكل أخلاقية، لها علاقة بالطبيب. تكون المفاهيم مثل، احترام الحياة أو الأسرار الطبية، قد تم علاجها منذ أمد بعيد، من طرف "علم الواجبات الطبية La Déontologie. وفي هذه الحالة لا ينبغي العودة إليها وكأنها مبادئ مقّدسة، فطبيعتها المجرّدة تجعل منها غير نافعة (غير فعالة)، أو عقيمة، وفرصة لتبرئة الذمة (*) La Casuistique و هذا ما يبرّر عدم فاعلية مبدأ احترام الحياة، الذي كان واضحا، قبل ظهور اللبيولوجيا المعاصرة.

ينتهي **داغوني** إلى الإعتقاد أنّه من السذاجة القول بإمكانية إلغاء أو القضاء على المخاطر الطبية بشكل تام، فالذي يساهم في البحث العلمي خاصة البيولوجي، لا يمكنه تجنب بشكل مطلق النتائج ذات التأثير المتأخّر وغير المنتظرة أو التي لا نتمناها وبالتالي يَعتقد بأننا نعلم أنه عاجلا أم آجلا نتعدى الحدود. وعليه يدعو إلى إقامة حاجز يمنع هذه المشاريع الخطيرة، كما يدعو إلى إعادة **إقامة فلسفة البيولوجيا، في صميم البيولوجيا نفسها**.[304]هذه الدعوة تثبت من دون شك تأكيد الفيلسوف على وضع إطار أخلاقي منظم للبحوث البيولوجية. والمتمثل في فلسفة البيولوجيا. ويكون بذلك قد وضع مفهوما جديدا للبيوإطيقا.إن الفلسفة اليوم، غير واضحة في نظر الفيلسوف، وتعاني أكثر خاصة في مجال الطب والبيولوجيا وفي هذا الصدد، يعطي **داغوني** مثالا لبيان هذه الصعوبة بطرحه لهذا السؤال: لماذا نلجأ إلى الإجهاض؟ الإجهاض عملية قتل، قتل جنين. الطبيب يبرّر ذلك، إما بقوله أن الجنين محكوم عليه بالموت بعد الولادة. ومن الأفضل حسم الأمور من الأول. وقد يبرر ذلك بأن الجنين، ينمو نموًا غير عادي، كأن لا يمتلك ذراعين مثلا.

(*) خِلاَقَة (تخليق، علم الخُلُقْ) Casuistique. درس أحوال الظمير أي المسائل التفصيلية الناجمة عن تطبيق أحكام أخلاقية على كل ظرف خاص(فتاوي الرواقيين، الأخلاقيين المسيحيين، كانط) و بما أن المفتيين كانوا من اللاهوتيين، فإن الكلمة تقال بوجه خاص على علم الأخلاق في علاقته بالدين. تستعمل غالبا بمعنى ازدرائي لأن الخِلاقيين متّهمون بالتحايل و التوصل إلى تبرير أي شيء، بحيل منطقية.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، تعريب، خليل أحمد خليل، المجلدالأول، ص. 150.

304 François Dagognet, Le vivant, p. 159.

ولكن كيف لو كان الجنين ينقصه ذراعا واحدا؟ هنا، علينا أن ندرك أن وضع الحدود، لتعيين ما لا يطاق، وما يمكن تحمله.
هذه مهمة الفيلسوف، الذي عليه يتوقف المستقبل. يقول **داغوني**:<< يوم دخلت البيولوجيا حرم الحياة أصبحت تثير تساؤلات أخلاقية. فالمشكلة الأخلاقية توجد تماما في قلب البيولوجيا المعاصرة.>> [305]هذا يوضح من دون شك أن ظهور البيوإطيقا يرتبط بالتطورات التي شهدتها البيولوجيا المعاصرة. وهنا علينا أن نميز بين أخلاق الطب وأخلاقيات الطب. بين القديم أو ما أشرت إليه من قبل (علم الواجبات الطبية)، و(أخلاقيات الطب وعلوم الحياة. أو الأخلاق الحياتية، أو البيوإطيقا La Bioéthique).

ب) من البيوإطيقا Bioéthique إلى البيوسياسة Biopolitique:

في الأول يظهر الفيلسوف **داغوني** نوع من الاشمئزاز اِتجاه البيوإطيقا. وينظر إلى الهيئات التي تهتم بها، على أنها لا تهدف إلا إلى وضع حلول عامة، طالما لا تستطيع أن تنتهي إلى اتفاق، فكل هذا لا يدل على النجاح. بالنسبة للفيلسوف ليس هناك إمكانية الحديث عن أخلاق إجرائية. إن عدم القدرة على التقرير والبت يرجع أساسا إلى كيفية تكوين هذه الهيئات، والتي بالرغم من أنها تجمع كل الأصناف بحيث تمثل المتدينّين والأخلاقيين. إلا أنها لم تستطع التوصل إلى اتفاق. هذا ما نجده على مستوى (*) CCNE، المؤسسة سنة 1983م.والتي تجمع ممثلين عن فلاسفة وروحيين. من جهة أخرى المعنى الذي اتخذته البيوإطيقا في نظر هذه الهيئات، ولذا نجد الفيلسوف يميّز بين البيوإطيقا الرديئة، أهدافها إيديولوجية وبيوإطيقا ذات الأساس أو الجوهر العلمي. والأكثر من هذا إجماع هذه الهيئات على أمر، فهو لأجل منع أو تحريم، إن لديها ميل خاص لوضع حدود مطلقة للعلوم.
ولحسن الحظ هذه الحدود في القديم كثيرًا ما كان يتم تحطيمها، لأنها حدود خيالية على حد تعبير **داغوني**.[306]

بالنسبة للفيلسوف **داغوني،** فالعقد الإجتماعي لا يمكن أن يكون بين الجماعة أو الشيوع والعائلات، فيما يخص القضايا الحساسة، وهي قضايا البيوإطيقا. بل على الدولة التي تمثل الجميع، محاربة الأهواء والميول الشخصية والمصالح الخاصة.

---

305 La question morale se trouve bien au cœur de la biologie moderne
- François Dagognet, Le vivant, p. 159.

(*) الهيئة الاستشارية الوطنية للبيوإطيقا C C N E Comité consultatif National d'éthique

306 Robert Damien (Sous la direction), François Dagognet, Médecin-Philosophe-épistémologue, p.114.

تعبر هذه الفكرة عن دعوة الفيلسوف **داغوني** إلى تدخل الدولة التي تحرص على تنفيذ كل الأحكام والقرارات المتعلقة بالبيوإطيقا، أو ما يسمى بإقامة سياسة بيولوجية Biopolitique وهي فكرة أشار إليها الفيلسوف الفرنسي **ميشال فوكو** Michel Foucault (1926-1984م). سنة 1976م في كتابه " تاريخ الجنس" Histoire de la sexualité. أين يضع توجيه الحياة وتنظيمها، في صميم السياسة العصرية الغربية. يقول **ميشال فوكو**:<< لأول مرة في التاريخ، من دون شك، يُفكر البيولوجي في إطار سياسي.>>[307]

هذه الهيمنة البيوسياسية Bio politique أي **عملية التوجيه السياسي للحياة،** في نظر فوكو تحتوي على بعدين متميزين بالرغم من أنّهما متصلان. لأنه ابتداء من القرن السابع عشر أصبحا يشاركان في المؤسسة الجديدة، وهي مؤسسة (ضبط وتسوية الحياة) La normalisation de la vie.

<u>القطب الأول</u>: يتمثل في سياسة الجسم Anatomo- Politique . يركز على الجسم باعتباره آلة، من خلال تدريبه وتنمية مواقفه، وتنمية قواه وفقا لمنفعته، والعمل على كماله. يرتبط بهذا القطب، كل المؤسسات التي تعمل على إضفاء الطابع الاجتماعي على الفرد من جهة، كالأسرة والمدرسة والمؤسسة العسكرية والمعمل. ومن جهة أخرى العمل على علاج انحرافاته، كعمل المستشفى والمنفى والسجن. أما **<u>القطب الثاني</u>**: والمتمثل في السياسة البيولوجية للمواطنين La Biopolitique de la population يرتكز هذا القطب على الجسم النوعي، أي على الجسم المتقاطع مع آلية الكائن الحي والذي يستعمل كدعامة للعمليات البيولوجية. كالمواليد، والوفيات ، التناسل، مستوى الصحة، السن، الإنقاذ والإبقاء على قيد الحياة. يتم التكفل بهذه الأمور يتم من خلال التدخلات والمراقبة المستمرة. وينضم إلى هذه التقنية، معرفة نافعة لكيفية إدارة الشعوب، كالتحكم في النمو الديموغرافي، الأوبئة، الإقتصاد، العلوم الإنسانية. وإلى جانب ذلك السلطة التي تستعمل للتخطيط العائلي، مراقبة الهجرة، برامج الصحة العمومية، السياسة الإجتماعية.[308]

من هنا نلاحظ أن السياسة في المجال البيولوجي وتدخل الدولة في توجيه الحياة، له أهمية قصوى يمكن توضيحها من خلال موقف **دومنيك لوكور** في معجمه، Dictionnaire de la pensé Médicale والذي يعتبر توضيحا لكيفية تحول الحياة إلى رهان أساسي في نشاط السياسيين، و خاصة في التصور السياسي لها، سواء في معالجة المواطنين أو الأفراد كحالات خاصة.[309]

---

307 DominiqueLecourt (Sous la direction),Dictionnaire de la pensée médical,p.177

308 Ibid, p. 177.

309 Ibid, p. 178.

إن إنتقال العلوم من دراسة الوظائف إلى معرفة التحكم في الخلايا، يكون بذلك قد دخل في خبايا الجنس والتكاثر، إنها لا تكتفي بملاحظتها، بل القدرة على إحداثها وقت الحاجة.وهذا في نظر الفيلسوف - وفي أيامنا هذه- كان الاضطراب (الولَه) والضرورة المستعجلة إلى إعادة مزاوجة الأخلاق والبيولوجيا.[310]

ولذا فالفيلسوف في نظر **داغوني** لا يستطيع حل هذا المشكل فحسب، بل يستطيع المشاركة في تشكيل الوعي حول ما توصلت إليه العلوم من نتائج باهرة. فالأمر يتعلق بوضع حد والتشكيك في بعض المحاولات التي تهدف إلى الخرق والتعدّي على الحياة. في الحقيقة كما يرى الفيلسوف، أن الآثار الإيجابية التي نجنيها بسرعة (عاجلا) تتحول إلى أخطار آجلا.[311]

من خلال الأمثلة التي سوف يقدمها لنا الفيلسوف، يوضح لنا الخلل و الانكسار في تلك الهيئات. في القيم والمبادئ الصلبة المتفق عليها، إنه تجاوز لما يُدعى بالحقوق. وبالتالي التلاعب بالكائن الحي نفسه. يوضح لنا الفيلسوف هذا الخلل من خلال أمثلة كثيرة وحوادث واقعية تبرز الأمر المحتوم، مع التخلي عن الأخلاق بالرغم من قلتها، كما توضح مخاطر علم في تطور مستمر دون توقف. إلى جانب مهارة المجربيّن الذين استطاعوا استخلاص النتائج زادت الأمر تعقيدا.

<u>أول هذه الأمثلة أو الحالات</u>: التي تؤكد التلاعب بالإنسان، في كيفية التأكد من نجاعة الأدوية، أو ما يسمى بالغة الفرنسية Effet Placebo بحيث يقوم المجرّب بتقسيم المرضى إلى فئتين إحداهما يناولها الدواء ويعتني بها والأخرى يتركها لحالها دون علم منها بوضعيتها. هذا الأمر ضروري من جهة والمناقض للمبادئ من جهة أخرى، لأنه بالرغم من ضرورته يثير مشكلة قانونية. فمجرد تقسيم المرضى وإخبار البعض منهم يعتبر في حد ذاته لا عدالة. هذا يشبه إلى حد ما التجريب على المساجين. ما هو الأساس الذي تمّ عليه الاختيار؟ نرجع دائما إلى تبرير هذا الأمر بالضرورة العلمية. لكن هذه الضرورة - في نظر الفيلسوف – ينبغي أن لا تكون مبررا لأخلاق الإنسان الوسيلة L'Homme moyen . إننا نرى في هذه المحاولة المموهة. بداية لهمجية وإخضاع الحقوق للأمر الواقع.

<u>الحالة الثانية</u>: من طرق حل مشاكل الذمة، أن يقوم المجرّب بالتجريب على نفسه. فيجعل من نفسه المجرّب والمجّرب عليه، إخضاع الذات من طرف الذات نفسها. إن تجريب الطبيب على نفسه هو عمل شجاع لكن فلسفيا هو عمل مؤسف. فالطبيب الذي يجرب ما لا يستطيع

---

310 De là de nos jours, l'affolement et l'obligation urgente de recroiser la morale et la biologie

- François Dagognet, Le vivant, p. 170.

311 François Dagognet. Le vivant, P. 170.

التجريب على غيره،لا يغيّر في طبيعة الفعل شيء. بحيث أننا بهذا الشكل نلغي المشكلة ولا نعالجها. قد يمنع هذا الفعل المعاتبة من طرف الغير، ولكن لا يمنع من انتشار البربرية والهمجية.

يرى الفيلسوف **داغوني**، أن البعض قد يعترض على هذا الموقف، بحجة الضرورة العلمية، وتلبية الحاجة المستعجلة. إننا نمتثل لضرورات كثيرة، ولكن دائما نخطئ سواء مع أنفسنا أو مع الغير. ففي كلتا الحالتين نستعمل الإنسان كوسيلة، ونعطي الضوء الأخضر لتجريد الجسم من طبيعته لأغراض علمية[312]

<u>الحالة الثالثة</u>: إن التأمل في تاريخ الطب والعلاج، يكشف عن ذكاء الممارسين له. الذين أبدعوا آلاف الطرق والحيل لتمرير الممنوع. وهذا دليل آخر على استعمال الإنسان من طرف الإنسان. وفي هذا يقدم الفيلسوف أحسن الأمثلة حول المساجين المحكوم عليهم بالإعدام، والذين تعرض عليهم تجارب خطيرة، لا نعلم عقباها. مقابل حرياتهم (خروجهم من السجن). وبالتالي نكون قد منحنا لهم فرصة فريدة من نوعها، وكأنهم يشترون أنفسهم من المجتمع. ويؤدون خدمة له. هذا المجتمع الذي تعدوا على أبسط مبادئه من قبل. في هذا المجال يعطي الفيلسوف مثالا عن العالم الفرنسي **لوي باستور** Lous Pasteur(1822-1895م) الذي كتب رسالة لحاكم البرازيل، يوم 25/سبتمبر/1885م، وكان يهتم بالبحوث الخاصة بداء الكلب آنذاك. يقول فيها:<< سيدي، لو كنت حاكما أو ملكا أو رئيس جمهورية، إليك طريقة عفوي على المساجين أو المحكوم عليهم بالإعدام. أعرض على محامي المحكوم عليه، ليلة إعدامه، الاختيار بين الموت وبين تجربة علمية تتمثل في حقنة من مصل يمكّن الإنسان من مقاومة داء الكلب. في هذه الحالة أعتقد أن حياة المحكوم عليه بالإعدام قد أنقذت... فبالرغم من سني ووضعيتي الصحية، أنتقل بكل إرادة وسرور إلى **ريو دو جانيرو** Rio de Janeiro، حتى أقوم بهذه الأعمال، لو وافقتني الرأي.>>[313]

يرى الفيلسوف أنه علينا أن لا نستغل وضعية هؤلاء المحكوم عليهم، وحملهم على إمضاء عقود، ونكون قد وقعنا هنا في عملية المتاجرة، ذلك أننا نوقع المحكوم عليه في فخ، حتى نقيم عليه عملا كنا قد آخذناه عليه سابقا.[314] فالتجارب التي تجرى على المساجين، خاصة المحكوم عليهم بالإعدام، هي تجارب الإنسان على الإنسان، مبدأ الإنسان الوسيلة. هذا الأمر الذي عادة ما يُبرر بالضرورة، هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الهمجية.

---

312 François Dagognet. Le vivant, p. p. 160-161

313 Ibid, p. 162.

314 François Dagognet. Le vivant, p. p. 162-163

الحالة الرابعة: يذكر **داغوني** حادثة تتمثل في محاكمة أحد الأخصائيين في أمراض الجلد، من طرف مجلس قضاء ليون Lyon . الذي يجرب على طفل صغير دون علم هذا الأخير ولا علم والديه. وكان يعتقد أنه بإمكانه القضاء على المرض- الذي كان يعاني منه الطفل- من خلال تلقيحه مرضا يمكن التحكم فيه أكثر. ولكن الواقع أن العلاج الذي كان يقدمه الطبيب للطفل، كان مجرد تغطية لتجاربه في مجال علم البكتيريا Bactériologie . إننا هنا مثلما يرى الفيلسوف **داغوني**، نتجرأ على استغلال سكرات الموت، لفتح باب أمام باثولوجيا جديدة Néo-Pathologie.[315]

الحالة الخامسة: في المؤتمر الدولي حول أخلاقيات الطب سنة 1966م اقترح الأستاذ جان برنار Jean Bernard (طبيب فرنسي) حلا يتمثل في إمكانية التجريب على الإنسان، إذا كان الأمر لا يشكل خطرا عليه، هذا الاقتراح، فتح مجالا للنقاش، الذي كان يدور حول مشكلة وهي نسبة النجاح أو عدمه. وهل يمكن ضمان بسهولة هذا الأمر وحسابه. يقول الفيلسوف **داغوني**:<< إن مجرد خلط العلمي بالشخصي يغير كل التقديرات، ويخضع القناعات لكل الأهواء.>>[316]

الحالة السادسة: هناك بعض البلدان لا تضايقها هذه القضايا، إلى درجة استئجار بعض المحترفين، الذين يخاطرون بأنفسهم وذلك بإقامة بعض التجارب العلمية عليهم. ولكن مهما يكن يعتقد الفيلسوف أننا هنا أمام انزلا قات، نتيجة تبرئة الذمة، لا تعرف الحدود. ذلك أنه بإمكاننا استغلال خدمات البعض كالغواص، أو الطيار يختبر طائرة تجريبية. حتى إن كلفه هذا حياته.

لكن هل يمكننا انطلاقا من هذا أن نسمح لشخص ببيع جسمه، لاستعماله مثلا في تجارب صيدلانية لا نعلم عقباها؟ إننا هنا لا نستأجر قدرة أو شجاعة، بل شخص من دم ولحم وعظم، تحول إلى وسيلة مخبريه، إننا ننقص من قيمة الذي اشتريناه.

الحالة السابعة: حتى نحل المشكلة العويصة، نرجع إلى الحيوان، في كثير من الأحوال. ولكن مهما تكن النتائج فلا يمكن نقلها كما هي إلى الإنسان. فبعض الحيوانات تتحمل السموم، التي لا يمكن للإنسان تحملها، لنأخذ مثالا حول التبغ. باعتباره مسئولاً عن إحداث مرض سرطان الرئة. في حين نجد الأرانب المسلط عليهم الدخان، لا تتأثر به ولا بسمومه. انتقل بائعي التبغ من هذا

---

315 Ibid, p. 163.

316 Le seul fait de mêler le scientifique et l'individuel, modifie toutes les évaluations et soumet la doctrine à tous les vents.

- François Dagognet, Le vivant, p.p. 165.166.

المثال إلى استنتاج أن القطران المحتوى في التبغ، لا يؤثرعلى الصحة. هذا الأمر لا يثبت إلا قضية واحدة وهي أن لا نمر من الحيوان إلى الإنسان.

يعتبر الفيلسوف **داغوني** هذه الحالات، مظهرا خارجيا من مظاهر تبرئة الذمة، في مجال الطب أين استطاع العلماء استئجار الأخلاق والواجبات، التي لا يحترمونها، بل يحترمون ويمجدون المعايير التي لا تضايقهم. وبالرغم من ذلك يعتقد الفيلسوف أنه علينا الاحتفاظ بمبدأين أساسيين، هما احترام الإنسان و احترام حياته. بل الاثنين معا، وهو حماية الحياة الإنسانية La préservation de la vie humaine لأن البيولوجيا تتقدم بخطى عملاقة وهي تحطم في طريقها ،آخر ما بنته الأخلاق والقوانين. علينا في هذه الحالة تحذيرها من تدخلاتها.[317]يبدو أن هذه إشارة واضحة من الفيلوسف إلى حاجة البيولوجيا إلى ضرورة وجود ضابط أخلاقي.

في البداية ينبغي الإشارة إلى أن هناك مبدآن لا يقبلان النقاش في نظر الفيلسوف: أولا، أن نمنع تجريب الإنسان على الإنسان، وحمايته من كل ما يمكن أن يتلف أساسه البيولوجي. حتى في حالة التجارب من أجل أهداف علمية. أو لأغراض علاجية، وذلك بالدفاع عنه ضد كل المخاطر التي تهدده، خاصة التي تتعلق بالتجارب المباشرة عليه. ثانيا، علينا أن نحافظ على إرث الحياة، ورفض كل ما من شأنه أن ينقص من قيمتها. والأكثر من ذلك حماية الكائنات الحية من حيوانات ونباتات مهددة، وعدم إتلافها من غير فائدة. بإختصار حماية الإنسان وحماية مصلحته. و بعبارة أخرى، حماية الكائن الحي خاصة الإنسان والطبيعة. فحماية الحياة الإنسانية لا تكون إلا في الالتقاء لهذين الشرطين. في الوقت نفسه، شخصية الموضوع، وتوازنه البيولوجي الجوهري.[318] وهنا نطرح السؤال الآتي: **هل يتعلق الأمر هنا بتحريم ومنع كل التجارب؟**

هناك على الأقل ثلاثة إمكانات في نظر **داغوني** تمكننا من صد هذا الإعتراض:

الأولى: يمكن اتخاذ القردة (*) Les anthropoïdes، بمثابة موضوعات للتجارب الصيدلانية، أو البكتيريا نية. لتقاربها مع الإنسان. وكذلك لأن النتائج التي نصل إليها مع القردة، تكون قريبة من النتائج التي تحدث على مستوى الإنسان، وفي الوقت نفسه، لا نتجنب تماما المرور بالإنسان.

الثانية: كما أن الوضعيات والحوادث، تكفي بشكل تام لسد حاجاتنا في مجال البحث، دون اللجوء إلى التدخلات. في نظر الفيلسوف، علينا أن لا نصنع ما تعطينا إياه الطبيعة بشكل كاف.

الثالثة: لا ننسى ما قد تحدثنا فيه من قبل وهو أن الأهم بالنسبة للبيولوجيا والطب، هو تعلُم كيفية إخراج الباطني إلى الظاهر، بما في ذلك الأكثر عمقا[319]

---

317 François Dagognet, Le vivant, p. 158.

318 Ibid, p. 158.

(*) Les anthropoïdes صفة تنسب إلى القردة الأقرب شبها بالإنسان.

يعتقد الفيلسوف **داغوني** أنه علينا أن لا نتعجل بمحاكمة البيولوجي المخبري. لأن الحياة الاجتماعية لم تنته من ممارسة الاستغلال وتحويل الإنسان من طرف الإنسان. يقول في هذا الصدد:<< **إن الحياة الاجتماعية تعلمنا عدم احترام الحياة.**>>[320]وهذه إشارة إلى مسؤولية المجتمع في كل ما يحدث من تجاوزات في مجال البحوث العلمية

ج) موقفه من الإخصاب الصناعي والإجهاض:

البيولوجيا أو العلم الطبيعي المتفوق في نظر الفيلسوف **داغوني** لا يتقدم إلا عبر مراحل ثلاث، تبطل القداسة(قداسة الكائن الحي):

المرحلة الأولى: هي مرحلة البحث التجريبي الذي يعين على معرفة أجهزة معينة ووظائفها.(كالهضم مثلا والتنفس والحركة). هذه البحوث، تنتقل مما هو معطى أمامنا، ظاهري إلى ما هو خفي. لا يكون في وسع العالم البيولوجي إلا التأمُّل والإعجاب بغنى هذا الجسم ووظائفه.

المرحلة الثانية: وهي الأهم في نظر الفيلسوف **داغوني**، والمتمثلة في إخراج ما هو باطني.

المرحلة الثالثة: فبعد الإكتشاف والتحليل والتحكم في الوظيفة، يمكن عندها التدخل لإيقافها، أو توجيهها، تعديلها أو تعويضها وتبديل مراحلها. إن أفضل صورة توضّح ذلك، تلك التقنية التي نسّميها بالإخصاب الصناعي. إن معرفة نظام الحياة كافية، كي يتم تخليصها من كل الأحكام التي ألحقت بها من غير حق، كعدم التنّوع، وعدم الانفصال، وعدم المس في الأخير.[321]

يتم الإخصاب الصناعي بطريقتين: الغائرتين

- الإخصاب بواسطة مني الزوج I.A.C (*)

الإخصاب بواسطة مني لمتطوع I.A.D (*)هذه التقنية تطورت ابتداء من سنة 1954م، حين تمكن العلم من الاحتفاظ بالمني، وإنشاء بنك لهذا الغرض. عن طريق تقنية التبريد أو التجميد. وكلتا الطريقتان تستغلان مني الرجل في عملية الإخصاب الصناعي. يرى **داغوني**، أن اللجوء إلى الإخصاب الصناعي سببه محاولة التغلب على العقم. لكننا لا نعلم كم هي الحالات التي نلجأ فيها إلى مثل هذه التقنيات إن هذه التطبيقات في نظر الفيلسوف **داغوني**، أحدثت زلزالا مع أنها من الأمور التي تعمل ليس فقط على مساعدة الزوج العقيم فحسب بل الوضعيات الأخرى.

---

319 La biologie et la médecine consistent, pour l'essentiel à apprendre à mettre le dedans au –dehors y compris le plus enfoui "

- François Dagognet, Le vivant, p. 168.

320 François Dagognet, Le vivant, p. 168.

321 François Dagognet, Nature, p.146.

(*) I A C insémination avec le sperme du conjoint.

(*) بالمناسبة الفيلسوف " داغوني" من مؤيدي التزاوج بين شخصين من نفس الجنس

مثل تطبيق هذه التقنية على المرأة العازب، كما يمكن تطبيقها على الأرملة. وكذا على النساء الشاذات جنسيا(*). ولكن في نظر الفيلسوف أن هناك مشكلتين تعترضان هذا العمل مما يؤّدي إلى قلة الأمل.

الأولى: تتمثل في اعتراض الكنيسة الكاثوليكية لهذه الطريقة الإخصاب الصناعي لعدة أسباب منها:

- أن الأعضاء التناسلية لها وظيفتان، التناسلية والشخصية (خاصة). لا يمكن أن نقوم بإحداها إلا وقامت معها الأخرى. وإلا قضينا على الارتباط الجنسي الطبيعي.

- من جهة أخرى تقف الكنيسة الكاثوليكية ضد عملية الاستمناء Masturbation و كل ما يشبه ذلك، لأنه يحطم عمل كامل الخلق.

- أما عملية الإخصاب بواسطة مني لمتطوع Hétéro Insémination فهي تمس بمعنى الأبوة، وتنقص من قيمة الزواج. لأننا نميز الأب البيولوجي من الأب الاجتماعي. من جهة أخرى لا يؤدي المتطوع هنا إلا دورا تناسليا (التكاثر)ـــ وهي خاصية حيوانية في نظر الكنيسة تنتمي إلى اهتمامات البيطري، و تنقص من قيمة الإنسان.[322]

- أما إذا وفرنا هذه الإمكانية للمرأة العازب، فهذا غير ممكن، لأن هذا هجوما على القيم الأساسية. مثل الزواج، النسب، الأبوة، القرابة، التربية، العائلة. يعتقد الفيلسوف **داغوني** أنه علينا أن لا نستخف بتبريرات الكنيسة.

الثانية: تتمثل في مشكلة أكثر تعقيدا.كانت سببا في اختلاف المشرّعين و رجال القانون. وحتى الأنثربولوجيين.وهي مشكلة الإخصاب بعد الموت Insémination Post- Mortem هذا النوع من التقنية يقترب من تطبيق الإخصاب بواسطة مني الزوج I A C . فمثلا رجلا يصاب بالعقم نتيجة تناوله لدواء أو تعرضه لأشعة نتيجة علاجه لمرض السرطان مثلا. لكن قبل تلقيه للعلاج، قرر وضع جانبا أو الاحتفاظ ببعض منيّه لأجل توسيع و بناء أسرته فيما بعد.و هذا طبعا بالاتفاق مع زوجته. لكنه للأسف يموت الرجل. فهل بإمكان الزوجة أن تطلب عملية الإخصاب الصناعي من مركز حفظ المنيِ C E C O S ؟(*)الرد من دون شك سيكون بالرفض، مع تقديم أعذار مثل: على الحياة أن تأخذ مجراها الطبيعي، وإعادة دفعها من جديد عن طريق الإخصاب الصناعي، بواسطة مني الأب، يثير الحزن لدى الزوجة، و يقتل الأمل. و قد يقال لها، أنه ما دام الزوجان قد انفصلا بسبب موت الزوج، فلا يجوز للزوجة أن تتقدم بمثل هذا

(*) I A D insémination avec le sperme d'un donneur anonyme. Ou la Fécondation in-vitro, avec sperme d'un donneur

322 Françis Dagognet, L'homme maitre de la vie? p. 211.

الطلب، فهو أمر يتعلق بالزوج كما يتعلق بتواصله. ثم، ما هو مصير طفل يلد من أب ميت؟، كيف ينمو؟[323]

لا يوافق الفيلسوف على هذه الاعتراضات ما دمنا لا نُعَرِّضُ الحياة للخطر. وعليه، يمكن للأسرة أن تستمر معنويا حتى إن توقفت فيزيائيا، وإلاّ لماذا نسمح بتبني رضيع تخلت عنه امرأة عازب، أو أرملة.[324]يمكن الإشارة هنا إلى أن المماثلة ليست تامة نظرا لبعد الحالتين، ومعا ذلك يستعملها الفيلسوف كحجة لإبطال موقف المعرضين للموقف السابق.

رأينا في الحالات السالفة الذكر، استغلال مني الرجل للإخصاب الصناعي، فكيف هو الحال بالنسبة لاستغلال بويضات المرأة لهذا الغرض.فمثلا تؤخذ من امرأة بويضة Ovocyte تعطى لصديقتها العاقر، تلقح بمني الرجل ثم يعاد تثبيتها. على إثر هذا أنشئ بنك خاص بحفظ البويضات عن طريق تجميدها.

هذا يؤدي– مثلما ذكرنا بخصوص الأبوة – إلى تمزيق معنى الأمومة، وتقسيمها أحيانا إلى ثلاثة أقسام: امرأة تعطي البويضة. أخرى تقبل حملها(الرحم المستأجر). لأن الزوجة لا تستطيع الحمل أو مواصلة الحمل حتى النهاية، لأسباب مرضية. وامرأة أخرى تسمى الأم الاجتماعية، المستفيدة. المهم، هو أن الطفل يلد من بويضة غريبة، ملقحة بمني زوج، ومرت بأم مستأجرة. إن هذه الصورة القصوى من صور الإنجاب، في نظر **داغوني،** تثير معارضة رجال الدين. لأن الطفل في هذه الحالة وكأنه خرج من معمل معقد، دون أن ننسى قضية المال هنا. لأننا نشتري أو نستأجر رحما. ونكون بذلك قد وصلنا إلى الطفل السلعة. L'enfant Marchandise. والأخطر من هذا، إذا تصورنا ولادة طفل مشّوه.

فالأبوان اللذان استأجرا الرحم، لا يقبلانه، لأنه غير مطابق للعقد ولا للأوصاف المنتظرة. في هذه الحالة لمن يكون الطفل؟ هل يكون للمرأة المستأجرة؟ هل يكون للوالدين اللذين طلبوه؟ إنها مسألة قانونية، حول طفل مريض بلا مأوى، ولا أحد يرغب فيه. [325]

يعتقد **داغوني،** أن لتبرير هذا الفعل (استئجار الرحم). نعتمد على مصدر، وهي قصة سارة وهاجر. فسارة امرأة إبراهيم عاقر، لا تنجب. وكانت لها خادمة مصرية اسمها هاجر. ولما كان

(*) Le centre d'étude et de conservation du sperme C E C O S كل سنة عدد الولادات التي تتم عن طريق هذا المركز. تقدر ب.2000 و ذلك بتطبيق طريقة الإخصاب بواسطة مني متطوع.

- Cohen Jean, Fécondation, in, Don de gamètes et d'embryons,encyclopédie universalis, v6.0.72, France S.A 27/06/2002.

323 François Dagognet, L'homme maitre de la vie? p. 112.

324 Ibid, p. 113.

325 François Dagognet, Le vivant, p. p. 174.175.

الأمر كذلك، قالت سارة لإبراهيم، إن الله لم يهب لي ولد، فتزوج خادمتي، لعلي أجد السعادة من خلال إنجابها لي طفلا. وتلد هاجر لإبراهيم ويسميه إسماعيل.

إننا نستطيع إلى حد بعيد التخّلي عن الأب أو الأم، واستبدال أحدهما بطريقة الإخصاب بواسطة مني الزوج I A C. والآخر بأخذ بويضة، حتى تتم المراحل الأولى للجنين خارج الرحم و هذا ما نطلق عليه اسم أطفال الأنابيب Le Bébé éprouvette ثم إعادته إلى رحم الأم. بهذه الطريقة نكون قد حاربنا العقم. لكن منطقيا، نكون قد عوضنا بالتناوب ، الأب ثم الأم ثم الاثنين معا.

من هذا العرض الواسع، وهذا المسح الأفقي، يمكن أن نحتفظ بفكرة أن البيولوجي يمكنه اليوم، تعليق، توجيه، مراقبة، تغيير، مثلما يريد وفي أي وقت يريد، أي مرحلة من مراحل الإخصاب الصناعي. من خلال قدرته على تفكيكها و تفصيلها.[326]

وعليه، يعتبر **داغوني** مجال الإخصاب الصناعي، وزرع الأعضاء أو التقنيات الطبية بشكل عام، من المسائل الجديدة التي تثيرها البيوإتيك، والتي لقيت تأييدا من التأسيس المشترك ضد الإبداعات والاكتشافات البيولوجية، وهي معارضة الطبيعيين، والرومنتيكيين والمتدينّين الكاثوليكيين التي لا تنظر إلى الأسرة إلا على هيئتها الكلاسيكية فهي تعارض أي محاولة تقنية في مجال الإخصاب الصناعي. كل هذا، هو مظهر من مظاهر إرادة البقاء أوفياء للطبيعة الأسطورة. بالنسبة للفيلسوف **داغوني، لا الكائن الحي ولا الأسرة والجسم بأمر طبيعي، أي لا أحد منهم طبيعي.** فما دام ليست هناك طبيعة فإنه من الممكن إذن مواصلة تغيير الكائن الحي، مثلما نفعل دائما. إن تغيير الكائن الحي هو شعار الفيلسوف **داغوني.**

كما نجد عنده عبارة تغيير الحياة، وعدم مسايرتها. فالحياة ليست مقدسة ولذا يمكن تغييرها. بعبارة أخرى أكثر دقة التحكم في الحياة هذا ما يبدو على الأقل من خلال عنوان أحد كتبه La maîtrise du vivant. فبواسطة علم الزراعة، يمكن التغيير في النبات، ويعطي الفيلسوف مثال عن أعمال العالم Norman Borlaug الذي نال جائزة نوبل للسلام، نتيجة بحوثه حول القمح، التي سمحت له بجعل القمح اللين أكثر صلابة. تحويل الكائن الحي بواسطة الزراعة يبدو في نظر الفيلسوف أسمى أشكال الإبداع الفني. فإلى جانب تحويل الكائن الحي وتغيّيره، يمكن كذلك - ومثلما يحصل في مجال طب الحيوان - صناعة كائنات حية جديدة [327]

من المسائل الأكثر أهمية بالنسبة للفيلسوف مسألة الإجهاضAvortement، أو عملية إيقاف الحمل إراديا. بتقدم التقنية في مجال الولادة وعلم الأجنة. أصبحت بعض المسائل

---

326 Ibid, p. 175.

327 Robert Damien (Sous la direction), François Dagognet, Médecin- Philosophe - épistémologue, p.p. 116-118.

التي لم تكن مطروحة من قبل تفرض نفسها اليوم. مثلا: هل يمكن لنا أن نفرض على الوالدين الاحتفاظ بطفل متأخر عقليا أو معوق حركيا بمعنى طفل غير عادي؟ هل نعتبره جزء من الأم و بالتالي عليها أن تحتفظ به؟، أم هل ينبغي التخلص منه؟ ثم من يقرر ذلك، هل الأم لوحدها؟ أم الأم والأب معا؟. وإذا تعلق الأمر بمراهقة، كيف يكون الحال؟. -نشير إلى أن رأي الأب في قضية الإجهاض غير مطلوب في القانون الفرنسي-إذن لماذا و متى نجعل الإجهاض شرعي؟

في فرنسا يمكن توقيف الحمل قبل نهاية الأسبوع العاشر، لأن ابتداء من تلك اللحظة، تكون حركات الجنين، ملحوظة وواضحة، فهي دليل على القدرة الذاتية للجنين. يعتبر الفيلسوف **داغوني** أن هذا العمل يؤدي إلى نتائج غير معقولة، كأن يطالب الوالدان تعويضات من الطبيب أو المؤسسة التي تكفلت بالمتابعة الطبية لحمل الأم، بحيث أن هذه الأخيرة لم تدرك النقص والضعف الذي كان يتصف به الجنين(خلل في التكوين). وهذا مظهر جديد من حقوق الجنين في الولادة سليما.

و) موقفه من الإستنساخ، ومن تقنية زرع الأعضاء:

يسجل **داغوني** ثلاث حدود للتدخل التقني في الكائن الحي، وعدم تجاوزها:

1 ــ علينا أن نحافظ على تنوعه.

2 ــ أخذ بالاعتبار تركيبه وتعقيده.

3 ــ إنقاذ الإنسانية.[328]

يرى **داغوني،** أنه من الأجدر أن نترك للحياة ما هو مهم من حريتها. لأن التحكم فيها باستمرار، يؤدي إلى تفقيرها.والتقليل من قيمة الإنسان في الوقت نفسه. يعتقد الفيلسوف في هذا المجال أن هناك ثلاث بحوث جارية اليوم – إلى جانب ما سبق ذكره – غير مقبولة أخلاقيا. **الأخلاق في كل مرة تنصح البيولوجيا حتى لا تكون مفرطة.** هذه البحوث الثلاث هي:

1 ــ الاستنساخ: يعارضه الفيلسوف، لأنه يهدف إلى الإبقاء على النوع كما هو، وذلك كلما تم استنساخه، وهو يؤدي إلى تفقير الكائن الحي المحكوم عليه بالإعادة فقط، إننا بهذه الطريقة نحبس ونوقف الكائن الحي(هذا من دو شك يخالف نظرة الفيلسوف له، من حيث أنه يتميز بالتغير والفردانية(*). بل الأكثر من ذلك، من يدري أن الأمر يتعلق بنوع من التحكم في الجنس البشري. وهذا ما يعارضه بشدة. فالمطلوب إذن هو تصليحه وتغييره.

---

328 Robert Damien (Sous la direction), François Dagognet,Médecin- Philosophe - épistémologue, p.119.

(*) يمكن الرجوع إلى نظرته للكائن الحي

(*)eugénisme الهدف من هذه التقنيات، - تقنيات التحكم في الولادة- هو تحسين الجنس البشري.

- François Dagognet, Le vivant, p. 179.

2 ــ هناك بعض التدخلات ينبغي رفضها ليس لاعتبارات أخلاقية، و لكن لعدم التنبؤ بنتائجها، خاصة البحوث التي تهدف إلى تحسين النوع الإنساني eugénisme(*)بالنسبة للفيلسوف هذا خطأ إن لم يكن رعب لأننا لا نعلم أي إنسان ننتظر. هذه التقنية وكل ما يؤدي إليها يعارضها الفيلسوف بشدة لأن هذه العملية في نظره تهدف إلى الانتخاب وهو أمر مرفوض أخلاقيا، ومن مظاهره، الزواج بين أشخاص بينهم توافق جيني Compatibilité génétique .

لا ننكر بأن هذا الإجراء يكون قد قام به **أفلاطون** من قبل، و قد اعتبره حلا، ووسيلة لربط القوي بالضعيف. وإلا تعرضت الدولة للذوبان. فحين يتجمع الضعفاء فهم لا يلدون إلا ذوي الورع، الملتزمين. وحين يتزاوج الأقوياء فيما بينهم، فهم لا يلدون إلا العجّم. وهذا يقتضي شيئا من التوجيه والترويض والتحكم، في كل منهما. ينبغي إذن اكتساب القدرة والمرونة على ربط الطرفين.

لقد أخذ الأمريكيون بدورهم هذا النظام (نظام التجمعات). حتى يتجنبوا الاضطراب وعدم التوازن البيولوجي، أو التكاثر المختل.فهم لا يمنعون من التزاوج بين المرضى، ولكن يمنعون الولاداة فيما بينهم. إن قضية الصحة هي قضية دولة.

من المشاريع التابعة لتحسين النوع الإنساني، ذلك الذي يتعلق باختيار جنس الطفل قبل الولادة، يتساءل الفيلسوف، عن السبب الذي يجعلنا نتحمل عائلة غير متزنة. لماذا لا نعمل على التنوع في الجنس؟ ونقاطع بين الذكر والأنثى؟. يكفي التحكم في طريقة، الإخصاب بواسطة مني الزوج I A C، وذلك بعزل الخلايا التي تتسبب في إنجاب أنثى، حتى يكو ن لنا ذكر أو العكس. هذه الطريقة لا تصلح إلا في بعض الحالات، مثلما يعتقد الفيلسوف. مثلا إذا كانت العائلة لا تنجب إلا ذكورا، يمكن أن يختاروا أنثى بهذه الطريقة أو أن الخلايا الأنثوية تحمل مرضا، يمكن التخلص منها و بالتالي لا ننجب إلا ذكورا. ولكن مهما يكن فالحياة، في نظر الفيلسوف، أثبتت نجاحها، لماذا نريد استبدالها؟[329]

3 ــ من التقنيات التي تهدف إلى تحقيقي المصلحة الشخصية ما يتعلق بالزوج الشاذ جنسيا (امرأتين)، والذي يريد طفلا. العملية تتم عن طريق أخذ بيوضة من كلا الزوجين، ثم يتم تلقيح إحداهما بأخرى، ثم توضعان في رحم إحداهن، حتى يتم الحمل، لطفلين في الوقت نفسه. أجريت هذه العملية على الفئران، سنة 1977م. يرى الفيلسوف، هنا باننا نخل بعملية الإخصاب. لأننا من جهة لا نولّد إلا الإناث التي لا تعرفن إلا أمهاتهن. ومن جهة أخرى الحد من إمكانية التنوع. وهو أحد معطيات الحياة الإنسانية، والذي نخضعه في هذه الحالة للمصلحة الشخصية.

---

329 La vie à assuré son succès, pourquoi vouloir La remplacer?
- François Dagognet, Le vivant , p. p.179. 180.

إن هذه المحاولات الثلاث، الاستنساخ، واختيار جنس الطفل مسبقا، وتلقيح بويضة بأخرى. لها نتائج غير مقبولة تماما. فمثلما تحاول إبعاد التزاوج بين الذكر والأنثى وما ينجم عنه، فهي تعيق الحياة، وتضرب في نفس الوقت الفرد والمجتمع.

للفيلسوف **داغوني** تصور حول تقنية زرع الأعضاء ويبدو أن البدايات لهذا التصور كانت معقولة وتتمثل في نقص الأعضاء للزرع من جهة وإمكانية طلبها من عائلة مستعدة للتطوع بجسد أحد أقاربها(ميت)، من جهة ثانية، فالكثير من الأشخاص لم يستفيدوا من تقنية زرع الأعضاء، وهذا راجع لتصورهم للجسم أو الجسد على أنه الكل أو الإنسان، وهذا خطأ في نظر الفيلسوف لأنه مهما كان فالإنسان جسم وروح. لكن الجسم أو الجسد هو موضوع فلسفة **داغوني** فكلمة جسد تظهر في كثير من مقالاته وكتاباته، هو موضوع تفكيره حتى إن كان ميتا. لأنه مصدر كثير من المعلومات، وهذا ما يبرر أهمية طب الموتى La médecine des morts ، أو الطبّ الشرعيّ Médecine Légale ، وهو مجال يلتقي فيه المجتمع، المُشرّع قو الطبيب.[330]

إن فكرة التحكم في الحياة هي كذلك فكرة التحكم في الموت لأن من الأفكار التي تهم الفيلسوف فكرة تأميم الأجساد أو ما يعبّر عنه هو في كتابه التحكم في الكائن الحي بفكرة " نهاية المقابر" Fin des cimetières تقنية زرع الأعضاء هي تصور إمكانية تفكيك الجسد وتركيبه، وهي طريقة لتجاوز حيرة الموت. فالتبرع بالأعضاء هو وسيلة غير طبيعية، ولكنها واقعية، تمكننا من تصور أن الموت أصبح غير موجود وبالتالي تجاوز هذه الحيرة وهي حيرة الموت. فالحياة قلق لمدى طويل ما دام الموت ينتظرنا. يرى الفيلسوف أنه على الدولة تحمل مسؤوليتها في إنقاذ حياة بواسطة استعمال جزء من جسد ميت. إن شيوعية الجسم تسمح له بالتخلص من الزوال. كما أن توحيد الأجسام بالنسبة إلى الفيلسوف يكون بارتباط هذه الأخيرة ببعضها البعض والكل في إطار المدينة أو السياسة. وفي هذه الحالة فإن الجسد ليس ملك لصاحبه، إنه رمز للطبيعة الإجتماعية والثقافية الإنسانية.

تعتبر هذه الفكرة قديمة بالنسبة إلى الفيلسوف، فكرة تأميم الأجسام أو شيوعية الأجسام، وكأنها فكرة صوفية، في نفس الوقت أخلاقية و دينية.[331] إلا أن هذه الفكرة ليست مبنية على اعتبارات أخلاقية بل على الإكراه الإجتماعي و القانوني، ذلك أن مسألة انقاض الحياة لا تستدعي التشاور أو ربط الأمر بحرية الأشخاص، وفي هذه الحالة يعتقد الفيلسوف أن الناس ليس لهم استعداد للتنازل عن أجسادهم لغيرهم.

---

330 Robert Damien (Sous la direction), François Dagognet, Médecin- Philosophe - épistémologue, p.123.

331 Ibid, p. p. 123-125.

ي) موقفه من الموت الرحيم Eutanasie:

لا يمكن للكائن الحي أن يتجاوز الزمان إلا لوقت محدود. وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يرغب في الدوام والخلود، الذي لا يعني إلا الجنس. ففي هذه الحالة الحياة والموت غير منفصلين.فالكائن الحي يخضع لحتمية مزدوجة، من جهة الاستمرار، ومن جهة أخرى التجديد. إمكانيتين متناقضتين. هذا ما يبدو إن لم ندرك العلاقة بينهما.

يرى الفيلسوف **داغوني** أنه مادام البيولوجي يتدخل في الولادة بحيث يمنح الحق في الإجهاض، فهو كذلك يتدخل في تقرير موتنا. هذا الموت الذي يعتبر حق كل واحد فينا. حتى في اختيار وقته.إن الطبيب أحيانا يتظاهر لنا بالمظهر الإنساني. ويعرض علينا بعض الحجج التي تبرر فعله(الموت الرحيم للمريض). كأن يقول إلى متى نتحمل عبء الحياة؟. لماذا لا نكون سادة عليها؟ متحكمين فيها. فمثلما أننا نمتلك المداخل مثل: تقنية منع الحمل. الإجهاض. التدخلات والمعالجة التقنية...الخ. كذالك نتحكم في المخارج، كالموت الرحيم.

في الحقيقة إن للمسألة بعدا قانونيا، من يتخذ القرار؟ هل المريض الذي يكون على فراش الموت والذي لا يعرف وضعيته؟ قد يطلب هذا الأخير الموت ولكن هي طريقة سهلة للتخلص من الألم وبسهولة، أو قد يطلب منا إخباره، وهذا يزيد الأمر تعقيدا.

هل تكون العائلة هي الأخرى في وضعية من يقرر موت المريض؟ قد يجعلنا نشك في نيتها، ربما تريد التخلص منه. في هذه الحالة يبدو أننا بحاجة إلى التشاور مع الأقارب في هذه المسألة.

هل يمكن للأطباء اتخاذ القرار إذا اعتبرنا أن قرارهم ينبغي أن يظل سرا؟ من يضمن عدم تسببهم في موت غير مبرر؟ إذن لا أحد يستطيع اتخاذ القرار، لا المستفيد- إن صح التعبير – ولا الفريق الطبي، ولا الأقارب.

إننا هنا نعرض مشكلة مزيّفة، إنه يكفي أن نوقف العلاج الذي لا طائل منه في هذه الحالة لا نعطي الموت للمريض، بل نقرّب ما لا مفر منه، أي نقرب الآجال.[332]

لمّا سُئِل الفيلسوف **داغوني** عن مسالة الموت الرحيم في حوار بمجلة (les grands entretiens du monde) tome 2 كان جوابه كالتالي:<< إذا أردت واخترت الموت الهادئ دون ألم، نتيجة أنني مصاب بمرض مزمن ، فهذا لا يجعلني أحمل الطبيب مسؤولية ذلك لأنه منحني هذا الموت، هذا الحكم ليس عادلا وغير مقبول، ما دمت أنا الذي طلبت الموت واخترته.

332 François Dagognet. Le vivant. p. p. 183. 184.

ولذا تجدني أختلف مع المواقف الراهنة، التي تقدمها فكرة البيوإتيك ، سواء نظرتها للموت الرحيم أو علم الإخصاب الصناعي. لا أرى شيء أفضل من أن نترك الحرية للفرد في القبول أو الرفض.>>[333]

بالنسبة للفيلسوف يعتبر المدافعون عن الحرية الإنسانية، في الحقيقة هم أكثر الناس تعصبا و خطرا، لأنهم يسلبون الإنسان حرية الاختيار، كما يخشى تعصب هؤلاء المنتحلين للمذهب الإنساني pseudo-humanistes، والذين تحت غطاء الدفاع عن الإنسانية، يحرمون الناس والمواطنين من مختلف الحرّيات الجديدة التي تمنحنا إياها التقنية اليوم.[334]

هذا الموقف يذكرنا بحقيقة واقعية تعيشها الإنسانية اليوم، وتشكل صورة من صور التناقض الصريح، فهي تعطي الموت لمن لا يرغب فيه(الإعدام)، وترفض الموت لمن يريده.

يبدو أن هذه الأفكار التي توصل إليها الفيلسوف، مهمة، لأنها تجيب عن كثير مما يشغل بال العالم البيولوجي على وجه الخصوص. فإذا كان مظهرها يتضمن المعارضة – في أغلب الأحيان – لهذه التقنيات، فإن مضمونها، يوحي بالتشجيع لها الكامل من طرف الفيلسوف. الذي لا يرى في التقنيات العلمية والطبية عل وجه الخصوص إلا مظهراً من مظاهر الإبداع والتحرّر. إن التقنيات العلمية محررة أكثر منها مجردة للإنسانية مثلما يتصوّر البعض. ولذا يدعونا الفيلسوف **داغوني** إلى عدم إعتبار العالم الصناعي عالم شيطاني. وفي الحقيقة أنه ليس عالم ملائكي من جهة أخرى.

---

333 Rojer-pol droit (Propos recueillis), les grands entretiens du monde, tome 2. p. 23.

334 Ibid, p. p. 23. 24.


خاتمة

خاتمــــــــة:

تقوم فلسفة داغوني على رفض النظرة الثنائية كالقول بالجوهر والعرض، والظاهر والباطن، المادة والصورة، ففي نظره لا يُدرك الشيء إلا في كليته ووحدته، ولذا ينتقد البيولوجيا والفيزيولوجيا لأنها عملت منذ ظهورها وتطورها على تفكيك الكائن الحي - الإنسان على وجه الخصوص- قصد فهمه أكثر، وهو أمر لم تستطيع بلوغه. ثم أن القول بالثنائية، يبعد الفيلسوف عن الحقيقة، لان العمق ليس محل اتفاق فهو وهم يتصف بالغموض يتوقف على خيال الفيلسوف ولا يمثل الواقع. ولذا كان السطح أو الظاهر، أهم شيء بالنسبة لـــ داغوني. على الفلسفة أن تهتم بالواقع والابتعاد عن الميتافيزيقا بالمفهوم الكلاسيكي أي تلك الممزوجة بالخيال والعاطفة وهو بهذا يدعو إلى ميتافيزيقا جديدة.

من جهة أخرى تشترك هذه الفلسفات القديمة كلها في فكرة رئيسية، **وهي احترام وإجلال الطبيعة**. وهو أمر يعترض عليه الفيلسوف بشدة لأنه لا يرى في الطبيعة إلا كائنا ناقصا، همجيا، قاسيا تسوده الفوضى، الطبيعة تحتاج إلى من يوجهها. هذا التصور للطبيعة يبرر به داغوني مشروعية تدخل الإنسان بكل ما أوتي من قوة وعلم وتقنية لتوجيه وإعادة تشكيل الطبيعة والتي من خلالها تبرز قيمته وقدراته الإبداعية. بالنسبة للفيلسوف فإن إخضاع وتطويع الإنسان للطبيعة هو أسوأ استلاب وأقبح عبودية.

وما دام كل شيء مصنّع بأيدي الإنسان فإذن، ليس هناك شيء اسمه طبيعة، وبالتالي فإن الثقافي في نظر الفيلسوف ينبغي أن يكون في شكل مُقَاوِم للطبيعة. هذه الفكرة سوف يجعل منها مبدأ لفكرة أعم و هي الأساس في فلسفته، وتتمثل في اعتبار الإنسان سيد الحياة ما دامت الحياة هي المخبر الأول للطبيعةLa vie, est le premier laboratoire de la nature .

إن الفكرة التي توصل إليها داغوني لم تكن من العدم، فقد حاول أن يوضح لنا وظيفة الفلسفة اليوم، وذلك من خلال رفض فكرة أن الفلسفة حبيسة التاريخ، بل أنها تتطور بتطوره، ولذا نجده يرفض مفهوم المرجع ويؤمن بالإبداع. إن الفلسفة في نظر داغوني لا تستطيع أن تتغذى من نفسها، ولكن، عليها أن تدخل مدرسة العلوم، وأن تتفتح على المعارف والآداب الأخرى، فوظيفتها ثورية. لأنها تهتم بالمستقبل، تهتم بما تعده العلوم. وهذا يصدق أكثر على البيولوجيا والطب أين نجد القلق الأكثر، نظرا لطبيعة المشكلات التي تطرحها والتي لا نجد لها ردا إلا من خلال التفكير الفلسفي.

تعتبر التطورات التي شهدتها علوم الحياة والعلوم الطبية، هي في نظر داغوني سببا في إحياء الفلسفة، بحيث أصبح لها دور فعال في المجتمع، مثلها مثل بقية العلوم أي أصبحت قادرة على وضع نظريات أخلاقية ذات طابع تطبيقي (أخلاق عملية)، وكل هذا يدخل ضمن النظرة الجديدة إلى العلاقة بين العلم والفلسفة.

وما دام الطب في نظر داغوني هو أقرب العلوم إلى الفلسفة، فإن منه يمكن للفيلسوف أن يلج إلى مشكلات أنطولوجية، كالمرض والمعاناة المرضية المعيشية وإلى مشكلات أخلاقية تتعلق بالممارسة الطبية، قواعدها وحدودها (البيوإطيقا). ثم إلى مشكلات اجتماعية ترتبط بالممارسة البيروقراطية للمؤسسات الطبية. انتهى هذا التصور بالفيلسوف إلى تصنيف الطب ضمن العلوم الإنسانية. من كل هذا استطاع داغوني أن يثبت أن للطب ابستيمولوجيا خاصة به متميزة عن تلك المتعلقة بالبيولوجيا. إنها صورة جديدة للعلاقة بين الفلسفة والعلوم خاصة منها الطب والبيولوجيا.

إن ارتباط الفلسفة بالطب والبيولوجيا يمكن رده بشكل عام، إلى الاهتمام المشترك بموضوع الحياة والكائن الحي عموما، وهذا الأخير في نظر داغوني ينبغي أن يكون من اهتمامات الفيلسوف. فهو يشكل وحدة كلية مستقلة غير قابلة للقسمة، إلى جانب ذلك، فهو مادي (هيولي)، مادة قادرة على امتصاص في الوقت نفسه الزمان والمكان. أي قادرة على الإفلات من الحدود الزمكانية هو كائن في آخر المطاف، قادر على إعادة خلق كائن حي أو الحياة، وذلك بتوظيف مختلف التقنيات العلمية البيولوجية والطبية، فهو يركب المواد ويظيف أخرى لم تكن موجودة من قبل. إن التقنية تمكن الإنسان من تصحيح الأخطاء التي ترتكبها الطبيعة من تشويه ونقص، كما تمكنه من التدخل في الحياة وتوجيهها.

تستند فلسفة داغوني إلى الاعتقاد بأن الإنسان سيد الحياة، ويمكن أن يكون هو الضحية. بهذا الشكل يدعو، إلى التوجيه العقلاني للتقنيات الطبية حتى ينقص من درجة التشاؤم والمعارضة لها. فإذا كان القليل من التقنية له تأثيرات سلبية فإن الكثير منها يسمح بمحاربتها.
وبهذا يرفض أن تكون البيوإطيقا عائقا في وجه التطور التقني الطبي والبيولوجي. من خلال وضع تصور جديد واقعي لها، بعيد عن الاعتبارات الدينية أو العرقية. كل هذا يجعل من الفيلسوف داغوني، فيلسوف أخلاقي لكن ليس بالمفهوم الكلاسيكي، وإنما أخلاق عملية مرتبة بالواقع ومسايرة لواقع التقدم العلمي بصورة كبيرة وهو ما يعطيها قيمة إضافية أو بعدا آخر في توجهها المستقبلي صوب إثارة السؤال الفلسفي الأخلاقي إزاء ما تفرزه حقائق علوم الحياة والطب بشكل رئيسي.

إن ربط الفلسفة بالعلوم أضحى من الأمور التي ينبغي السعي إلى تحقيقها خاصة في وقتنا الحالي، لأن التطور السريع، الذي تشهده العلوم اليوم بحاجة إلى ضابط، وعلى الفلسفة أن تعنى بهذا الدور، يقول **داغوني**:<< إننا نعتقد بالفعل، أن في استطاعة الفيلسوف بل ينبغي عليه أن يأخذ هذا الدور. حتى يمزق هذه الذرائع، ويعيد النظر في نتائج هذه التطبيقات.>> وعليه فإن التفكير في دمج هذه المباحث الجديدة في برامج التعليم خاصة العالي منه (الجامعي) أصبح من الضروري بما كان، وهذا ينطبق على معاهد الطب والبيولوجيا لما لها من أهمية في حياة الفرد والجماعة.

مفاهيم البحث الأساسية

مفاهيم البحث الأساسية:

استنساخ Clonage تقنية تهدف إلى استخلاص خلايا متماثلة لخلية أصلية أولية تسمى " خلايا المنشأ " أو الخلايا القاعدية أو الجذعية، عن طريق تخصيب صناعي In vitro والاستنساخ أنواع ويتم عبر مراحل، الاستنساخ التشخيصي Clonage Diagnostic، والاستنساخ العلاجي Clonage Thérapeutique ، ثم الاستنساخ الكامل أو التكاثري Clonage Reproductif ، وهو الذي يثير اليوم كثير من التساؤلات البيوإطيقية Bioéthique ، وهو في نظر **داغوني** مضظهلر من مظاهر العمل البيولوجي الهمجي.

الصفحات: 26، 144، 145.

- ***F. Dagognet, Le Vivant.***

- ***سعيد محمد الحفار، البيولوجيا ومصير الإنسان.***

باثولوجيا Pathologie من أهم فروع الطب، وهي العلم الذي يحاول الكشف عن القوانين حالة المرضية عن طريق الملاحظة والتجريب في مجال الطب. من فروعها Etiologie علم يهتم بدراسة أسباب المرض. و Nosologie علم يهتم بدراسة المظاهر المرضية حتى يتم تصنيف الأمراض حسب نوعيتها. وهي العمل الأساسي للطب والعيادة ولذا تعنى بالإهتمام من طرف داغوني لأنها ترتبط اطلوجيا بالمرض، وهذا الأخير يرتبط بالوجود الإنساني.

الصفحات: 31، 85، 86، 89، 90، 96، 97، 137.

- F. Dagognet, Penser Le Vivant; L'homme, Maitre de la vie? Bordas, Paris, p. 182.

و يمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Philosophie Biologique.***
- ***G. Canguilhem, Le Normal et le Pathologique.***

بيوإطيقا Bioéthique أو ما يمكن أن يترجم إلى أخلاق حياتية، كلمة مولدّة (جديدة) استعملت لأول مرة في سنة1971 من طرف فان رانسيلر بوتر Van Rensselaer Potter الطبيب المختص في مرض السرطان في كتابه bioethics bridge to the future "البيوإطيقا جسر إلى المستقبل". وهو فضاء متميز للنقاش الأخلاقي يضمّ كل الشرائح. حول توجهات البحوث الطبية والتطبيقات العلاجية التابعة لها. هذا الفضاء للنقاش يكون قد شجع على بروز مجال معرفي، تتداخل فيه مختلف النشاطات والذهنيات، وهو دلالة على تعقيد المسائل المطروحة في هذا الصدد. كما أنه تسبب في وضع مجموعة من الحدود والقوانين التي تسمح بتنظيم الممارسة الطبية والعلمية بشكل عام. ويختلف عن الأخلاق الطبية، بطابعه العام. وينتمي

داغوني لهذا النقاش الواسع، داعيا إلى عدم استغلال هذه المؤسسة للحد من سلطة الإنسان وتحكمه في الحياة.

الصفحات: 9، 27، 41-48، 60، 130، 131، 133.

- A. Courban. Ethique de la Bioéthique. Thème d'une conférence donnée à Damas le 06/12/2003. Texte publié à Beyrouth dans la revue " travaux et jours". N°73. Printemps 2004

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, Le Vivant.

- B. Ribes, Biologie et éthique.

- F. Dagognet, A quoi sert la philosophie?

- G. Durand, La Bioéthique.

- L. Sève, Pour une critique de la raison Bioéthique.

بيوتكنولوجيا Biotechnologie يشير هذا المصطلح إلى كل تقنية تهدف إلى استغلال وتوظيف البنيات الدقيقة المجهرية كالخلايا الحيوانية أو نباتية، وكل مكوناتها كالأنزيمات، من أجل انتاج ما هو أنفع للإنسان. العمل الجاد في هذا المجال كانت مع بحوث العالم لوي باستور 1822-1895م الذي أسس علم الجراثيم أو علم الأحياء المجهرية Microbiologie، وهو ينتهي إلى خدمة الصناعة بطريقة معقولة. وهو أمر يشجعه الفيلسوف **داغوني**.

الصفحات: 22، 23، 45، 120، 130

- Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse (G.D.E.L), volume, 2 Librairie Larousse, France, 1982

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, L'homme Maitre de la vie.

بيوسياسة Bio politique عملية توجيه سياسي للحياة وللبحوث البيولوجية، وهي عنارة عن تدخل الدولة من خلال وضع قوانين تضبط وتحمي كل ما من شأنه أن يعود بالمنفعة على الناس. وهو مصطلح استعمله الفيلسوف ميشال فوكو 1926-1984م أين يضع توجيه الحيات وتنظيمها في صميم السياسة العصرية الغربية، يقول في هذا الصدد :<< لأول مرة في التاريخ من دون شك، يُفَكَرُ البيولوجي في إطار السياسي.>>وهي من الأفكار التي يؤيدها **داغوني** لضمان نتائج البحوث البيولوجية والتقنيات الطبية التي تنفع الناس مثل تقنية زرع الأعضاء.

الصفحات: 9، 133، 134.

- D. Lecourt, (Sous la direction),Dictionnaire de la pensée médicale, PU F, 2004, p. 177.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***R. Damien, F. Dagognet Médecin Epistémologue Philosophe.***

بيولوجيا Biologie علم الأحياء مفردة إبتكرها لامارك، ينتقدها **داغوني** ويعتبرها قاصرة على إدراك حقيقة الكائن الحي، لأنها تحاول إخضاعه لنفس المنهج الذي تخضع له المادة الجامدة. ولذا فهو يميزها عن الطب الذي يرى فيه علما إنسانيا. لأنه أقرب من الإنسان.

الصفحات: **9، 10، 11، 19، 20،78، 80، 85- 90، 103، 121، 126- 128، 131- 133، 138، 144، 150، 152.**

- T. Andrée, Biologie, encyclopédie universalis, v6.0.72,France S.A 27/06/2002.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Philosophie Biologique.***
- ***F. Dagognet, Le Vivant.***
- ***F. Dagognet, L'homme Maitre de la vie.***
- ***B. Ribes,Biologie et éthique.***

بيوميكانيكا أو إوالة إحيائية Biomécanique دراسة للبنى الفيزيولوجية للكائنات الحية تبعا لمبادئ الإوالية (الميكانيكية)، والتعبير عنها رياضيا وبواسطة الرسوم البيانية، على أساس مبدأ أن البنية العضوية لها وظيفة قابلة للحساب والتقدير الكمي. كحساب الطاقة التي تستهلكها. واقل ما يقال عن هذه الطريقة أنها وجدت معارضة كبيرة، نتيجة تعقيد الموضوع من جهة، ومن جهة أخرى، نتيجة طغيان النظرة الآلية الميكانيكية للكائن الحي خاصة منه الإنسان، والتي تتعارض مع مبدأ الحياة الذي يتصف بالتغير والتنوع والقدرة على التكيف، وهذا ما يتبناه الفيلسوف **داغوني** ولذا فهو يعارض هذه النظرة بشدة.

الصفحات: 123.

- F. Dagognet, Penser Le Vivant; L'homme, Maitre de la vie? Bordas, Paris, p. p. 26. 27.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Philosophie Biologique.***
- ***F. Dagognet, Le Vivant.***

تفكير بيولوجي Bio réflexion التفكير في مجال البيولوجيا يدعوا إليه **داغوني**، ويعتبره من مهام الفيلسوف، والذي من خلاله يخبرنا بما هو مسموح به ، وبما هو غير مسموح. وهو في نظره، مبدأ احتياط في مجال الحياة.

الصفحات: 43.

- R. Maggiori, F. Dagognet, Aquoi sert La Philosophie, http://www.bpi.fr,rubrique. 25/05/2006.

حيوية (مذهب) Vitalisme هو مذهب من يرى أن ظواهر الحياة تختص بمميزات معينة، ومن أصحب هذا المذهب من يقول أن في كل موجود حي مبدأ حيوياً Principe vital مباينا للنفس المفكرة من جهة، ولخواص الجسم الفيزيائية والكيميائية من جهة أخرى. وهو مذهب ينتقده **داغوني** لأنه يقول بالثنائية.

الصفحات: 70، 80، 81.

- أندريه لالالند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد الثالث، منشورات عويدلت، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2001م.، ص. 1559.

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, Rematériliser Matières et Matérilismes.
- Hee Jin Han, Etude Historico- épistémologique duVitalisme francais au 18è siècle.

د.ن.أ A.D.N الحوامض النووية هي الرسل النهائية لبرنامج صنع كائن بشري وأهمها حمض التحويل النووي المدعو إختصارا أ.د.ن D N A Acide desoxyribonucléique هذه الجزيئة الضخمة من المواد العضوية لها شكل سلّم يضم عارضتين وعدة درجات تربط بينهما، وهذا السلم يلتف على نفسهفي شكل حلزون. وينتج الأ.د.ن نسخة مطابقة لها جديدة تمثل الحمض النووي الذي يسمى أ.ر.ن A.R.N وهو كثير الشبه بالأ.د.ن ولا يحتوي على سلم ذو عارضتين.

الصفحات: 21، 84.

- بإشراف سمير عازار، الموسوعة العلمية الشاملة، نوبيلس Nobilis ، المجلد، 7، المركزسنتر نوبيلس، 2003، 2004م.، ص. ص. 32- 34.

ويمكن الرجوع إلى:

- D. Lecourt, Dictionnaire de la pensée Médicale.

دواء Médicament كل مادة تستعمل للعلاج أو للشفاء من مرض أو ألم، أو كل ما يستعمل للوقاية من مشكلة أو ضعف أو الحد منها. والدواء مثله مثل الطب قديم قدم الإنسانية، ولعل علم وظائف الأعظاء التجريبي La physiologie Expérimentale هو الذي وضع الأساس للاستعمال المعقول للدواء، بينما كان من قبل ممزوجا بالممارسة السحرية والدينية.

الصفحات: 90، 99، 100، 101.

- F. Dagognet, La Raison et les Remèdes, Collection Dito,1964. p.15.

- C. Lefèvre. Individu et médicament. Ce que soigner veut dire. Séminaire de l'école doctorale d'épistémologie.5/ 05/ 2004 .

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Philosophie Biologique.***

رومانتيكية Romantisme في الأدب ضد الكلاسيكية وفي الفلسفة ضد العقلانية. ويطلق اصطلاح الفلسفة الرومانسية على فلاسفة الألمان الذين عاشوا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. أشهرهم: فيختة، شلينج، شوبنهاور، وهيغل. ينتقد **داغوني** هذه الحركة التي لا يرى فيها إلا جماعة تعيش في وفاق مع الطبيعة، وبالتالي تقف ضد العلم والتقنية التي يعتبرها **داغوني** ضرورية.

الصفحات: 72، 113.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد الثالث، منشورات عويدلت، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ص. 1225.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Les grands Philosophes et leur Philosophie***.
- ***F. Dagognet, A quoi sert la philosophie?***

سلطة البيولوجية Bio pouvoir نتيجة التطور الذي شهدته البيولوجيا في مجال دراسة المادة الحية والإنجازات العظيمة التي حققتها من خلال فروعها كالفيزيولوجيا، والكيمياء الحياتية وغيرها. أصبح للبيولوجيا بمقتضى ذلك سلطة وهيمنة ونفوذ استدعى إخضاع كل هذا للتفكير الفلسفي والإبستيمولوجي.

الصفحات: 43.

- R. Maggiori, F. Dagognet, Aquoi sert La Philosophie, http://www.bpi.fr,rubrique. 25/05/2006

طب Médecine هو علم الأمراض وكيفية علاجها. أقدم نشاط إنساني وهو من أهم العلوم المعبرة عن الإنسان. حاول **داغوني** إقامة حدود بينه وبين البيولوجيا، حتى يتسنى له إثبات أن للطب ابستيمولوجيا خاصة به، وبالتالي إثبات ضرورة التناول الفلسفي للطب لما يشمله من بُعد انطولوجي وأخلاقي ومعرفي واجتماعي. وأخيرا إنساني وهو الأهم بالنسبة لــ داغوني، ولذا يصنفه (أي الطب) ضمن العلوم الإنسانيةن من زاوية معينة.

الصفحات: 32- 35، 38، 78، 79،85، 88- 93، 95، 97، 99، 102، 131، 135، 140، 147.

- D. Lecourt, (Sous la direction),Dictionnaire de la pensée médicale, PU F, 2004, p. 433.

- F. Dagonet, La medecine est une science Hummaine,
Revue, Panorama du medecin, p. p. 2- 4.

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, Philosophie Biologique.
- M. Foucault, Naissance de la Clinique.
- F. Dagognet, Le Vivant.
- F. Dagognet, L'homme Maitre de la vie.

طبيعة Nature مفهوم يستعمله الفيلسوف **داغوني** كعنوان لكتابه، كلمة طبيعة دون تعريفها بالألف واللام، كان الغرض، توظيفها بالمعني الواسع للدلالة على كل ما لا يتدخل الإنسان في ايجاده، ولكن يبدو أن النتائج التي توصل إليها الفيلسوف معاكسة لهذا المعنى خاصة إذا كنا نعلم أنه يعتبر الإنسان سيد الطبيعة وبالتالي سيد الحياة ، ومنه لا وجود لشيء اسمه طبيعة ما دام كل شيء مصنع بيد الإنسان.

الصفحات: **75،67،66،32، 99، 101، 106-118، 138**.

- F. Dagognet, Nature, Librairie Philosophique, J.Vrin, Paris, 1990, p. p. 9- 19.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Faces, Surfaces, Interfaces***.
- ***F. Dagognet, Les grands Philosophes et leur Philosophie***.
- ***F. Dagognet, A quoi sert la philosophie?***

عيادة Clinique في اليونانية Kliné وتعني السرير، أي سرير المريض وهي مجال المعاينات والمتابعات السريرية المباشرة للمريض. وهي التي أعطت للطب حركته التاريخية الحقيقية في نظر **ميشال فوكو**، كتابه Naissance de la clinique. وهي بالنسبة لـــ **داغوني**، الأساس في استقلال الطب بابستيمواوجية خاصة به.

الصفحات: 86، 87، 90، 93، 97، 98.

- M. Foucault, Naissance de la clinique, in Naissance de la Médecine, Éditions Cérès, 1995, p. 71.72.

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, Philosophie Biologique.

ما وراء البيولوجيا Métabiologie إذا كانت البيولوجيا تسعى إلى فهم الكائن الحي ، ولكنها لم تفلح في ذلك، في نظر **داغوني**، فإن علم ما وراء البيولوجيا هو الكفيل بذلك ويقصد به الفلسفة.

الصفحات: 127.

- F. Dagognet. Biologie. Clip Edition M-Editer. Cholet 2003.

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, Le Vivant.

مبدأ بروسيه Principe de Broussais يفيد هذا المبدأ أن الحالة المرضية عارض يحل بالجسد، ينتج عن اضطراب إما بالزيادة في التحريض والنشاط، أو النقصان وضعف النشاط. فالحالة المرضية لا تملك بذاتها وفي ذاتها قوانين خاصة بها لأنها ملحقة مباشرة بالحالة السوية.

الصفحات: 95.

- F. Dagognet, Penser Le Vivant; L'homme, Maitre de la vie? Bordas, Paris, p.182.

مرض Maladie هو موضوع الطب (الطب هو علم الأمراض) فإذا كان الاعتدال هو حال الصحة فإن المرض هو فساد الاعتدال واختلال التوازن. وفي نظر القدامى ينشأ المرض عن فساد الأخلاط. وهو المجال الأهم في النشاط الطبي معرفة كان أم تطبيقا، ولذا يشكل الموضوع المحوري في كل نقاش فلسفي نظري أو ابستيمولوجي في مجال الطب. والمرض هو أحد المبررات التي يستعملها **داغوني** لإثبات ابستيمولوجية خاصة بالطب.

الصفحات: 33، 37، 80، 86، 87، 89، 92، 93، 96، 98، 99، 102، 103.

- D. Lecourt, (Sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale , p. 431.

ويمكن الرجوع إلى:

- F. Dagognet, Philosophie Biologique.
- F. Dagognet, L'homme Maitre de la vie.
- F. Dagognet, La Raison et les Remèdes.

معيارية Normativité المعيارية هي حياة الفرد وفق المعايير الذاتية الخاصة به. ويكون سويا لا عندما ينطبق مع غيره أو مع الآخرين، وإنما عندما ينطبق ويتساوى مع مع ذاته. وفي المعيارية يعيش الحي خارج المعايير الموضوعية، متمردا عليها لذلك فالعيارية حرة ومبدعة و مغامرة. وهذه فكرة تضاف للأفكار التي يؤيدها **داغوني**، لأستاذه كانغيلهم.

الصفحات: 96.

- G. canguilhem, Le normal et le pathologique, Quadrige, Presses universitaires de France, Paris,7ème édition, 1998, p. 119. 120.

الموت الرحيم Euthanasie طريقة من طرق تخفيف الألم وذلك بتسريع الموت، لا يرى فيها **داغوني** أي مانع حين يتعلق الأمر بمصلحة المريض.

الصفحات: 58، 147.

-F. Dagognet, Le Vivant, Edition Bordas, Paris, 1988, p. p. 183. 184.

ويمكن الرجوع إلى:

-Rojet- pol droit(Propos recueillis), les Grands entretiens du monde.

نِسَالَة أو علم تحسين النسل Eugénisme يعتمد على علم الأجنة Embryologie وعلم الوراثة Génétique. والذي كان من نتائجه إطالة الحياة، تطور قدرات الإنسان، القضاء على المشاكل التي كان الإنسان يعاني منها كالأوبئة والمجاعة وغيرها، عن طريق الطب الوقائي والشفائي. يعارض **داغوني** كل التقنيات التي تهدف إلى تطبيق مبدأ الانتخاب، تحت ذريعة تحسين الجنس البشري.

الصفحات: 24، 144.

- F. Dagognet, Le Vivant, Editions Bordas, Paris, 1988, p. 179.

المذهب الطبيعي Naturalisme هو المذهب القائل بأن الطبيعة هي الوجود كله، وانه لا وجود إلا للطبيعة، أي للحقيقة الواقعية المؤلفة من الظواهر المادية، ومعنى ذلك أن المذهب الطبيعي يفسر جميع ظواهر الوجود بإرجاعها إلى الطبيعة ويستبعد كل مؤثر يجاوز حدود الطبيعة ويفارقها. يعارض **داغوني** هذا المذهب، بهذا المعنى، لأنه يتصور الطبيعة كما هي، بينما يصورها هو كما ينبغي أن تكون، ولذا يرى وجوب تبديل الطبيعة، ويقترب رأيه من رأي المثالية.

الصفحات: 75، 110، 113.

ـ جميل صليبا،المعجم الفلسفي،ج.2، دار الكتاب اللبناني،بيروت، لبنان، 1978م.،ص. 17.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Nature.***
- ***F. Dagognet, Faces, Surfaces, Interfaces.***

حيوان ما ورائي Méta-Animal أطلق **داغوني** هذا الاسم على الطبيعة، التي وصفها أفلاطون، والذي كان يمثل بالنسبة له وصفا غريبا نوعا ما، لأنه لم يدك أفلاطون من خلاله أن الطبيعة ليست ذلك المقدس بل هي شرسة، خطيرة، وعلى الإنسان أن ينظمها باستعمال كل الوسائل التقنية، حتى الأخطر كمنها.

الصفحات: 111.

- F. Dagognet, Nature, Librairie Philosophique, J.Vrin, Paris, 1990, p. p. 24. 25.

تقنيات الطبية Techniques Médicale هي جزء من التقنيات العلمية، وهي مجموع التطبيقات التقنية في مجال الطب، كالإخصاب الصناعي، والتشخيص القبولادي، وزرع الأعضاء، والموت الرحيم، وغيرها، والتي يتعرض لها الفيلسوف بالمناقشة والتقييم الأخلاقي، بالإشارة إلى مخاطرها تارة، وإلى ضرورتها تارة أخرى.

الصفحات: 8، 43، 49، 50، 52، 54، 63، 131، 132، 142.

- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج. 1، ص. ص. 329- 330.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Le Vivant.***

فيزيولوجيا Physiologie علم وظائف الأعضاء وهو أهم فرع من فروع البيولوجيا، ينتقده **داغوني**، وينتقد طريقة تعامله مع الكائن الحي خاصة الإنسان، لأنه يسعى إلى فهمه وذلك بتفكيكه، وتكميمه، وهو أمر يبعدنا عن حقيقة الكائن الحي خاصة الإنسان وهذا راجع لإتصافه بالوحدة العضوية من جهة وارتباط الجسم بالنفس وبأبعاد أخرى.

الصفحات: **20، 38، 41، 42، 45، 86.**

- F. Dagognet, philosophie biologique, Presses universitaires de France, Paris, 2ème édition. 1962. p. p.5. 65
- F. Dagognet, Penser Le Vivant; L'homme, Maitre de la vie? Bordas, Paris, p. p. 151.182.

علم الواجبات Déontologie تستعمل في الفرنسية بوجه خاص، في عبارة علم الواجبات الطبيّة(نظرية الواجبات الطبية المهنيّة)، يميزها **داغوني** عن البيوإطيقا، ذلك أن هذه الأخيرة مؤسسة جديدة بينما، علم الواجبات قديم قدم المهن الأنسانية ، كالطب مثلا.

الصفحات: 40، 43، 49، 133.

- ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ج. 2، المجلد الأول، ترجمة، زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت،لبنان، 1988م.، ص. 252.

- أحمد عبد الحليم عطية، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1988م.، ص. 9.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Le Vivant.***

ميتا الأخلاق méta – éthique أو Métamorale هي ما يتعلق بالمبادئ الأولى وبالأسس الأخلاقية، في مقابل دراسة القواعد الأخلاقية كما هي مطبقة في عمل يعّد شرعيا أو جديرا بمدح و ثناء. وبالتالي ما يطلق عليه ما بعد الأخلاق، عكس ما يسمى بالأخلاق العملية، فالأولى هي الصورة التقليدية في تصور الأخلاق بينما الثانية هي مظهرها الجديد الذي يتماشى ومقتضيات العصر ، خاصة منه تطور العلوم، و لذا يمكن القول بأن البيواطيقا هي مظهر من مظاهر الأخلاق العملية التي يدعو إليها **داغوني.** وهذا المصطلح أبتكره ليفي برول للدلالة على كلّ ما هو متعال بالنسبة إلى الواقع الأخلاقي المعطى، وضروريّ لمعاقلة هذا الواقع.

الصفحات: 41.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ج.2. ص. 789.

الأخلاق التطبيقية éthique appliquée هي المظهر الجديد لما ينبغي أن تكون عليه الأخلاق، ليس كدراسة معيارية للسلوك بل كدراسة واقعية للسلوك، وحتى لا تمتزج هذه الدراسة مع مباحث علم النفس، عليها أن تتصف بالقدرة على تقييم سلوك الإنسان ومحاولة توجيهه، كالحد من نشاطه العلمي ذا النتائج السيئة عليه.

الصفحات:37، 38، 42.

- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2003م.، ص. 39.

- ح. ب غريس، طبيعة الميتافيزيقا، ترجمة، كريم متىّ، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م.، ص. 120.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***Bruno Ribes, Biologie et éthique***.

الثنوية أو الإثنينية Dualisme مذهب من يقول بوجود مبدأين جوهريين لا يقبلان الخفض مثلا، ثنائية أخلاقية: بين الطبيعة و الرحمة، بين الهوى والحرية، ثنائية نفسية: بين الإرادة والإدراك العقلي، الخ. ينتقد **داغوني** هذا المذهب، ويعتبره، قاصرا على التعبير عن الوجود الذي لا يفهم إلا في كليته، والدليل أن الفيزيولوجيا حين أقدمت على تفكيك الإنسان لأجل فهمه لم تفلح في ذلك، ولذا تعنى الفلسفة بهذا ألمر لنظرتها الكلية للوجود.

الصفحات: 66، 69، 70، 118، 150.

- François Dagognet, faces, surfaces, interfaces, Librairie

Philosophique J.Vrin, Paris, 1982, p. 208
- Arnaud Desjardin, compte-rendu, François Dagognet, les grands philosophes et leurs philosophie. Une Histoire Mouvementeé et Belliqueuse, Les empecheurs de ponser en rond, Paris, 2002, p.10.
http://www.acamiens.fr/pedagogie/philosophie/lecture/dagognet06/01/2006

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, A quoi sert la philosophie?***

أحديّة أو الواحدية Le Monisme يقال على كل نسق فلسفي يعتبر مجال الأشياء كأنها قابلة للخفض إلى الوحدة: سواء من حيث جوهرها أم من حيث قوانينها(المنطقية أو الطبيعية) التي تدار بها، أم من الناحية الأخلاقية أخيرا. وهي كلمة من إبداع وولف. ينتمي **داغوني** لهذه النزعة، ويرفض اعتبار الكائن الحي أجزاء، ويدعوا التفكير فيه باعتباره كلا أو وحدة، حتى يمكن فهمه.

الصفحات: 65، 66، 67، 69.

- Brossolet Jacqueline, Haeckel Ernst, encyclopédie universalis, Version 6
- أندريه لالاند، موسوعة ند الفلسفية، ج. 2، ص. ص. 831-833

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Faces, Surfaces, Interfaces***.
- ***F. Dagognet, Les grands Philosophes et leur Philosophie***.
- ***F. Dagognet,A quoi sert la philosophie?***

فلسفة العلوم (إبستمولوجيا) Epistémologie دراسة نقدية لمبادئ العلوم، وفرضياتها، ونتائجها، وهي مخصصة لتحديد أصولها المنطقية وقيمتها، وبُعدها الموضوعي. وتعتبر دراسة الفيلسوف **داغوني** للبيولوجيا والطب دراسة ابستيمولوجية محلية. وتتمثل في التقييم الأخلاقي لنتائج التطبيقات العلمية البيولوجية والطبية.

الصفحات: 72، 78، 83، 85، 90، 93، 95.

- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفيّة، المجلد الأول، ص. 356.
- Dominique Lecourt, (Sous la direction), Dictionnaire de la pensée médicale, p. 430.

ويمكن الرجوع إلى:

- ***F. Dagognet, Le Vivant.***

قائمة المصادر
والمراجع المعتمدة

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1- المصادر:

1- D. François. Anatomie d'un Epitémologue. Librairie philosophique J.Vrin. Paris. 1984.

2- D. François. faces, surfaces, interfaces. Librairie philosophique J.VRIN. Paris. 1982.

3- D.François. L'homme maitre de la vie. Edions Bordas. Paris. 2003.

4- D. François. Nature. Librairie Philosophique. J.Vrin . Paris. 1990.

5- D. François. Le vivant. Edition Bordas. Paris, 1988.

6- D. François. La Raison et les Remèdes. collection Dito 1964.

7- D. François. philosophie biologique.Presse universitaire de france. 2ème Edition. 1962.

8- D. François. Pour une théorie générale des formes. Librairie philosophique J.vrin. paris. 1975.

9- D.François. Rematérialiser Matières et Matérialismes. Librairie philosophique J.vrin. Paris. 1985.

10- Sous la Direction de Robert Damien. F. Dagognet Médecin Epistémologue Philosophe. Institut Synthélabo. 1998.

2- المراجع باللغة العربية:

1- إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965 م.

2- ابن خلدون(عبد الرحمن محمد). المقدمة. دار الجيل بيروت.

3- ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1982 م.

4- إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، ترجمة، عزّت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد، 165، سبتمبر، 1992م؛

5- ايكن هنري، عصر الإيديولوجيا، ترجمة، محي الدين صبحي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1982م

6- باتيفول هنري، فلسفة القانون، ترجمة، سموحي فوق العادة، منشورات عويدت، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1972م.

7- بارتن بري رالف. إنسانية الإنسان. ترجمة. سلمى الخضراء الجيّوسي. مؤسسة المعارف. بيروت. 1961م.

8- البقصمي ناهد. الهندسة الوراثية والأخلاق. سلسلة عالم المعرفة.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، العدد 174، جويليا، 1993م.

9- تليلي عبد الرحمن، ابن رشد في المصادر العربية، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، 2002م.

10- الجابري محمد عابد. قضايا في الفكر المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. الطبعة. 2. بيروت. 2003م.

11- الجابري محمد عابد. العقل الأخلاقي العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. الطبعة الأولى. 2001م

12- الجوزية ابن القيم ، الطب النبوي، ج، 1،دار الكتب، الجزائر، 1988م

13- الحفار سعيد محمد، البيولوجيا ومصير الإنسان، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،العدد 83، نوفمبر1984 م.

14- داروين شارل، أصل الأنواع، ترجمة، إسماعيل مظهر، ج، 1،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م؛

15- ديكارت رينيه، مقالة عن المنهج ترجمة، محمود محمد الخضيري، الطبعة الثالثة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985م.
16- ديورانت ول وايريل، قصة الحضارة،ج. 2، من الكتاب الأول، ترجمة، زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988م.
17- رسل برتراند، حكمة الغرب، ترجمة، فؤاد زكريا، ج. 1، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 62، فبراير 1983م.
18- رسل برتراند. حكمة الغرب، ترجمة، فؤاد زكريا، ج. 2، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 72، ديسمبر 1983م.
19- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة، محمد فتحي الشنطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م.
20- كتاب جماعي، الزواوي باغورة، تحت إشراف، أرسطو في الفلسفة العربية الإسلامية، ج. 1، فلاسفة المشرق، مطبوعات جامعة منتوري، 2001م.
21- سارتون جورج، تاريخ العلم، ترجمة، جورج حداد، و آخرون،ج. 1، 2، 3 ، 4، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، 1976م.
22- شلش صبحي عمران، وظائف أعضاء الحيوان،ج، 1، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، 1984م.
23- صليبا جميل، تاريخ الفلسفة العربية، الشركة العالمية للكتاب، 1989م.
24- طريف الخولي يمنى، فلسفة العلم في القرن العشرين،سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 264، ديسمبر 2000م.
25- عطية أحمد عبد الحليم، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، العدد، 264، القاهر، مصر، 1988م.
26- غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة، خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1981م.
27- غريس ح. ب، طبيعة الميتافيزيقا، ترجمة، كريم متىّ، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م.
28- قنصوة صلاح، فلسفة العلم، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987م.

29- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان،

30- كونزمان بيتر. أطلس الفلسفة. ترجمة. جورج كتورة. الطبعة الأولى المكتبة الشرقية. لبنان 2001 م.

31- مالو أحمد، وآخرون، الكيمياء الحيوية البنيوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م.

32- مدكور إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية،ج 2، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الثانية،1968م.

33- النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان، منشأة المعارف، الإسكندرية مصر، الطبعة الأولى، 1964م.

3- المراجع باللغة الفرنسية:

1- Canguilhem Georges. Le normal et le pathologique. Quadrige. Presse universitaire de France.7ème Edition. 1998.

2- Ribes Bruno. Biologie et éthique. Réflexion sur un colloque De L'UNESCO. Publié en 1978 par L'organisation des nations Unies

3- de Rosnay Joël. Les origines de la vie. Edition du seuil. collection "science ouverte" 1966.

4- Foucault Michel, Naissance de la Clinique, Edition Cérès tunis, 1995.

5- Kruh Jacques. Biochimie (études médicales et biologiques). Hermann collection. 1982.

6- Guy Durand, La bioéthique(Nature, Principe, Enjeux), Les éditions du cerf, France? 1989.

7- Lucien Sève, Pour une critique de la raison Bioéthique, in, Les questions d'argent, édition Odile Jacob, Paris, 1994.

4- المعاجم والقواميس والموسوعات:

1- إدريس سهيل. المنهل. قاموس فرنسي عربي. الطبعة الثالثة والعشرون.دار الآداب. بيروت لبنان. 1999

2- صليبا جميل. المعجم الفلسفي. الجزء 1، 2، دار الكتاب اللبناني بيروت. لبنان. 1978.

3- عكاوي رحاب، موسوعة عباقرة الإسلام، ج 2، دار الفكر العربي، بيروت لبنان،الطبعة الأولى،1993م.

4- لالاند أندريه. موسوعة لالاند الفلسفية. تعريب. أحمد خليل. المجلد. 1، 2، 3، منشورات عويدات .بيروت لبنان. الطبعة الثانية. 2001م.

5 - روني إيلي ألفا، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، ج، 2، مراجعة، جورج نخل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992م.

6- بإشراف سمير عازار، الموسوعة العلمية الشاملة، نوبيلس Nobilis، المركزسنتر نوبيلس، 2003، 2004م.

7- encyclopédie universalis, v6.0.72, Copyright, France S.A 27/06/2002.

8- Sous la direction (Lecourt Dominique). Dictionnaire de la pensée médicale.. P U F . 2004.

9- Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse (G.D.E.L), volume, 2, Librairie Larousse, France, 1982

5- المجلات الدوريات:

1- محمد جديدي، البيو-إطيقا ورهانات الفلسفة القادمة، محاضرة ألقيت خلال الملتقى الدولي الثالث للفلسفة، بالمكتبة الوطنية الجزائر العاصمة. 26/25، أفريل 2007م.

2-Rojer-pol droit, (Propos recueillis), les grands entretiens du monde, Penser la philosophie, Numéro spécial de dossiers et documents du monde, tome 2, 1994

3- Antoine Courban. Ethique de la Bioéthique. Thème d'une conférence donnée à Damas le 06/12/2003. Texte publié à Beyrouth dans la revue " travaux et jours". N°73. Printemps 2004

4- François Dagognet. Biologie. Clip Edition M-Editer. Cholet 2003.

6- الرسائل الجامعية:

- رشيد دحدوح، تاريخ وفلسفة العلوم البيولوجية والطبية عند جورج كانغيلهم، أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة،جامعة منتوري،كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية قسم الفلسفة، 2006م.

7- الويبوغرافيا:

1- **جورج عفاكي، أبقراط بين الأسطورة والتاريخ،** http://www.alepdent.net/hippocrates.htm

2- **أشرف العناني، فلسفة الطب العربي،** 2006/08/25م http://annani2006.jeeran.com.

3- **سلمان قطاية،فلسفة الطب عند العرب واليونان** http://www.isesco.org.ma/pub/arabic 2006/08/20.

4 - A quoi sert La Philosophie, débat animé par, Robert Maggiori, édition de la bibliothèque d'information, Centre Pompidou, 2005,document P.D. 25/05/2006 http://www.bpi.fr,rubrique

5 - Hubert Doucet, Religiologique, Religion et Bioéthique,Réflexion sur leur relation Daniel Callahan, Why America Accepted Bioethics, The hastings center report, 23 novembre. Décembre, 1993-1996.
http://www.unites.uqam.ca/religiologiques

6 - entretien avec le Rabbin Pierre-Yves Bauer de viejuive.com
http://www.genetique.org .02/05/2006

7 -Eglise Catholique: Discours de Jean-Paul II sur les AMP (Membres de L'Académie Pontificale Pour La Vie) (2004) http://www.bioéthique.net

8- محمد البار، استشاري أمراض الباطنية، ومستشار الطب الإسلامي بجدة، عبد الله سلامه، استشاري نساء وتوليد http://www.muslimdoctor.org 2006/07/19م.

9 -Arnaud Desjardin, compte-rendu, François Dagognet, les grands philosophes et leurs philosophie. Une Histoire Mouvementée et Belliqueuse, Les

empêcheurs de penser en rond, Paris, 2002, p. 10.
http://www.ac-amiens.fr/pedagogie/philosophie/lecture/dagognet06/01/2006

11 -François Dagognet, Questions Interdites, Journal de L'humanité
Rubrique Culture, édition du 13 Mai 2002
http://www.humanite.presse.fr/journal/rubriques/4/cultures 22/12/2006

12 -François Dagognet, Cent mots pour commencer a philosopher
http://www. Ethnopsychiatrie.net/actu/dagognet.ht 02/03/2006

13 -Hee-Jin HAN. Etude Historico-épistémologique du vitalisme Français au18è
siècle. Avril 2004. p.4 http://www.gteps.net/HeejinHAN.pdf . 25/8/2006

14 -Francçois Dagonet, La médecine est une science Humaine, Revue, Panorama
du médecin, N°5011, 27/03/2006, p. p. 2- 4
http/web.mac.com/serge.cannasse/iweb/ 23/01/2007

15- Céline Levèvre, Individu et médicament, Ce Que Soigner veut dire, Séminaire de
lécole Doctorale d'épistémologie . 05/05/2006.

بيبليوغرافيا داغوني
مع التعليق عليها

ببيليوغرافيا داغوني مع التعليق عليها

إن التنوع في الوجود، يقتضي التنوع في التفكير وفي مجالاته. وهو ما تتصف به فلسفة وبحوث داغوني إذا ما تتبعنا أعماله ومؤلفاته، فقد تحدث عن الفلسفة وقواعد التفلسف، كما تحدث في الطبيعة والحياة، وعن العلوم، من بيولوجيا وطب وكيمياء وفيزياء وجغرافيا وعن الفن وغيرها من الموضوعات.

تقوم فلسفة داغوني على اعتبار الظاهر أو السطح أساس في المعرفة، وتعتبر العمق خرافة، وبعد عن الواقع. وكتابه المشهور: Faces, surfaces, interfaces 1982 يعبر عن ذلك.
هذا الأساس الفلسفي يطبقه داغوني على كل دراسة قام بها، أولها إشتغاله بالطبيعة من خلال كتابه: Nature 1990 وبالحياة وكل العلوم التي تهتم بها من طب ومرض ودواء وبيولوجيا، ربما يرجع هذا لكونه طبيب من جهة وإبستيمولوجي من جهة أخرى، وقد حاول أن يثبت من خلالها قدرة الإنسان على التحكم في الحياة مثلما يتحكم في الطبيعة. يعبر عن هذا التوجه مجموعة كبيرة من كتبه أهمها: Le vivant 1988 ، La maîtrise du vivant 1990 وكذلك pour une philosophie de la maladie 1996, أو كتابه Savoir et pouvoir en médecine 1997 وكذا La mort vue autrement 1999 ومؤخرا كتابه L'homme, maitre de la vie? 2003.
لقد حاول الفيلسوف داغوني التأسيس لفلسفة أصيلة يمكن أن نطلق عليها فلسفة التبويب أو فلسفة التصنيف، فلسفة الفهارس وهو الأمر الذي إشتغل به كثيرا منذ البداية، فهو ينظر إلى الكون على أنه يتكون من عناصر تؤلف كتاب يمكن قراءته، أو معجم كوني للعلوم والفنون يعبر عن هذه الفكرة من خلال بعض كتبه الأولى مثل كتاب Des Révolution Vertes 1973 وكتابه Pour une Théorie générale des Formes 1975 وبعده Une Epistémologie de L'espace concret 1977 وكذا كتابه Le Nembre et le lieu 1984 . ومنه فإن للقياس والتكميم أهمية في فلسفة داغوني لأنه يوحد بين النوعية والكمية، ويفتح المجال للمعرفة، التي توفق بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، فالمعرفة قياس، هذا ما يبدو من خلال كتابه Réflexion sur la mesure 1993.
ويحاول داغوني أن يثبت لنا أن علم المصطلحات terminologie وعلم قوانين التصنيف أو الصِنافة Taxinomie وكذا شرح الرموز Iconologie ، تعيننا على بناء النظام الذي نسبح فيه كما تعيننا على فهمه. هذا ما يبدو من خلال كتبه Tableaux et langages de la chimie

2002 أو كتابه Le catalogue de la vie 2004 وكذا philosophie de l'image أو Ecriture et iconographie 1973

الفيلسوف داغوني فيلسوف موسوعي يظهر ذلك من خلال مؤلفاته التي فاقت الخمسون كتابا ناهيك عن المقالات والمحاضرات. وهذه قائمة كاملة(وهذا طبعا في حدود علمي) لكل أعماله.

- Les trois tempêtes, F. D, 2005
- Entretien sur la philosophie à l'école, f. d, jean-françois muracciole; little big Man, 03/2004
- L'animal selon Condillac, f. d, Vrin, 06/2004
- Le catalogue de la vie, f. d, PUF, 04/2004
- Philosophie à l'usage des réfractaires, f. d, Empêcheurs de penser en rond, 01/2004
- 100 mots pour commencer à philosopher, f. d, Empêcheurs de penser en rond,09/2003
- cent mots comprendre L'art contemporain, f. d, Empêcheurs de penser en rond,05/2003
- Les dieux sont dans la cuisine- philosophie des objets et objets de la philosophie, f.d, Empêcheurs de penser en rond, 11/2002
- changement de perspective, f. d,Table ronde, 10/2002
- Les grands philosophes et leur philosophie- une histoire mouvementée et belliqueuse, f. d, Empêcheurs de penser en rond, 08/2002
- tableaux et langages de la chimie, Essai sur la représentation des corps, f. d, Champ Vallon, 05/2002
- comment se sauver de la servitude? Justice, école,religion, f. d, Empêcheurs de penser en rond, 04/2002
- questions interdites, f. d, Empêcheurs de penser en rond, 04/2002
- une nouvelle morale- Famille, travail, nation,f. d, Empêcheurs de penser en rond, 04/2002
- philosophie d'un retournement, f. d, Encre Marine, 04/2001
- qu'est- ce que la matière? Regard scientifiques et philosophique, françoise Monnoyeur, bernard d'espagnat, f. d, LDF, 09/2000
- Autour de Hegel homage à bernard Bourgeois, f. d, P. Osmo, Vrin, 05/2000
- Faut-il bruler Régis Debray? F. d, Champ Vallon, 09/1999
- la mort vue autrement, Tobie Nathan, f. d, Empêcheurs de penser en rond, 04/1999
- Les outils de la reflexion,- épistémologie, f. d, Empêcheurs de penser en rond, 03/1999
- Trois philosophies revisitées Saint-simon, Proudhon, Fourier, F. d, Georg Olms Veriagsbuchhandiung, 05/1998.
- Des détritus des déchets de l'abject- une philosophie écologique, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 01/1998
- savoir et pouvoir en médecine, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 12/1997
- L'essor technologique et l'idée de progrès, F. D, Armand Colin, 04/1997
- Georges Canguilhem philosophie de la vie, F. D, Armand Colin, 04/1997
- La Raison et les remèdes, F. D, PUF, 10/1996
- Pour une philosophie de la maladie- entretien avec Philippe Petit, F. D, Textuel, 03/1996
- Mort du paysage, F. D, Champ Vallon, 10/1995
- Pasteur sans légende, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 04/1994
- Le Trouble, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 02/1994
- Réflexion sur la mesure, F. D, Encre Marine, 09/1993

- Philo- propriété, F. D, PUF, 10/1992
- Pour L'art d'aujourd'hui, F. D, Dis voir, 10/1992
- Le cerveau citadelle, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 02/1992
- Le corps Multiple et un, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 1992
- Etienne- Jules Marey- la passion de la trace, F. D, Hazan Eds, 03/1990
- Corps réfléchis, F. D, Odile Jacob, 01/1990
- Nature, F. D, Vrin, 1990
- La Maîtrise du vivant, F. D, Hachette littérature, 01/1991
- Rematérialiser, F. D, Vrin, 10/1989
- Le vivant, F. D, Bordas, 06/1988
- Le nombre et le lieu, F. D, Vrin, 1984
- Anatomie D'un épistémologue, F.D, Vrin, 06/1984
- Faces, surfaces, interfaces, F. D, Vrin, 1982
- Une Epistémologie de L'espace concret, F. D, Vrin, 1977
- Pour une Théorie générale des Formes, F. D, Vrin, 1975
- Des Révolution Vertes, F D, Hermman, 1973
- Ecriture et iconographie, F. D, Vrin, 1973
- Gaston Bachelard, sa vie, son œuvre, PUF, 1965
- La Cure d'Air, F. D, PUF, 1960
- Philosophie Biologique, F. D, PUF, 1954
- Science de la vie et de la culture, F. D, Hachette, 1953
- Le progrès medical est-il accessible à tous?, F. D, Le bord de l'eau Eds, 06/2002
- Le pouvoir médicale et la mort, F. D, Le bord de l'eau Eds, 09/2001
- L'évolution créatrice d'henri Bergson, F. D, L'harmattan, 01/2001
- Comment faire de la philo?, F. D, Empêcheurs de penser en rond,
- Premières Réflexions, L'échange- Edition 2003, F. D, Breal, 07/2002
- La peau découverte, F. D, Empêcheurs de penser en rond, 09/1998
- Le musée sans fin, F. D, Champ Vallon,01/1993
- Eloge de L'objet, F. D, Vrin, 10/1989
- Traité des Animaux, F. D, Vrin, 01/1987
- La Totalité, Prologue Pour une philosophie de la totalité, F.D, Champ Vallon
- Considération sur L'idée de la Nature, F. D, Vrin
- L'invention de notre Monde, F.D, Encre –Marine
- Cheminement, F.D, Paroles d'aube, littérature –Documents
- Mémoire Pour L'avenir, F. D,

و غيرها إلى يومنا هذا.

فهرس المواضيع

فهرس المواضيع

- الفصـــــــــــــــل الثانـي
فلسفة الطب عند فرانسوا داغونـي

- الفصـــــــــــــــل الثالث
موقف فرانسوا داغونـي من التقنيات الطبيـة

Résumé de la thése de Magistère dans le tème suivant :
Techniques médicales et leurs valeurs morales dans la philosophie de François Dagognet

Présenteé par l'etudiant : Harbouche Lamri
Encadreé par le docteur : Djedidi Mohammed

Les formidables progrès de la Biologie et de la médecine, et avec l'apparition des techniques de génétique, tout comme le développement des transplantations d'organes, et de l'expérimentation humaine, la tentation de l'euthanasie, Ont suscité un questionnement éthique et conduisent donc à engager une réflexion qui concerne non seulement les médecins, les chercheurs mais aussi les philosophes les juristes et l'ensemble des citoyens.

Parce que nous nous sentons menacés dans notre intégrité par le pouvoir que la technique exerce. Nous sommes donc tous concernés et appelés à s'interroger sur le sens de la vie, de la mort, de la souffrance et sur la réalité de notre destin. Quels sont les éléments qui définissent l'identité humaine ? Comment concilier la nécessité d'une recherche scientifique et médicale de qualité avec la protection des personnes qui se prêtent aux expérimentations ? Ces interrogations dépassent, certainement, le cadre d'une science expérimentale, d'où l'importance de la Bioéthique. Un terme apparut en 1960. Une discipline qui réfléchira sur les problèmes que les progrès de la biologie posent à la médecine. Que doit-on faire, et donc laisser faire ? Que doit-on ne pas faire et interdire par des lois et ne pas laisser faire ?

Puisque la science ne possédait pas les réponses exactes que l'homme cherche à savoir, ce qui à nécessiter une réflexion plus profonde et sérieuse, disant une réflexion philosophique. Donc il n'était pas difficile d'imaginer le grand nombre de scientifiques, en particulier, biologistes et médecins, qui convergent vers la philosophie. Que se soit durant le dix-huitième siècle avec les vitalistes de l'école de Montpellier (Paul Joseph Barthez. Théophile de bordeu. Edward B. Taylor), ou bien avec les philosophes des temps modernes (Georges Canguilhem et son élève François Dagognet), dont sa philosophie et l'objet de ma recherche.

Médecin, philosophe, épistémologue, François Dagognet est l'auteur de très nombreux ouvrages, sa réflexion attachée au concret, s'est

progressivement étendue sur des questions liées aux savoirs Biologiques et médicaux, a une analyse d'ensembles du monde moderne saisi à partir de ses productions techniques, de ses problèmes administratives et juridiques, ou de ses créations artistiques. Une démarche particulièrement originale. Car au moment ou domine chez bon nombre de penseurs la condamnation de la technique, ce philosophe ne cesse de souligner les aspects positifs, libérateurs et créatifs du monde actuel même les plus redoutables tels que l'ingénierie génétique. Selon lui, si un peu de technique engendre des inconvénients, beaucoup de techniques permettent de les combattre.
Ainsi le monde industriel ne doit pas être diabolisé. Les techniques sont plus libératrices que déhumanisantes.
Les propos du philosophe Dagognet sont issus d'une philosophie basée sur le fait que cette dernière, en particulier, la philosophie contemporaine ne doit pas rejeter l'idée d'une coopération avec les disciplines qui l'entourent, tout en dépassant son isolement théorique dont la philosophie au court de son histoire à par fois témoigné.

Dagognet ne cache pas son mépris pour le Dualisme, et appelle à une théorie qui cherche à recoudre ce qui a été déchiré a réconcilier l'idée et le sensible qui ont été séparés, et opter ouvertement pour la mise en application des principes épistémologiques d'une philosophie nouvelle,et cela pour deux raisons: La première raison sur le rapport de l'homme avec la nature qui n'est plus pensé sur le mode de la soumission, Mais au contraire, sur une domination possible de l'homme sur la nature. Comme disait Descartes dans son (discourt de la méthode) L'homme maître et possesseur de la nature. La Seconde raison, la métamorphose de la philosophie en une science.
Ce qui est intolérable aux yeux du philosophe, c'est plie l'homme à la nature, car c'est la pire des aliénations. La nature est menaçante, désordonnée et cruelle. Mieux vaut comprendre que la nature n'a jamais existée, elle a toujours été travaillée, façonnée par l'homme. D'où la nécessité de la technique et de l'industrie. Une technique destinée à freiner les effets nocifs du développement.

Bien que le vivant et le premier laboratoire de la nature, selon Dagognet, il doit donc subir le même sort. Pour tenter de le comprendre, La Biologie n'a pas hésité à le fragmenter. La physiologie à le décrire en tant qu'un ensemble de pièces collées les unes aux autres. Mais le vivant, et en particulier l'homme doit être pensé en tant qu'une totalité indivisible, le vivant, de cette façon, semble relever de la réflexion philosophique, qu'il l'à toujours mis aux cœur de ces développements. Selon Dagognet, et pour plusieurs raisons fondamentales, le vivant concerne le philosophe qui doit s'efforcer à le penser en tant que tel. Autrement dit, le regardé de l'extérieur (la surface) au lieu d'aller chercher à

mettre son fond au dehors, ce que la Biologie tente de faire, et c'est pour cela qu'elle n'a jamais réussi à le comprendre. Par contre en médecine, les signes pathologiques constituent l'élément essentiel pour libérer le malade de ses souffrances. La médecine a été toujours plus proche de la philosophie, elle mérite, donc, une épistémologie spéciale et propre à elle.

Le vivant, un facteur commun entre la Biologie, qui par ses applications tente, dans un sens, le libéré. La philosophie, qui par ses réflexions tente à le comprendre. L'application des principes épistémologiques que la philosophie de Dagognet à mis en œuvre, repose sur le fait que les techniques, et applications scientifiques, biologiques et médicales soient évaluées et non pas condamnées sous le faux prétexte qu'elles risquent de nous conduire à l'apocalypse.

C'est une grave méprise concernant la relation entre les techniques médicales et la liberté, quant on croit qu'elles ôtent à l'homme des libertés. Selon dagognet c'est exactement l'inverse, elles lui en donnent des nouvelles.

Tout ça met le philosophe en désaccord avec les tendances actuelles de la Bioéthique, sur tout quant elle est défendue par des, soit disant, humanistes, sous couvert de la défense de l'homme. Et qui tentent, selon Dagognet, de priver l'humanité de cette multitude de libertés nouvelles que les techniques offrent aujourd'hui.

Les techniques médicales, selon Dagognet, n'ont ni l'intention, ni les moyens de tout commander. Elles ne décideront jamais à notre place, par contre, elles mettent clairement chacun face à ses choix. C'est en ce sens qu'elles accroissent nos libertés. Une liberté qui offre à l'homme la possibilité d'être le maître de la vie.

التقرير النهائي:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أساتذة أعضاء اللجنة الموقرة، الأساتذة الحضـــور إخـــواني الطلبـــة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بودي قبل كل شيء أن أعترف بأنه مهما كانت الكلمات التي سوف أعبر بها عن شكري، فهي لا تتسع لمعاني عرفاني بأستاذي و المشرف علـــى بحثي الدكتور "**محمد جديدي**" الذي غمرني برعايته العلمية الدقيقة. لقد كان تقويمه لعملي سديدا ثريا بالملاحظات القيمة و الإرشادات التي نبهتني إلى أمور كثيرة بسيطة كنت قـــد حملتها ما لا تطيق، و أخرى معقدة إستخففتها. فشكرا جزيلا أســـتاذي الفاضـــل. كمـــا لا يسعني إلا أن أسدي خالص شكري لأساتذتي المحترمين الذين مهدوا لنـــا الطريـــق لهـــذا العمل، ومنحونا فرصة ليس لها مثيل بمساعداتهم العلمية والإدارية. وشكري الجزيل كذلك لأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقراءتهم لعملي وهذا يزيدني فخرا و اعتزازا. كما لا يفوتني أن أقدم جزيل الشكر للفيلسوف فرنسوا داغوني شخصيا على كل الرســـائل التي لم يبخل بها عليا والتي ساعدتني على فهم أهم مبادئ فلسفته.

له ولهؤلاء الأساتذة ولكل من ساعدني عمليا وعلميا ونفسيا من قريب أو من بعيـــد على القيام بهذا البحث، الشكر الخالص.

يشرفني أن أقدم لكم ملخصا حول الأطروحة التي أعددتها لنيل شهادة المجستير، والتي تحمل عنوان " التقنيات الطبية و قيمتها الأخلاقية في فلسفة فرانسوا داغوني".

عصر التنوير عصر عبر عنه الفيلسوف برتراند راسل في قوله:<< لقد كانت الطبيعة وقوانينها محجوبة في الليل، فقال الله لنيوتن كن وتحول كل شيء إلى نور.>> هذا العصر الذي اتصف بهيمنة النزعة الوضعية المادية على تفكير الإنسان حتى أصبح يُنظر إلى الوجود وما فيه من موجودات، على أنها أشياء قابلة للتجريب وللحساب، مما أدى إلى تغيّر النظرة إلى الكائن الحي و إلى الإنسان على الخصوص. من ذلك الكائن المقدس إلى مجرد ظاهرة مثله مثل بقية الظواهر الطبيعية الأخرى، وبالتالي أصبح موضوعا للتجريب العلمي. لا بد أن يكون الدافع في كل هذا هو مصلحة الإنسان، المتمثلة في تحريره من مختلف الحتميات. لكن ماذا وراء التحرر إذا كان الإنسان يمثل فيه حقل التجارب؟ إن هذا يثير تساؤلات كثيرة حول قيمة الإنسان وما مصيره وما وظيفته في هذا الوجود، كيف يمكن التوفيق بين متطلبات البحث العلمي التجريبي من جهة، والمحافظة على الإنسان من جهة أخرى؟ وغيرها من التساؤلات التي لا تجد لها في العلم حلولا مناسبة، بالرغم مما يمتلكه من أدوات ووسائل. لذلك عنيت الفلسفة بهذه المهمة وأخذت الدور البارز في هذا المجال، وهو مناقشة النتائج العلمية من خلال مبحثها وفرعها الجديد، مبحث الإبستيمولوجيا Epistémologie، حقل خصب للتفكير الجاد في مسائل العلوم، استطاع أن يجلب له عددا كبيرا من الباحثين، نذكر منهم على الخصوص الطبيب والفيلسوف والإبستيمولوجي الفرنسي George Canguilhem (1904-1995م). وكذا تلميذه الطبيب والفيلسوف والإبستيمولوجي François Dagognet (1924م) وهو الفيلسوف الذي تناولت مواقفه الفلسفية الإبستيمولوجية من الطب والبيولوجيا والتقنيات المستعملة كموضوع لأطروحتي، محاولا الإجابة عن تساؤلات كثيرة حول الآثار السلبية التي يمكن أن تتمخض عن هذه العلوم خلال القرن الحالي وكيفية علاجها. ومما تجدر الإشارة إليه أنه كرد فعل، أقيمت لهذا الغرض مؤتمرات، وملتقيات، وندوات جمعت علماء وفلاسفة ورجال الدين وسياسيين ومشرعين وغيرهم. وأُنشأت هيئات ومنظمات

وجمعيات، مهمتها متابعت ومراقبة النتائج المتمخضة عن هذه التطبيقات العلمية خاصـــة منها المتعلقة بالبيولوجيا والطب وما لها من تأثير على الكـــائن الحـــي والإنســـان علـــى الخصوص. تحت إطار مفاهيم جديدة أهمها مفهـــوم La BIOETHIQUE، (أخـــلاق حياتية) مؤسسة جديدة ورد فعل مباشر عن التقدم الذي أحرزه الإنسان فـــي مجـــال علـــم الوراثة وبيولوجيا الإنجاب.

هل هذا يعني أن طبيعة الإنسان الأخلاقية هي التي دفعته إلى التساؤل؟ فالبعض يحذر من الصورة الجديدة التي سوف تكون عليها البحوث البيولوجية وترى فيها صورة من صـــور الانتخاب وتحسين الجنس البشري Eugénisme. و طرف آخر يرى بأن هذا الأمر يعيـــد سلطة الدين والكنيسة إلى الساحة، نتيجة القضايا التي أثارتها علوم الحياة. البعض الآخـــر يتساءل عن آفاق العلاج التي تفتحها الاكتشافات؟ في مقابل ذلك الكثير لا يفهم لِمـــا هـــذه الاعتراضات التي تمارسها القوانين الحاليـــة للبيوإتيـــك. والتـــي تمـــس حريـــة البحـــث والإستعمالات التقنية في مجال البيولوجيا والطب.

في هذا الصدد يبرز **François Dagognet** كفيلسوف علم يريد من خلال فلســـفته إعادة الاعتبار للفلسفة وللنقاش الفلسفي، ويرى أن أهميتها اليوم خاصة، أكثر من أي وقت مضى، لأنها تهتم بالمستقبل، تهتم بما تُعدّه العلوم، وهذا يصدق أكثر على البيولوجيا، أين نجد القلق الكبير من أي ميدان آخر. فمهما تقدمت العلوم والمعارف ومهما كـــان تـــدخل التكنولوجيا في شؤون الإنسان، تظل للفلسفة مهمتها الخاصة، فهي أقرب وألصق بالفعـــل الإنساني المباشر.

كيف يوظف الفيلسوف **داغوني** هذا النقاش الفلسفي في إثبات ابســـتيمولوجيا خاصـــة بالطب؟ وما هو تقييمه للفعل الإنساني وللتقنيات التي يستعملها في مجال البيولوجيا والطب خاصة؟ وما هي قيمتها الأخلاقية؟

إن محاولة فهم طريقة تعامل الفلسفة مع أهم مبحث علمي وأقربه للإنسان وهـــو الطـــب، كانت من أهم الدواعي لإختياري هذا الموضوع. ثم أن مبحثا كهذا، يشكل من غير شـــك إحدى أهم رهانات الفلسفة المستقبلية لما له من قيمة في حياة الفرد و الجماعة.

وقد اعتمدت في إعداد هذا العمل المتواضع على قــراءة أهــم المصـــادر ومؤلفـــات الفيلسوف، وأهم مقالاته، ومحاضراته. وقد حاولت تحرّي الموضوعية سواء في القـــراءة أو في الترجمة. كما استعملت المنهج التحليلي في رصـــد و فحـــص مضـــامين وأبعـــاد الموضوع في مصادر المؤلف، كما وظفت منهج المقارنة في تتبع تاريخ الطب وأخلاقياته وبعض المفاهيم ســـواء التـــي تتعلـــق بـــه أو القريبـــة منـــه مثـــل La Déontologie أو La biologie . ثم أعدت تركيب ما توصلت إلى فهمـــه عنـــد حدود الإمكان. وقد اقتضى مني هذا العمل توظيف خطة، تحتوي على مقدمـــة، وثلاثـــة فصول وخاتمة. تضمنت المقدمة: التعريف بالموضوع وأهميته ودواعـــي اختيـــاري لـــه وضبط إشكالية البحث ومنهجه.

أما الفصل الأول: تحت عنوان " الثورة البيولوجية ونتائجها " فقد تناولت فيه الحديث عـــن تاريخ الثورة البيولوجية، والتطور التقني في هذا المجال لأن مصدر التساؤل عن القيمـــة الأخلاقية للتقنيات الطبية كان أساسه ذلك التطور المذهل الذي أحدثه الإنسان فـــي مجـــال علوم المادة الحية، والبحوث الطبية على وجه الخصوص. ولما كان التقييم لهذه التقنيـــات أخلاقيا، والأخلاق مبحث من المباحث الأساسية في الفلسفة، وهو قديم بقدمها، كان لزامـــا علي، التمييز بين هذا المبحث، وبين الأخلاق في صورتها الجديـــدة، أي بعـــد ارتباطهـــا بالعلوم خاصة البيولوجية منها والطبية، والذي جعل منها أخلاق ذات طبيعة عملية، جعل منها لغة تستعملها كل الشرائح الاجتماعية، من فلاســـفة وعلمـــاء (أطبـــاء خصوصـــا)، واجتماعيين، ومتدينين، وسياسيين وقانونيين(مشرّعين)، وحتى الرأي العام.

أما الفصل الثاني: و الذي كان تحت عنوان " فلسفة الطب عند فراسوا داغوني" فـــإنني تناولت فيه تأسيس الفيلسوف لإبستمولوجيا طبية، بعد الحديث عن موقفه من تاريخ الفلسفة وتصوره لحال الفلسفة اليوم، لأن عملية الربط بين التصور الفلسفي، والتصـــور العلمـــي يقتضي بالدرجة الأولى الحديث عن مهمة الفلسفة اليوم، من خلال مبحثها الجديـــد وهـــو مبحث الإبستمولوجيا. و هذا يتطلب التمييز بين كثير من المفاهيم العلمية والفلسفية.

أما في الفصل الثالث: عنوانه" موقف داغوني من التقنيات الطبية"، فقد تناولت فيه الموقف البيوإطيقي (إن صح التعبير) للفيلسوف **داغوني** من التقنيات الطبية ولم يكن هذا الأمر ممكنا دون التطرق إلى تصوره حول الطبيعة لأن الحياة كما يقول "هي المخبر الأول لها"، ولكن هذا لا يجعل منها مقدسة. من ثم تصوُّرَهُ للكائن الحي الإنسان خاصة، لأنه من جهة جزء من الطبيعة، ومن جهة أخرى كونه موضوع التجارب العلمية والتطبيقات التقنية الطبية والبيولوجية. و من كل هذا تطرقت إلى ظبط موقفه من أهم و آخر التقنيات الطبية المستعملة اليوم.

أما الخاتمة: فقد احتوت على ملخص لأهم النتائج والأفكار المميزة لهذا البحث.

ولمّا كان كل بحث علمي أكاديمي لا يخلو من الصعوبات، فقد بذلت ما في وسعي للتغلب على بعضها مثل ترجمة الكثير من مصطلحات الفيلسوف، التي لا أجد لها أحيانا مقابل في اللغة العربية. ومن الصعوبات، ومن خلال فحصي للدراسات في هذا المجال، لم أجد ترجمات لأعمال الفيلسوف، وهذا في حدود علمي. إلى جانب هذا ومن أهم الصعوبات التي وجدتها، نقص المراجع التي تتحدث عن فلسفة الطب والبيولوجيا، ما عدا البعض منها.

بعد تحليل الفيلسوف داغوني لتاريخ المذاهب الفلسفية و تقسيمها إلى ثلاث مراحل رئيسية: القديمة و المدرسية و المعاصرة، إنتقد المذاهب القديمة و الفلسفة المدرسية لأنها:

* من جهة تشترك في **نظرتها الثنائية** Dualisme وهي نظرة يرفضها الفيلسوف ويعتبرها مأساة لأنها لا تعبر عن حقيقة الوجود والموجودات، فالقول بالثنائية، مثلا الجوهر والعرض، يبعد الفيلسوف عن الحقيقة، لان العمق ليس محل إتفاق فهو وهم يتصف بالغموض يتوقف على خيال الفيلسوف ولا يمثل الواقع. ولذا كان السطح أو الظاهر Surface أهم شيء بالنسبة لـ داغوني

* من جهة أخرى تشترك هذه الفلسفات القديمة كلها في فكرة رئيسية، **وهي احترام وإجلال الطبيعة**. وهو أمر يعترضه الفيلسوف بشدة لأنه لا يرى في الطبيعة إلا كائنا همجيا قاسيا يحتاج إلى من يوجهه.

* وهي أخيرا هذه الفلسفات تشترك في **إجلالها للمادة** التي تصبح شيئا فشيئا أكثر أهميـــة مما يُفقِدُ المعقول الواضح قيمته.

في هذه الحالة تعتبر مسألة القطيعة مع الفلسفة القديمة بشكل عام، أمر تـــم تجـــاوزه بشكل سريع حول فكرتين مركزيتين:

الأولى: أصبح **الإنسان سيد الطبيعة** بينما كان عبدا لها. **ثانيا**: **تحول الفلسفة إلـــى علـــم**، نظرا إلى اهتمامها بالواقع والابتعاد عـــن الميتـــافيزيقى بـــالمفهوم الكلاســـيكي أي تلـــك الممزوجة بالخيال والعاطفة. و بهذا يدعو الفيلسوف إلى ميتافيزيقا جديدة.

وعليه فإن من بين المراحل الثلاث التي يفضلها داغوني المرحلة المعاصرة. لأن فيها تتجلى وظيفة الفلسفة.

إن مهمة الفيلسوف اليوم تتمثل في صنع نوع من التفكير حول العلوم وقد أصبح القرن الحالي يعرف بقرن الأخلاق العملية، فرضتها طبيعة المشكلات التي يواجهها الإنسان في حياته، والتي لا يجد لها ردا إلا من خلال التفكير الفلسفي، ولذا فإن الفلسفة قـــادرة علـــى وضع نظريات أخلاقية ذات طابع تطبيقي (أخلاق عملية). كل هذا يدخل ضـــمن النظـــرة الجديدة إلى العلاقة بين العلم والفلسفة. و عليه فالفلسفة في نظر داغـــوني **لا تســـتطيع أن تتغذى من نفسها، ولكن، عليها أن تدخل مدرسة العلـــوم، وأن تتفـــتح علـــى المعـــارف والآداب الأخرى، فوظيفتها ثورية.**

بعد ما انتقد المذاهب الطبيعية القديمة والجديدة منها التي تمجد الطبيعة وتدعُوا إلى العيش في وفاق معها، إعتبر أن ما هو ثقافي ينبغي أن يكون في شكل مُقَاِوم للطبيعة. من خـــلال عقلنتها وذلك بإستعمال الإنسان لمختلف التقنيات من أجل استغلالها أو التحكم فيها والتي من خلالها تبرز قيمته و قدراته الإبداعية. فالتقنية تمكن الإنسان من تصحيح الأخطاء التي ترتكبها الطبيعة من تشويه ونقص، كما تمكنه من التدخل في الحياة وتوجيهها. فالطبيعـــة في نظر داغوني، تكون قد دخلت التاريخ، ولا يمكنها أن لا تتطور معه.

هذه الفكرة سوف تقوده إلى اعتبار الإنسان سيد الحياة كذلك، لأن الحياة هي المخبر الأول للطبيعة **La vie, est le premier laboratoire de la nature** .

إن المبرر لهذه المواقف التي تبدو في نظر البعض متطرفة، هو اعتقاد الفيلسوف أنـــه إذا كان القليل من التقنية له تأثيرات سلبية فإن الكثير منها يسمح بمحاربتها.Si un peu de. technique engendre des inconvénients, beaucoup de techniques permettent de les combattre.

في نظر الفيلسوف يعد الطب في الحقيقة، أقرب العلوم إلى الفلســفة، ومنــه يمكــن للفيلسوف أن يلج إلى مشكلات أنطولوجية، كالمرض والمعاناة المرضية المعيشية. وإلـــى مشكلات أخلاقية تتعلق بالممارسة الطبية، قواعدها وحدودها. ثم إلى مشكلات اجتماعيـــة ترتبط بالممارسة البيروقراطية للمؤسسات الطبية.

إن ارتباط الفلسفة بالطب والبيولوجيا يمكن رده إلى الاهتمام المشترك بموضــوع الكـــائن الحي والحياة La vie et le Vivant، وهذا الأخير في نظر داغوني ينبغي أن يكون مــن اهتمامات الفيلسوف. فبالرغم من أن الفيزيولوجيا، تمكنت من الدخول في أعماق الكـــائن الحي، تفكيكه وإخضاعه للتجريب، وحسابه، إلا أنها لم تتمكن من تقديم معنى للحيـــاة، لأن هذه الأخيرة أكثر تعقيدا مما تبدو عليه. بهذا الشكل يعتقد داغوني أن الكائن الحي رهـــان صراع بين الظاهر والباطن والبيولوجيا تخاطر بإخراج باطنه.

من كل هذا يتصور داغوني الكائن الحي خاصة الإنسان من خلال مقارنتـــه بـــالحيوان أو بالمادة الجامدة، على النحو التالي:

*أولا: أنه يشكل وحدة كلية مستقلة غير قابلة للقسمة، و هنا تتجلـــى نظـــرة الفيلســـوف الرافضة للثنائية

* إلى جانب ذلك، فهو مادة قادرة على امتصاص في الوقت نفسه الزمان والمكـــان. أي قادرة على الإفلات من الحدود الزمكانية بهذا يكون الكائن الحي الإنسان نتيجة حتميتين : الاستمرار والتجديد.

* كما أنه قادر على السكون والحركة والتوازن، ربما يشبه في ذلك الحيوان، لكـــن هـــذا الأخير لم يتمكن بالرغم من سرعته، من مغادرة الأرض إلى الفضاء.

* وهو كائن في آخر المطاف قادر على إعادة خلق كائن حي آخــر أو الحيــاة، وذلــك بتوظيف مختلف التقنيات العلمية البيولوجية والطبية، فهو يركب المواد ويظيف أخرى لــم تكن موجودة من قبل. من خلال التقنيات الطبية والبيولجية يُظهر الإنسان قدرتــه علــى التحكم في الحياة، شريطة أن لا يتجاوز الحدود.

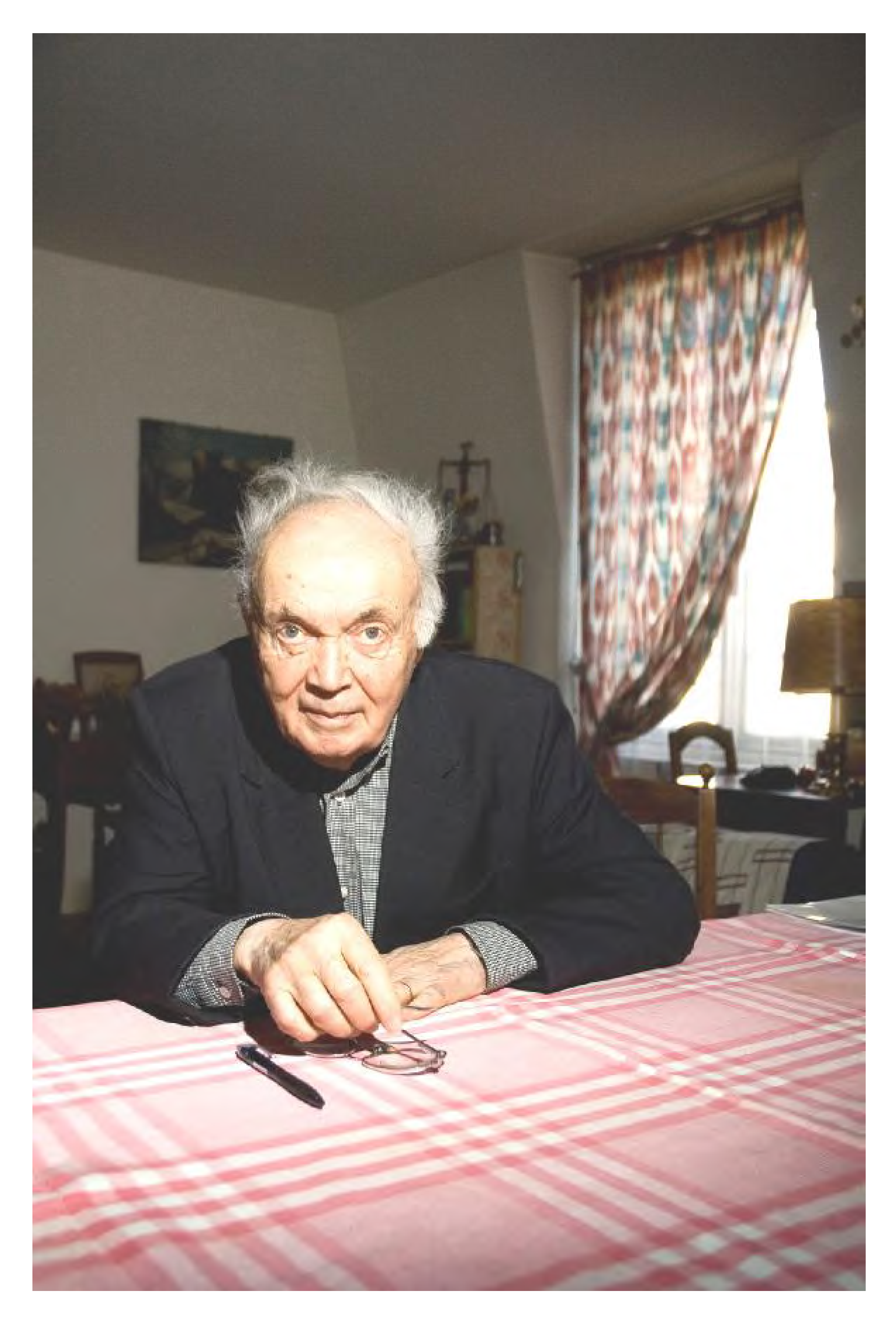
إن فلسفة داغوني تستند إلى الاعتقاد بأن الإنسان سيد الحيــاة، ويمكــن أن يكــون هــو الضحية. بهذا الشكل يدعو، إلى التوجيه العقلاني للتقنيات الطبية حتى يُنقص من درجــة التشاؤم والمعارضة لها.

و بهذا يُعتبر داغوني من الفلاسفة الأوائل الذين دعوا إلــى إقامــة حــدود لا ينبغــي تجاوزها، حول التجارب على الإنسان، ولذا، يكون قد قال بالبيوإطيقا دون أن يذكر هــذا المصطلح، ويميزها عن أخلاقيات الطب كمهنة La Déontologie كما يميزها عن الدين لأنه كان دوما معارضا للتطور العلمي والتقنــي. ويفضــل توجيههــا (أي البيوإطيقــا) سياسيا، بمعنى تدخل الدولة في توجيه هذه المؤسسة الجديدة، ولذا فهو ينتقد الهيئات التــي تمثلها، ويرى بأنها عاجزة عن المراقبة والحد من تجاوزات العلم خاصة منه البيولوجيــا. ومن جهة أخرى يرفض أن تكون البيوإطيقا عائقا فــي وجــه التطــور التقنــي الطبــي والبيولوجي. وبهذا يكون قد وضع لها تصورا جديد، واقعي بعيد عن الاعتبارات الدينيــة أو العرقية.

كل هذا يجعل من الفيلسوف داغوني، فيلسوف أخلاقي لكن ليس بــالمفهوم الكلاســيكي، وإنما أخلاق عملية مرتبطة بالواقع

إن التنوع في الوجود، يقتضي التنوع في التفكير وفي مجالاته. وهو مــا تتصــف بــه بحوث داغوني وفلسفته إذا ما تتبعنا أعماله ومؤلفاته، فقد تحدث عــن الفلســفة وقواعــد التفلسف، كما تحدث في الطبيعة والحياة، وعن العلوم، مــن بيولوجيــا وطــب وكيميــاء وفيزياء وجغرافيا وعن الفن وغيرها من الموضوعات التي أتت على نحو يفوق الخمسين مؤلفا.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أجدد شكري لكل من أعانني على إنجاز هذا البحث راجيا من الله عز و جل أن أنفع به. فنحن لسنا بمعزل عن العالم و علينا أن ندرك أن بعث الفلسفة في وطننا العربي الإسلامي مرهون بإدراك وظيفتها، التي تبدو واضحة اليوم أكثر من أي وقت مضى، و لعل قول الفيلسوف داغوني أكثر تعبيرا حين ذكر أن الفلسفة لا تستطيع أن تتغذى من نفسها، ولكن، عليها أن تدخل مدرسة العلوم، وأن تتفتح على المعارف والآداب الأخرى، فوظيفتها ثورية. وشكرا لكم جميعا.و السلام عليكم.



François Dagognet